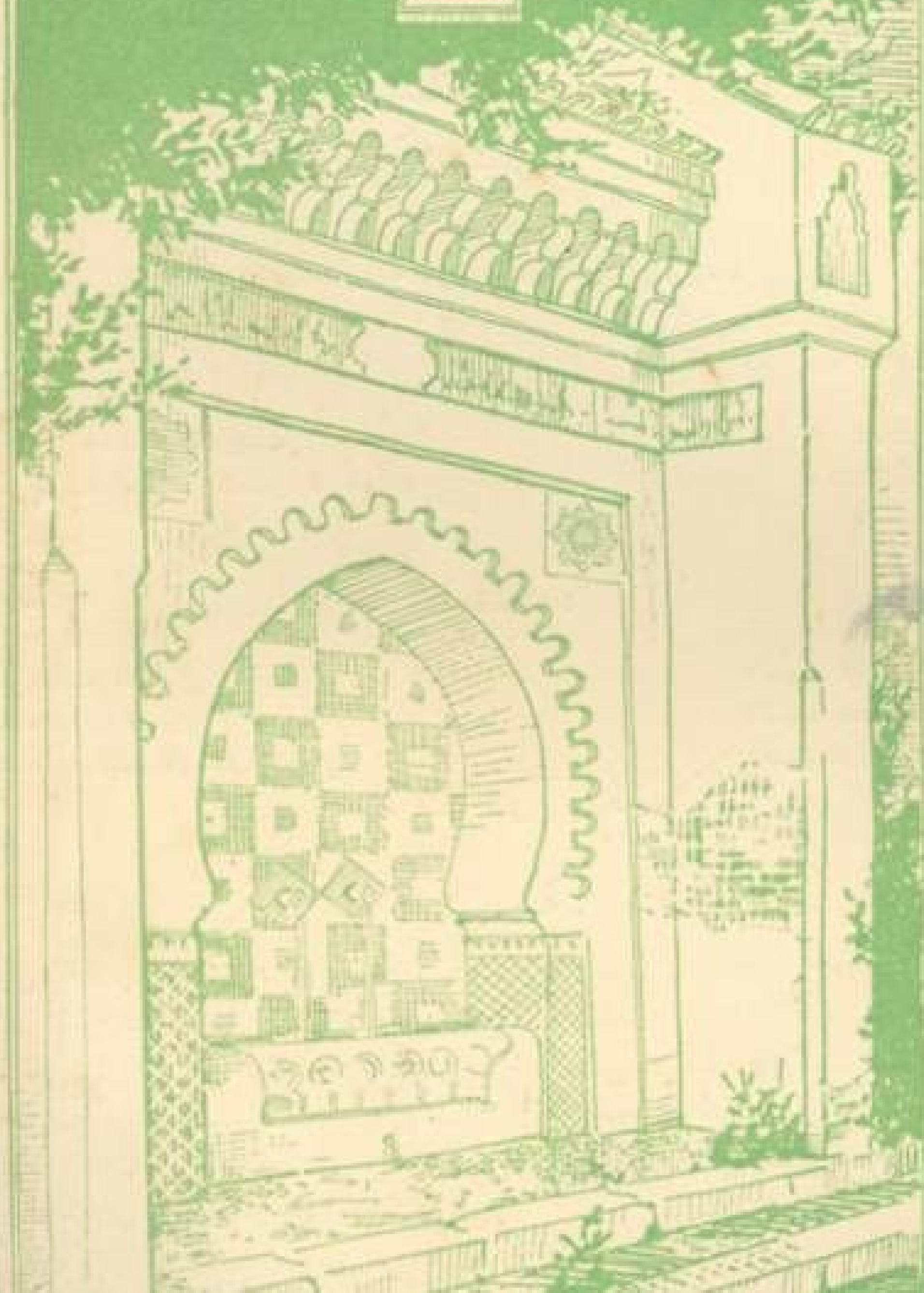
ولا غالب إلا الله

تطوان



المملكة المغربية

وزارة التربية الوطنية
والشبيبة والرياضة

«تطوان»

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تنبيه :

لا تقبل للنشر الا المواد المطلوبة .
المقالات المعروضة لا بد ان تمضى بأسماء اصحابها .
يجب على المؤلفين او الناشرين الذين يرغبون فى الاخبار عن مؤلفاتهم فى مجلة «تطوان» ان يبعثوا نسختين الى سكرتارية هذه المجلة .
المراسلة الادبية توجه الى السكرتير، وغيرها تبعث الى مدير مجلة «تطوان» : معهد مولاى الحسن، تطوان (المغرب)

ثمن النسخة :

المغرب، اسبانيا وفرنسا : سنة واحدة.......................... 12،50 درهم
فى باقى البلاد : سنة واحدة.......................... 4 دولارات

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

منشورات الجامعة المغربية

كلية الآداب

٢

معهد مولاى الحسن

للابحاث المغربية الاندلسية

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

العدد الخامس

السنة 1960

دار كريمـاديس للطباعـة ـ شارع النصـر 3 تطوان (المغرب)

محمد الفاسي

الكاتب الوزير محمد بن عثمان المكناسي *

لم يترجم احد من المؤرخين للوزير ابن عثمان ترجمة وافية. واول من خصه بترجمة من المغاربة المؤرخ مولاى عبد الرحمن بن زيدان فى كتابه «اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس» (1) ولكن مؤرخ مكناس لم يشر الى تاريخ وفاته ولم يتعرض بتفصيل للمناصب التى شغلها ابن عثمان فى ايام سيدى محمد بن عبد الله ومولاى اليزيد ومولاى سليمان. اما من سبقه من المؤرخين من الزيانى الى الناصرى فانهم لا يزيدون على التلميح الى الوزير ابن عثمان بمناسبة سفارته الى اسطنبول وبمناسبة المعاهدة التى عقدها المغرب مع اسبانيا بواسطته سنة 1213 هـ موافق (1799 م) وبمناسبة وفاته. واننا فى هذه العجالة نحاول اظهار بعض ما خفى من آثاره معتمدين بالخصوص على اقوال الافرنج المعاصرين له زيادة على ما عند مؤرخينا وعلى ما اطلعنا عليه اخيرا من آثاره وعلى نصوص المعاهدات التى حافظت عليها خزانات اوربا .

ولادته :

ولد ابو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان وبه شهر المكناسى بمدينة مكناس فى اواسط القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى) من بيت طلب وكان ابوه مورقا واعظا بأحد مساجد مكناس وناب عنه ولده ابو

---

*) كنت نشرت طرفا من هذا البحث فى مجلة المغرب الجديد التى كانت تصدر بتطوان فى 3 من اعدادها : عدد 11 (بتاريخ فاتح ربيع الاول) وعدد 12 (15 ربيع الاول) وعدد 13 (فاتح ربيع الثانى) سنة 1355 (مايه - يونيه سنة 1936)

1) عند كتابة هذا البحث لم يكن ظهر من كتاب اتحاف اعلام الناس الا الجزآن الاول والثانى وقد كنت اطلعت على ترجمة ابن عثمان فى نسخة المؤلف المخطوطة رحمه الله وعند الطبع زاد فيها المؤلف ملخصا حررته له عن هذا البحث الذى كنت وضعته كمذكرة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا من جامعة السوربون

عبد الله في هذا الوظيف وهو لا يزال في طور الشباب. ومن هذا الوظيف رقاه السلطان سيدي محمد بن عبد الله لوظيف سرد الكتب بالقصر السلطاني ثم عينه كاتبا بحضرته .

ولايته بتطوان :

وقد نقل مولاي عبد الرحمن ابن زيدان عن فهرسة الزياني ان ابن عثمان ولي في هذه المدة قيادة تطوان وانه بقي بها مدة طويلة (2). ولم اقف على نص آخر يؤيد هذا الخبر بكيفية واضحة اذ للمؤرخين اقوال متعارضة تتلخص في ان ابا محمد سكيرج ذكر ان السلطان المولى سليمان لما تم له الامر عزل قائد تطوان الحاج عبد الرحمن اشعاش وولى مكانه الكاتب محمد بن عثمان المكناسي واقام بتطوان حاكما نحو عام (2 ثانية)

وصاحب الاعلام ذكر ان المولى سليمان ولاه قضاء تطوان لا العمالة (2 ثالثة) قال الاستاذ داود : «ولم اقف على مستند صحيح ارجح به احدى الروايات الثلاث ومن الممكن ان ولايته قد تكررت والله اعلم» .

سفارته الاولى

وفي سنة 1193 هـ (1779 م) بعثه سيدي محمد بن عبد الله سفيرا الى اسبانيا ولم يتعرض احد من المؤرخين المغاربة لهذه السفارة، وقد استفدنا تاريخها من كتاب مترجمنا نفسه المسمى «احراز المعلى والرقيب» (3) وهي رحلته الى الشرق قال شيني (4) : «ان قطع العلائق السياسية بين فرنسا

---

2) ج 4 ص 160

(2 ثانية) ذكر هذا الاستاذ داود في كتابه مختصر تاريخ تطوان ص 107 ونسب لابن زيدان انه «نقل في الاتحاف (ج 5 ص 143) عن الزياني في فهرسته ان المولى محمد بن عبد الله هو الذي ولاه قضاء تطوان» والواقع انه لا يوجد شيء مطلقا يتعلق بابن عثمان في ص 143 من الجزء الخامس والذي ذكره ابن زيدان هو ما اشرنا اليه «انفا من النقل عن فهرسة الزياني اسناد الولاية لابن عثمان لا القضاء . وورد ذلك في الجزء الرابع ص 160

2 ثالثة) ج 5 ص 143 من الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام

3) ص 456 من نسختنا المنقولة عن النسخة الوحيدة المعروفة لهذه الرحلة وهي التي بالخزانة الزيدانية

4) هو قنصل فرنسا العام اذ ذاك بالمغرب وكان يقيم بسلا باذن خاص من السلطان وهذا القنصل هو والد الشاعر الفرنسي المشهور أندري شيني (A. Chénier) وله مؤلف مهم عن المغرب وسائر احواله سماه «ابحاث تاريخية عن المغرب وتاريخ المغرب الاقصى» طبع بباريز في ثلاثة اجزاء سنة 1787 انظر الجزء الثالث ص 519

وانجلترا غير الوضعيـة السياسية باوربا فرأت الدولة الاسبانيـة الوقت مناسبا للتقرب من امبراطور المغرب وفعلا جدد الصلح بين اسبانيا والسلطان بواسطة سفيره ابن عثمان وقد ساعد سلطان المغرب الدولة الاسبانية فى كل مطـالبهـا» .

وقد ألف ابن عثمان رحلة فى سفارته هذه ولكن مع الاسف ضاعت مع ما ضاع من تراثه كمـا سنـراه. ولا نعرف هذه الرحلة الا بما ذكر المترجم عنها استطرادا فى كتابـه «البـدر السافر فى افتكاك الاسارى من يد العدو الكافـر» الذى وضعه فـى رحلتـه سفيرا الى مالطة ونابلى. قال عند كلامه على صوم النصارى انه توسع فى هذه المسالة فـى كتابـه «الاكسيـر فى فكاك الاسير» (5) وقـد اقتبس هذا الاسم من رحلة الوزير الغسانى المسماة «رحلة الوزيـر فـى افتكاك الاسير» وهى فى رحلته الى اسبانيا سفيرا من لدن سلطان المغرب مولاى اسماعيل.

ويظهر من كلام شينـى ان ابن عثمان بعث الى اسبانيا لتجديد الصلح بين الدولتيـن ولكـن حسب اسم هـذه الرحلة المفقودة ولما نعلمه من اهتمام سيدى محمـد بن عبـد الله بالاسارى فانه لا شك كلف ايضا بافتداء اسارى المسلميـن ــ ومـن جملة فصول المعاهدة التى وقع عليها ابن عثمان بالنيابة عن سلطان المغـرب تعهد المغرب بعقد معاهدة صلح مع ابن ملك اسبانيا امير نابلى كما ذكر ذلك ابن عثمان فى رحلته البدر السافر.

هـذا ما كنا نعلمـه قبل ان نكتشف منذ بضعة شهور رحلة الاكسير فى فكاك الاسير وقد اردت ان اتـرك هـذه العبارات كما كتبتها منذ نحو عشرين سنة ويزيد تعجبنا لاهمال مؤرخـى المغـرب لهذا الحادث التاريخى الذى كان له اثر كبير على علائق المغرب الديبلوماسية للمعاهدة التى ابرمت بأرانخويس وعلى مكانته فى حوض البحر الابيض المتوسط. كما ان النص العربى قد اكتشف مؤخرا فى المحفوظات التاريخية للدولة بعاصمة اسبانيا

5) انظر عن هذه الرحلة كتاب الاستاذ ليفى بروفنصال (Lévi-Pro., His. Chorfa) «طبقات المؤرخين المغاربـة لدولتـى الشرفاء السعديين والعلويين» المطبوع بباريز سنة 1922 عند لاروز (Larose) ص 284.

ونشره الاستاذ اريباس بالاو فى مجلة «تمودة» (6) وكان النص الاسبانى وترجمته الى الفرنسية معروفين من قبل (7) .

وقد كان سفر ابن عثمان من رباط الفتح حيث كان يقيم السلطان سيدى محمد بن عبد الله يوم 20 شوال سنة 1193 (موافق 29 نوفمبر سنة 1779). وتوجه الى سبتة ومنها الى قادس وقوبل بحفاوة كبيرة وقصد بعد ذلك مدينة مدريد مارا بمدن الاندلس الشهيرة وتعرض فى رحلته لوصف الآثار الاسلامية بتدقيق مثل وصفه لمسجد قرطبة مثلا .

وكان وصوله للعاصمة الاسبانية عشية يوم الاربعاء 4 محرم سنة 1144 (الموافق 11 يناير سنة 1780) وقضى بها ثلاثة اشهر يزور معالمها ويتنقل بين المدن والمتنزهات التى كان يقيم بها الملك «كارلوس الثالث» وهو فى كل ذلك محل حفاوة زائدة. ثم اذن له بالسفر الى مدينة شقوبية لزيارة الاسرى المسلمين من اهل الجزائر ليوزع عليهم الصلات التى وجهها لهم سلطان المغرب، ولما رجع بعد ذلك وقصد «مدينة «لا كرانخا» «لارانخة» متنزه الملك لم يجده بها فذهب الى «ارانخويس» حيث اقام شهرا كاملا مع الملك يحضر معه كل الحفلات وخصوصا ألعاب الثيران، وقد وصفها فى رحلته بكل دقة وطلب اثناء مقامه من الملك ان يطلق سراح بعض اسارى «شقوبية» من رؤساء الجزائر، فقال له هذا لا يمكن لان الجزائر أسارى من رعاياه وهو يحتفظ بمن فى «شقوبية» للمفاداة ولكنه اكراما له يطلق سراح اثنين منهم، وقد نفذ هذا الوعد .

وقد كان يتفاوض اذاك فى شروط المعاهدة مع وزير «كارلوس الثالث» الدوق دى فلوريدا بلانكا الشهير. وكان ابن عثمان لما اطلع على المخطوطات الموجودة بدير الاسكوريال ابدى رغبة فى ارجاعها او بعضها بالاقل الى

6) السنة السادسة ج 2 ص 327 – 335

7) نشر الاصل الاسبانى لهذه المعاهدة فى كتاب مجموعة المعاهدات والاوفاق والتصريحات لجامعة اليخاندرو روديل كانتيو Alejandro del Cantillo «Colección de tratados, convenios y declaraciones» ونقله عنه مانويل كونروطى فى كتابه «اسبانيا والبلاد الاسلامية ايام وزارة فلوريدا بلانكة» – مدريد سنة 1909 ملحق 51 ص 403 Manuel Conrotte «España y los paises musulmanes durante el Ministerio de Floridablanca» اما النص الفرنسى فقد نشره روارد دى كارد فى كتابه «علائق اسبانيا والمغرب فى القرنين الثامن والتاسع عشر – باريس 1905 E. Rouard de Card: «Les relations de l'Espagne et du Maroc pendant les XVIII et XIX siècles واعاد نشر هذه السنة الاستاذ كايى فى كتابه : اوفاق السلطان سيدى محمد بن عبد الله الدولية (1757 – 1790) مجموعة كلية الحقوق بجامعة الرباط – ص 233 «Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohamed ben Abdallah».

ونشره الاستاذ اريباس بالاو فى مجلة «تمودة» (6) وكان النص الاسبانى وترجمته الى الفرنسية معروفين من قبل (7) .

وقد كان سفر ابن عثمان من رباط الفتح حيث كان يقيم السلطان سيدى محمد بن عبد الله يوم 20 شوال سنة 1193 (موافق 29 نوفمبر سنة 1779). وتوجه الى سبتة ومنها الى قادس وقوبل بحفاوة كبيرة وقصد بعد ذلك مدينة مدريد مارا بمدن الاندلس الشهيرة وتعرض فى رحلته لوصف الآثار الاسلامية بتدقيق مثل وصفه لمسجد قرطبة مثلا .

وكان وصوله للعاصمة الاسبانية عشية يوم الاربعاء 4 محرم سنة 1144 (الموافق 11 يناير سنة 1780) وقضى بها ثلاثة اشهر يزور معالمها ويتنقل بين المدن والمتنزهات التى كان يقيم بها الملك «كارلوس الثالث» وهو فى كل ذلك محل حفاوة زائدة. ثم اذن له بالسفر الى مدينة شقوبية لزيارة الاسرى المسلمين من اهل الجزائر ليوزع عليهم الصلات التى وجهها لهم سلطان المغرب، ولما رجع بعد ذلك وقصد «مدينة «لا كرانخا» «لارانخة» متنزه الملك لم يجده بها فذهب الى «ارانخويس» حيث اقام شهرا كاملا مع الملك يحضر معه كل الحفلات وخصوصا ألعاب الثيران، وقد وصفها فى رحلته بكل دقة وطلب اثناء مقامه من الملك ان يطلق سراح بعض اسارى «شقوبية» من رؤساء الجزائر، فقال له هذا لا يمكن لان الجزائر أسارى من رعاياه وهو يحتفظ بمن فى «شقوبية» للمفاداة ولكنه اكراما له يطلق سراح اثنين منهم، وقد نفذ هذا الوعد .

وقد كان يتفاوض اذاك في شروط المعاهدة مع وزير «كارلوس الثالث» الدوق دى فلوريدا بلانكا الشهير. وكان ابن عثمان لما اطلع على المخطوطات الموجودة بدير الاسكوريال ابدى رغبة فى ارجاعها او بعضها بالاقل الى

6) السنة السادسة ج 2 ص 327 – 335

7) نشر الاصل الاسبانى لهذه المعاهدة فى كتاب مجموعة المعاهدات والاوفاق
والتصريحات لجامعة اليخاندرو روديل كانتيو Alejandro del Cantillo «Colección
ونقله عنه مانويل كونروطى فى كتابه de tratados, convenios y declaraciones»
«اسبانيا والبلاد الاسلامية ايام وزارة فلوريدا بلانكة» – مدريد سنة 1909 ملحق 51 ص 403
اما النص الفرنسى فقد نشره روارد دى كارد فى كتابه «علائق اسبانيا والمغرب فى القرنين
الثامن والتاسع عشر – باريس 1905 Manuel Conrotte «España y los paises
musulmanes durante el Ministerio de Floridablanca» E. Rouard de Card:
«Les relations de l'Espagne et du Maroc pendantles XVIII et XIX siècles
واعاد نشر هذه السنة الاستاذ كايى فى كتابه : اوفاق السلطان سيدى محمد بن عبد الله الدولية
(1757 – 1790) مجموعة كلية الحقوق بجامعة الرباط – ص 233 «Les accords
internationaux du Sultan Sidi Mohamed ben Abdallah».

المغرب وقصة هذه الكتب المغربية معلومة لا نطيل بتفصيل خبرها. فلما تم الاتفاق على فصول المعاهدة ومثل السفير بين يدى الملك فى حفلة التوديع دفع له الوزير النص النهائى لمشروع المعاهدة ورسالة من كارلوس الثالث للسلطان سيدى محمد بن عبد الله وكتبا عربية هدية قال الملك : «قد بلغنى انك اردت اخذ بعض الكتب من «الاسكوريال» ولكنها محبسة لا يمكن التصرف فيها وهذه عوض منها» .

وبعد مغادرته ارانخويس قصد طليطلة لزيارتها وان لم تكن على طريقه لانها كانت دار اسلام كما يقول، ومنها قصد مدينة قرطاخنة وهى ميناء على البحر الابيض المتوسط كان به اذاك عدد من الاسرى المسلمين ومر فى طريقه بين طليطلة وقرطاخنة بمقاطعات مانتشا ومرسية وبلنسية وهو يصف كل المدن التى يجتاز بها والمعامل والمصانع التى يقف عليها.

وبقرطاخنة التقى بالاسرى المسلمين وكلهم من الجزائر وفرق عليهم صلات السلطان وبهذه المناسبة انحى باللائمة على ولاة الاتراك بالجزائر لعدم افتدائهم العرب من اهل الجزائر وانهم يهتمون بأبناء جلدتهم من الترك اكثر مما يهتمون بأبناء الجزائر العرب وتعرض بتفصيل للعمل الانسانى العظيم الذى كان يقوم به سيدى محمد بن عبد الله فى افتداء الاسرى المسلمين .

وواسى ابن عثمان الاسرى الذين لقيهم واخبرهم انه تكلم فى شأنهم مع ملك اسبانيا. وفى هذه الاثناء اخبره حاكم المدينة ان الملك امره بتسريح ثلاثين من هؤلاء الاسارى وتقديمهم هدية للسلطان سيدى محمد بن عبد الله. ولكن ابن عثمان لم يكتف بذلك خصوصا بعد ما شاهد الحالة التى عليها اولئك المساكين، فكاتب الوزير الاعظم فى شأنهم واقام ينتظر الجواب الذى ورد بأنه لولا ان بالجزائر اسارى اسبانيين لسرح جميع الاسارى المسلمين لوجه ملك المغرب ولكنه لا يستطيع ذلك انما يفوض للسفير ان يختار عددا من الاسرى آخرين يسرحهم له. ففعل وتخير الصبيان خوفا على دينهم والشيوخ العاجزين وذوى العاهات ومن طال مكثه فى الاسر حتى اجتمع فى ذلك اثنان وتسعون اسيرا زيادة على الثلاثين فصار الجميع اثنين وعشرين ومائة، ولم يتعرض هنا للاسيرين المسرحين من شقوبية. واكترى لهؤلاء الاسارى مركبا يقلهم الى سبتة. وذكر بهذه المناسبة ان السلطان سيدى محمد لم يغفل عن الآخرين واخذ يسعى بكل الوسائل فى انقاذهم حتى اطلق سراح زهاء الالفين وكلهم من اهل الجزائر.

وبعد سفر مركب الاسارى المسرحين قصد ناحية غرناطة وزارها وتكلم عليها بتفصيل وتابع سيره حتى وصل مدينة طريفة ومنها ابحر الى سبتة حيث وجد الاوامر السلطانية تامره بالمكث بها الى ان ترد عليه التعليمات فبقي بها ستة وثلاثين يوما، ولما خرج كان معه الاسارى الجزائريون ودخل بهم تطوان فى مهرجان عظيم واحتفال لم يتقدم له مثيل فرحا بأسارى المسلمين المسرحين وبرجوع السفير وقد نجح فى ماموريته .

كل هذا لا نجد له ادنى اثر فى اى كتاب وضع فى بلادنا من هذه الحقبة من تاريخنا .

اما نص المعاهدة الذى وجد بمدريد فقد ورد فى آخره حرر بأرنخويس فى شهر مايه سنة 1780 محمد بن عثمان لطف الله به، ولم يذكر اليوم من الشهر، وكان ذلك حسب المؤرخين الاسبان يوم الثلاثين منه كما انه لم تذكر الموافقة للسنة الهجرية وهى : 26 جمادى الاولى سنة 1194، وبعده مصادقة السلطان سيدى محمد بن عبد الله على عادته فى ذلك بكتابة التاريخ بالارقام حسب الاسلوب الحديث المستعمل اليوم وهو الرمز للشهر برتبته فى السنة وحيث كان ذلك يوم 3 محرم من سنة 1195 فقد كتبه هكذا : 3 ـ 1 ـ 1195 (ثلاثة ـ واحد ـ خمسة وتسعون ومائة والف) اى بعد مرور سبعة اشهر على توقيع محمد بن عثمان للمعاهدة التى حملها معه الى المغرب وبعد ما اطلع عليها السلطان صادق عليها وارجعها الى مدريد .

وكان من ضمن فصول هذه المعاهدة التى تعرف فى كتب المؤرخين الغربيين بوفق ارانخويس Convenio de Aranjuez فصل وهو العاشر والاخير بفتح الباب لملك نابولى وصقلية المعروف بملك الصقليتين وهو فردناند الاول ابن ملك اسبانيا كارلوس الثالث ان اراد الدخول فى المعاهدة المبرمة بين والده وملك المغرب. وقد وقع نائبه الدوق دى سانت اليزابيط Le Duc de Sânte-Elisabeth على عقد يلتزم بمقتضاه الملك فردناند الاول بالنسبة لممالك ما التزمه والده وذلك بمدريد بتاريخ 23 مايه سنة 1781 (8) وسنرى ان سنة بعد هذا وقع ابن عثمان على معاهدة خاصة ابرمت بين المغرب ومملكة الصقليتين .

تعيينه وزيرا :

وبعد ما رجع من سفارته باسبانيا وقد قام بالمامورية المكلف بها احسن قيام عينه السلطان سيدى محمد بن عبد الله وزيرا، ولكن المؤرخين

8) انظر نص هذا العقد مترجما الى الفرنسية عن الايطالية فى كتاب كايى عن اوفاق سيدى محمد بن عبد الله المشار اليه ءانفا ص 239

المغاربة ما عدا مولاى بن زيدان لا يلقبونه بهذا اللقب ويكتفون بلفظة كاتب وذلك لسببين، اولهما ان لفظة كاتب كانت تستعمل بمعنى وزير ثم ان مرجع المؤرخين الوحيد لحوادث آخر القرن الثانى عشر هو ابو القاسم الزيانى وقد كان عدوا لدودا لابن عثمان ومنافسا حسودا ـ ومع ذلك فانا نراه فى قصيدة تاريخية يذكره باسم الوزير فى هذا البيت :

ثم محمد بن عثمان الوزير   اخذ من وفر ومن در كثير (9)

سفارته الى مالطة والى نابلى

وبعد ثلاث سنين كلفه السلطان بتتميم ما كان بداه باسبانيا فعينه سفيرا الى مالطة ونابلى لافتداء المسلمين المأسورين بهاتين الولايتين. ولم يتعرض المؤرخون المغاربة ايضا لهذا الحادث. وقد الف فى هذه السفارة رحلة سماها «البدر السافر فى افتكاك الاسارى من يد العدو الكافر» وتوجد منها نسخة بخزانة المؤرخ الشهير مولاى عبد الرحمن بن زيدان رحمه الله ولعلها لا ثانية لها. اما سبب بعث هذه السفارة فهو ما كان للسلطان سيدى محمد بن عبد الله من الاهتمام بأمر افتداء الاسارى المسلمين، فقد انفق فى الامر اموالا طائلة وبعث سفراءه فى سائر الممالك الغربية التى كانت لها قراصين تجوب البحار وتقطع الطرقات على المراكب وتعلن عليها الغارة حتى اذا وقعت فى حوزتها نهبت ما بها من الامتعة واسرت ركابها. ولم يكن سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله يفرق بين المسلم من رعاياه ومن غيرهم، بل جل من انقذهم من الاسر كانوا من رعايا الترك من طرابلسيين وتونسيين وجزائريين .

وكانت هذه السفارة تتركب من المترجم ومن السيد عبد الكريم بن قريش والسيد محمد المير السلوى والسيد الطيب بن جلول والسيد التهامى البناني وحملهم من المال ما يزيد على 86.000 ريال وخرجت السفارة من مراكش فى ثانى ذى الحجة سنة 1195 هـ 19 نوفمبر سنة 1781 م وقد فصل ابن عثمان اخبار هذه الرحلة من لدن مغادرتهم المغرب الى رجوعهم اليه فى كتابه «البدر السافر» ولخصه المؤرخ مولاى عبد الرحمن بن زيدان فى كتابه «اتحاف اعلام الناس» (10) .

9) نقله صاحب الاعلام ج 5 ص 143
10) ج 3 ص 320

اما المعاهدة التى ابرمها ابن عثمان باسم سلطانه سيدى محمد بن عبد الله مع نائب ملك الصقليتين (الماركيز سانبوك) فيوجد اصلها الايطالى بمحفوظات الدولة بمدينة نابولى حيث تم توقيعها بتاريخ 12 ذى القعدة سنة 1196 (الموافق 19 اكتوبر سنة 1782) وهى تتضمن خمسة فصول تؤكد الصلح والسلم بين المغرب وممالك فردناند الاول (11)

هل سافر ابن عثمان سفيرا الى النمسا ؟ :

قد تكلم على سفارة ابن عثمان الى مالطة ونابلى (كرابرك دى هيمسو Graberg de Hemsö (3) ولكنه زاد ان ابن عثمان توجه من نابلى الى فيينا عاصمة النمسا مبعوثا الى الامبراطور يوسف الثانى بقصد عقد معاهدة صلح وتجارة بين الدولتين. ثم ان شينى (13) وطوماسى (14) (Thomassy) تكلما على هذه المعاهدة ولم يذكرا اسم ابن عثمان ويظهر لنا ان هذا وهم من (دى هيمسو) فقد التبست عليه سفارة محمد بن عثمان بسفارة محمد بن عبد الملك، وذلك ان السلطان سيدى محمد بن عبد الله وجه القائد محمد بن عبد الملك باشا طنجة ونواحيها سفيرا الى النمسا فى سنة 1197 (1783) وعقد مع امبراطورها معاهدة يوجد نصها العربى بمكتبة فيينا (15). وحيث ان هذه السفارة وقعت فى نفس السنة التى توجه فيها ابن عثمان الى نابلى فقد ظن (دى هيمسو) ان ابن عثمان كان مكلفا ايضا بالتوجه الى النمسا الا ان يكون السفيران توجها سوية الى ايطاليا والنمسا او ان ابن عثمان لحق بالسفارة الاخرى فى فيينا، وليس لدينا ما يؤيد شيئا من هذه الفروض خصوصا وان ابن عثمان لم يتكلم فى رحلته على سفره الى النمسا. وقد ذكر

---

11) انظر ترجمتها الفرنسية فى كتاب كايى حول اوفاق سيدى محمد بن عبد الله المذكور آنفا ص 242

12) فى مؤلفه المكتوب بالايطالية المسمى Specchio geografico e statistico dell Imperio di Marocco المنشور بجنيف سنة 1834 ص 234 وهو فى جغرافية المغرب واخباره.

13) فى كتابه المتقدم الذكر ج 3 ص 522

14) فى كتابه المسمى Le Maroc et ses caravanes on Relatises de la France avec cet Empire. اى (المغرب وقوافله) او علائق فرنسا بهذه الدولة «النشرة الثانية باريز عند «ايتيين ديدو واخوانه» سنة 1845 ص 305. (Etienne Didot et Frères)

15) انظر فهرس مخطوطات الخزانة المذكورة لمؤلفه المستعرب فلوكيل ج 2 ص 165 عدد 942 وقد نشرت ترجمة هذه المعاهدة الى الفرنسية فى كتابين للاستاذ كايى اولهما : سفارة نمساوية الى المغرب سنة 1805 باريس سنة 1957 ص 115 — 119 والثانى كتابه المذكور قبله اوفاق السلطان سيدى محمد بن عبد الله الدولية ص 246 — 249

(دى هيمسو) في محل آخر من مؤلفه (16) ان ابن عثمان الف رحلة في سفارته هذه الى ايطاليا والنمسا وانه رأى نسخة منها وهي تحتوى على 293 صفحة بخط جميل وفيها صور مشاهد وبساتين وقف عليها المؤلف باوربا ومن جملة ذلك منظر لبركان الفيزوف. ثم ان نفس المؤلف عند ما عرض لهذه الرحلة في كتيبه المسمى «رسالة في الادب التاريخي بالمغرب الاقصى» نسبها على حد قوله (17) : «لشخص كان في معية السفير المغربي سيدى محمد بن عثمان المتوفى سنة 1799 اصدر الاعظم للسلطان الحالي (18) وقد كان بعثه السلطان سيدى محمد سفيرا الى فيينا». هذا ما يقول (دى هيمسو) وانت تراه يناقض كلامه بنفسه حيث انه في كتابه الآخر نسب الرحلة لابن عثمان وهنا ينسبها لاحد كتاب السفارة. وبما ان الرحلة التي بين ايدينا لا تحتوى على شيء مما ذكر ـ فليس فيها كلام على النمسا ولا صور ـ فلا شك انها ليست لابن عثمان والغالب ان يكون الفها كاتب سفارة القائد محمد بن عبد الملك على عادة كتاب السفارات في ذلك.

علائق المغرب بالنمسا :

وكيفما كان الامر فقد عقدت معاهدة صلح وتجارة بين المغرب والنمسا بتاريخ 10 رجب سنة 1198 (الموافق 30 مايه سنة 1784) ووقع عليها بفيينا بالنيابة عن سلطان المغرب سيدى محمد بن عبد الله سفيره القائد محمد بن عبد الملك وبالنيابة عن امبراطور النمسا يوسف الثاني البارون ينيش (Le Baron Yenich) وقد جددت هذه المعاهدة في ايام مولاى سليمان بتاريخ عشرى فبراير سنة 1805 (19) .

لم تكن بين المغرب والنمسا علائق تجارية كثيرة في ايام سيدى محمد ابن عبد الله الا ان الامبراطور يوسف الثاني كان يقصد من وراء هذه المعاهدة ان يعامل السلطان النمسا بالمغرب بالمساواة التامة مع دول اوربا الاخرى وقد ساعده على ذلك سيدى محمد بن عبد الله كل المساعدة الا انه بعد ذلك

---

16) في كتابه الايطالي المذكور آنفا ص 179

17) نشرت هذه الرسالة بالفرنسية تحت عنوان Précis de la Littérature du Maghreb-el-Aksa وطبعت بليون سنة 1820 انظر ص 36 منها، قال دى هيمسو : «وهذه الرحلة في ملك السيد جان جاك سمبسون ابن قنصل امريكا العام السابق بطنجة وقد اطلع عليها عنده

18) يعني مولاى سليمان

19) انظر نص هذه المعاهدة بالايطالية في كتاب دى هيمسو (de Hemsö) السالف الذكر ص 316

تغيرت الاحوال بين الدولتين بسبب الحرب التى اعلنتها النمسا وروسيا على تركيا ويجرنا هذا للكلام على علائق المغرب بالدولة العثمانية .

علائق المغرب مع تركيا

ان هذه المسالة لم تدرس الدراسة اللازمة وتعوزنا الوثائق الراجعة لهذا الموضوع، لان المؤرخين المغاربة يكتفون بذكر السفارات المتبادلة بين الدولتين بدون ان يعلقوا على ذلك بأدنى ملاحظة، ويجب التنقيب على الوثائق فى محفوظات اسطنبول والقصر السلطانى بفاس علها تزيل لنا النقاب عن هذه المسالة. وقد كانت العلائق بين المخزن الشريف والدولة التركية فى القرن الثانى عشر على غاية ما يرام من التوادد، قال الناصرى فى كتابه الاستقصا (20) : «وكان السلطان سيدى محمد رحمه الله عالى الهمة يحب الفخر ويركب سنامه ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الاكفاء ويخاطبونه مخاطبة السادة ويمدحهم بالاموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه اكثر منهم مالا ورجالا وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر «وقد كان حقا يوفد السفراء الى تركيا بالهدايا الثمينة، وكان يفعل ذلك تقريبا كل سنة خصوصا عند سفر الركب النبوى الى المشرق، وكان الاتراك يعاملونه بنفس هذه المعاملة فيوجهون مع كل سفير يقدم من المغرب سفيرا تركيا بهدايا للسلطان سيدى محمد ولارباب دولته تساوى الهدايا المغربية او تفوقها.

ثم ان المغرب كان مجاورا لتركيا لان الجزائر كانت ولاية تركية، ولكن الجزائريين لم يكونوا يحسبون حسابا للعلائق الودية التى تربط سلطانهم بسلطان المغرب فكانت تدخل عصابات منهم للحدود المغربية وتعيث فيها وتنهب ما قدرت عليه حتى عيل صبر السلطان سيدى محمد وشكا امرهم للسلطان عبد الحميد الثالث بواسطة سفيره السيد محمد الحافى، وقد توجه مع هذا السفير القائد علال الدراوى والقائد قدور البرنوصى واصحبهم السلطان هدية قدرها 274.000 ريال لتصرف فى افتداء اسرى الترك. وعزز السلطان هذه السفارة باخرى يرأسها السيد عبد الكريم العونى التطوانى ومعه كتاب ثان يتعلق بأهل الجزائر يقول فيه على ما ذكر الزيانى فى الترجمانة الكبرى : «ان لم تدفع ضررهم عن المسلمين فدعنى واياهم» (21) فكان لهذا الكتاب اثر كبير فى الدوائر التركية وكتبوا لباشا الجزائر وباشا

20) الاستقصا ج 4 ص 120 (طبعة القاهرة سنة 1312)

تونس، ان يتادبوا مع السلطان مولاى محمد سلطان المغرب وينفذوا ما يكتب لهم عليه ويفعلوا معه من الآداب ما يفعلونه مع السلطان عبد الحميد (21) ،ووجهت الحكومة التركية هذه المكاتيب مع السفير اسماعيل افندى وامر ان يتوجه اولا الى المغرب ليقدم للسلطان سيدى محمد كتابا يعتذر فيه الخليفة العثمانى عن اعمال اهل الجزائر ويستوصى بهم خيرا ورجع السيد عبد الكريم العونى مع هذا السفير ولما اجتمعا بالمركب سال العونى اسماعيل افندى عن قضية اهل الجزائر فقال : «عندى المكاتيب لباشا الجزائر وباشا تونس ولسلطان المغرب. السلطان عبد الحميد كتب لهم ان يكونوا عند امر مولاى محمد، فلم يشك العونى ان السلطان عبد الحميد ولى امرهم لسلطان المغرب، فلما بلغوا طنجة نزل العونى من المركب واجتمع مع قائد البلد ابن عبد الملك فأخبره بقدوم الباشدور معه وانه اتى بالمكاتيب لاهل الجزائر وتونس بولاية سلطان المغرب عليهم فلم يشك القائد فى ذلك، وفى الحين كتب لامير المومنين ان السلطان عبد الحميد اعطاه الجزائر وتونس وصاحبه قدم بالمكاتيب (21) «وهكذا من سوء تفاهم الى اسوأ منه حتى بلغ الخبر للسلطان بصفة رسمية ولم يشك فى ذلك كما يعبر الزيانى. وعند ما وصل مبعوث باشا طنجة الى مراكش حيث كان السلطان وجه سيدى محمد كبير الطبجية القائد الطاهر فنيش بالمكاتيب الى عمال القبائل وقواد المدن التى يمر بها السفير التركى من طنجة الى الرباط يأمرهم فيها باكرام السفير والاحتفاء به كما يليق بمقامه ومقام الدولة التى يمثلها، وفعلا اقيمت لاسماعيل افندى احتفالات فى كل الاماكن التى نزل بها، ولما وصل الى الرباط وقد كان حله الركاب السلطانى، انزل فى سانية الرحمانى واغدقت عليه من قبل المخزن الشريف انواع الانعامات حتى احتفل السلطان بعيد الاضحى وعين يوم الجمعة لاقتبال السفير التركى وذلك فى مسجد السنة، وبعد الصلاة امر السلطان قاضى القضاة بقراءة كتاب الخليفة العثمانى فلم يكن فيه الا الاعتذار عن اعمال اهل الجزائر فغضب السلطان غضبا شديدا ونسب الكذب للسفير التركى فامر بارساله فى الحين الى تطوان ريثما يلحق به سفير مغربى يرده الى بلاده .

سفارة ابن عثمان الى تركيا

وعند ذلك كلف السلطان وزيره ابن عثمان بهذه المهمة. فأمره بالتوجه اولا الى اسطنبول وقال له عند مغادرته الرباط فاتح محرم عام 1200 (4 نوعبر

21) الترجمانة الكبرى للزيانى مخطوط الخزانة العامة بالرباط ص 33 - 36

1785 م) اذا بلغت لاسطنبول فعرف السلطان وديوانه ان هذا الرسول كذاب لا يصلح للسفارة بين الملوك «ووجه معه عدايا ثمينة لسلطان تركيا ولاشراف الحرمين الشريفين واليمن والعراق ومجموع ذلك 360.000 ريال فضة ومن الذهب ما بين دبلون ومنيدة وبندقي 40.000».

وكانت هذه السفارة متركبة زيادة على ابن عثمان من مولاى عبد الملك ابن ادريس صهر السلطان ومن الكاتب عمر لوزيرق ومن شيخ الركب النبوى الحاج عبد الكريم بن يحيى. فلما اجتمعوا بتطوان سمعوا من السفير التركى اسماعيل افندى كلاما ساءهم لكثرة طعنه وسبه في جانب الدولة المغربية، فكتبوا للسلطان يرجون منه ان يعفيهم من مصاحبة هذا الشخص فاعفاهم من ذلك.

مكث اعضاء هذه السفارة بتطوان اربعة اشهر ونصف شهر لهيجان البحر وعدم مساعدة الرياح، وكان الفصل فصل شتاء، وفى شهر مارس العجمى سنة 1786 امرهم السلطان بواسطة مبعوثه السيد محمد الزوين ان يتوجهوا الى طنجة فقصدوها واقاموا بها الى اليوم الثانى من رجب (فاتح مايه) ثم ابحروا فى مركب اسبانى حملهم الى مدينة قرطاجنة باسبانيا فنزلوا بها خمسة ايام، ثم ركبوا في سفينة حربية اسبانية كبيرة وقصدوا اسطنبول لكن الرياح لم تكن مساعدة وقضوا في البحر مدة طويلة حتى فسد كل الماء الموجود بالمركب واضطروا ان يرسوا بمدينة (سرقوزة) بصقلية حيث قضوا نحو الشهر، وفى الرابع من شهر رمضان (فاتح يوليه) نزحوا عنها قاصدين قاعدة الخلافة العثمانية وبعد شهر تماما حلوا باسطنبول وذلك فى اليوم الرابع من شوال سنة 1200 (31 يوليه 1786) فلما بلغ السلطان خبر وصولهم بعث اليهم وهم فى المركب «على سبيل الاهداء والاكرام اوانى كثيرة من الزجاج مملوءة بانواع الحلاوى والاشربة والتحف الكاملة الظرف، سماحة بالهدية والظرف، مع الفواكه الموجودة فى الوقت من اجاص وتفاح وعنب ودلاح وغير ذلك» (22). وفى ليوم الثانى من وصولهم اتى اعيان الدولة فى قوارب لاستقبالهم ومصاحبتهم الى الدار المعدة لنزولهم وقد وصف المترجم فى رحلته كل هذه الحوادث بتفصيل، ووصف الملاقاة مع الوزير وغيره من عظماء الدولة.

22) رحلة المترجم فى سفارته هذه ص 16 من نسختنا

تنقيص الزياني من شان ابن عثمان في هذه السفارة :

ان جميع المؤرخين المغاربة تكلموا على سفارة ابن عثمان الى تركيا ولكنهم يجعلون جميعا السبب لتوجيهه الى اسطنبول ما نقلوه عن الزياني وهو قوله في كتابه «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب» (23) : «وفي هذا العام وجه ابن عمه عبد الملك بن ادريس (24) وكاتبين محمد بن عثمان وعمر لوزيرق (25) وامين الركب ابن يحيى بهدية عظيمة لاهل الحرمين الشريفين والحجاز واليمن ووجههم في البحر في قرصان من قراصين الاصبنيول وكتب للسلطان عبد الحميد ان يوجههم مع امير صرته الذي يوجهه للحرمين الشريفين **وهذا كله حذرا من اليزيد (26) ان يلقاهم في البر فينهبهم**» (27) وعليه فان ابن عثمان لم يوجه الى اسطنبول الا لتكون الهدايا تحت حماية الجنود التركية ولولا ذلك اى لولا مخافة تعرض الامير اليزيد للسفارة في الطريق البرية لتوجه ابن عثمان على طريق طرابلس ومصر فالحجاز ولا يعرج على تركيا لانه لم يكلف بماموريته لدى الخليفة العثماني وانما بعث بهدايا لاهل الحرمين الشريفين الى آخر كلام الزياني .

هذا ما يقوله الزياني عن هذه السفارة، والحقيقة ان ابن عثمان وجه الى اسطنبول بقصد المخابرة مع الدولة التركية في شان اهل الجزائر، وانه هو الذي حمل المكاتيب السلطانية، ومن الممكن ان يكون السلطان سيدي محمد كتب للسلطان عبد الحميد يطلب منه ان يبعث اعضاء السفارة مع الركب التركي الى الحجاز حيث ان السفارة كانت مكلفة بماموريتين كما يقول ابن عثمان في رحلته : «فعيننا سيدنا ومولانا امير المومنين ... وامرنا ادام علاه وكان له في جميع اموره وتولاه بالتوجه اولا الى القسطنطينية العظمى

23) نشر قسما كبيرا من هذا الكتاب المستشرق هوداس (Houdas) مع ترجمة فرنسية وسماه «المغرب من سنة 1631 الى سنة 1812» (باريز سنة 1866 عند لورو (Leroux) ص 48 من الاصل العربي.

24) ليلاحظ القارئ هذا التدليس من قبل الزياني فانه يوهم بكلامه ان دور ابن عثمان في هذه السفارة يقتصر على «صاحبة مولاى عبد الملك ككاتب بمعنى ان مهمته ومهمة لوزيرق متساويتان وان السفير الحقيقي هو مولاى عبد الملك وهذا خلاف الحقيقة

25) ورد هذا الاسم في النص المطبوع في الترجمة محرفا الى «الوزير» وصوابه لوزيرق

26) مولاى اليزيد هو احد ابناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله وكان اذ ذاك بالمشرق هاربا من ابيه لانه كان ثار عليه ولم ينجح فنزح الى المشرق طالبا النجاة وبعد وفاة والده بويع له وقضى على عرش المغرب ثلاث سنوات ثم توفاه الله فبويع اخوه السلطان الكبير ابو الربيع مولانا سليمان

27) على ان هذه الاحتياطات لم تمنع الامير مولاى اليزيد من التوصل الى مراده كما سنراه

والحضرة الفخمى حتى تلاقى مع سلطانها الاعظم... وامرنى ادام الله اعتناءه وخلد فى الدهر بالجميل ثناءه اننا اذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة... نستعد للسرى الى ام القرى (28) وقد ذكر هذا ابن عثمان فى رحلته التى كتبها ونشرها فى ايام السلطان سيدى محمد بن عبد الله، اما الزيانى فانه لم يخرج ترجمانه للوجود الا بعد وفاة سيدى محمد وابنه اليزيد عدوه الالد، على ان المؤرخ الرباطى ابا عبد الله محمد الضعيف، وقد الف يومياته فى هذه المدة وهو شاهد عيان لهذه الحوادث ولا ينقل عن الزيانى، قد ذكر فى تاريخه ما يلى : «ووجه (اى السلطان سيدى محمد بن عبد الله) صاحبه ابن عثمان بهدية عظيمة للعثمانى نصره الله مع سرج من الذهب واكداش (29) وغير ذلك» (30) ولم يذكر الضعيف احدا من اعضاء السفارة الآخرين كما انه لم يشر الى توجه السفارة الى البلاد الحجازية .

مقامه باسطنبول

قضى ابن عثمان ثلاثة وعشرين يوما بالعاصمة التركية وفى السابع والعشرين من شهر شوال (23 غشت 1786) استدعى للملاقاة الرسمية مع السلطان وقبل المثول بين يديه اولم له الوزير وليمة فخمة حضرها اعيان الدولة التركية واعضاء السفارة المغربية الآخرون، وفى رحلة المترجم (31) وصف دقيق لهذه الحفلة وما تبعها، وقد ذكر ان الملاقاة «على هذه الكيفية والاحتفال والعجلة لم تتفق لاحد كما اخبرنا بذلك اهل الديوان، وانما ملاقاة الوفد عندهم يرصدون بها لاعياد او عرض العسكر لقبض الراتب «وقد نسب الزيانى لنفسه مثل هذه الخصوصية والامتياز فى سفارته التى سيأتى الكلام عنها (32) ولكن رحلة الزيانى ظهرت بعد رحلة ابن عثمان بثلاثين سنة وكان الزيانى اطلع عليها، اذ هو الذى عين من قبل السلطان مولاى سليمان لنقل متخلف الوزير ابن عثمان بعد وفاته من مراكش الى مكناس كما سنراه.

اقام ابن عثمان باسطنبول بعد هذه المقابلة مدة طويلة، ويزعم الزيانى ومن نقل عنه (33) ان سبب هذا المقام الطويل هو ان السفارة وجدت امين

---

28) ص 2 – 3 من نسختنا
29) جمع كدش وهى لفظة اسبانية (Coche) تنطق كما نقول اليوم كوتشى ومعناها عربة .
30) مخطوط الخزانة الزيدانية وصفحاته غير مرقمة.
31) ص 20 من نسختنا
32) انظر كتاب ليفى بروفنصال «طبقات المؤرخين المغاربة» المتقدم الذكر ص 154
33) انظر الناصرى مثلا ج 4 ص 115

الصرة (34) غادر الديار التركية مع الركب العثماني فاضطرت لانتظار السنة المقبلة للتوجه الى مكة. من الممكن ان يكون هذا هو سبب التاخر، ولكن لا مانع من ان نعتقد ايضا ان السلطان سيدى محمد لما بعث ابن عثمان كان يعلم ان الركب العثماني يغادر اسطنبول قبل موسم الحج بنحو الخمسة اشهر وكذلك الوزير ابن عثمان لا شك انه كان على خبرة من هذ الامر لما كان اذ ذاك من العلائق المتينة بين المشرق والمغرب، فيمكننا ان نعتقد ان السفارة ما مكثت باسطنبول نحو السنة الا بامر من السلطان، خصوصا وان ابن عثمان لا يتعرض في رحلته لهذا المقام الاضطرارى بل يرى مكثه بالديار التركية شيئا طبيعيا كان منتظرا ولم يتسبب عما ذكر الزياني ومن نقل عنه.

قضى ابن عثمان هذه المدة بالعاصمة التركية في زيارة مشاهدها وآثارها كالمساجد والبساتين وخزائن الكتب ودار ضرب السكة الى غير ذلك وحضر اثناء هذه الاقامة احتفالات زفاف ابنة اخى السلطان وهى بنت اخيه السلطان مصطفى الثالث المتوفى سنة 1187 هـ (1773 – 1774) مع احد كبراء الدولة التركية. ووصف المترجم هذه الاحتفالات بتفصيل وتدقيق على عادته في ذلك (35) وحضر ايضا بمسجد السلطان احمد موسم المولد النبوى وتعرف ببعض ادباء الاتراك من جملتهم قاض يسمى صدقى مصطفى ووقعت بينهما مراسلات شعرية.

ولما كانت سفارة ابن عثمان باسطنبول ورد على الحضرة التركية ابو القاسم الزياني موفدا من قبل السلطان سيدى محمد بن عبد الله، بعثه ليرافق السفير التركى اسماعيل افندى وليحمل للسلطان العثماني هدايا ومكاتيب في الشؤون المتعلقة بالدولتين، ولما وصل المركب المقل للزياني الى المرسى وجد في انتظاره اعضاء السفارة السابقة.

وقد تكلم الزياني في رحلته «الترجمانة الكبرى» عن سفارته هذه بتفصيل وذكر ان الدولة التركية اعتنت به اكثر من اعتنائها بابن عثمان واصحابه، وقابله رجالها بكل حفاوة. قال في الرحلة المذكورة «وكانوا يقصدون بذلك نكاية من سبقنا (36)» وعلل هذا التباين في المعاملة بكونه يحسن اكثر من ابن عثمان السفارة بين الملوك وملاقاة العظماء وزاد ان ابن

34) لا يذكر ابن عثمان في رحلته هذا اللقب مطلقا وانما يسمى شيخ الركب العثماني تارة امير الركب وتارة كبير الركب ومرة وزير الركب واخرى باشا.

35) ص 52 – 54 من مخطوطنا

36) الترجمانة الكبرى. مخطوط الخزانة العامة بالرباط ص 47

عثمان لما رأى ذلك قال هو والكاتب لوزيرق «ان هذا الهوان اوقعنا فيه عبد الملك وابن يحيى فعينا هدية ووجهاها فاهملوهما ولم يكافئوا عنها» . هذا ما يقوله الزياني ومنه ترى تحامله على ابن عثمان وتنقيصه من قدره ولا نغالي اذا قلنا «كذبه» لان ابن عثمان لم يتعرض مطلقا للزياني في رحلته لا بالمدح ولا بالذم، ومدح رجال الدولة التركية على اعتنائهم به، وعلى هذا فلا يمكننا ان نعير لكلام الزياني ادنى اعتبار ولا ان نلتفت اليه.

قضى الزياني باسطنبول مائة يوم، ولما مثل بين يدي السلطان عبد الحميد الثالث سأله هل يمكن للسلطان سيدي محمد بن عبد الله ان يقدم سلفا للدولة التركية ؟ وكانت تركيا اذ ذاك على اهبة اعلان الحرب على الامبراطورية الروسية والامبرطورية النمساوية فأجابه السفير المغربي بأن السلطان سيدي محمد بن عبد الله يقدم للدولة التركية في سبيل الجهاد اموالا كثيرة لا على سبيل السلف بل على سبيل العطاء المحض.

وبعد ما انتهى الزياني من مأموريته غادر اسطنبول ومعه سفير تركي كلف من قبل سلطانه يطلب السلف من الدولة المغربية، وقبل سفر السفيرين قال السلطان عبد الحميد للزياني : «انما وجهت معك هذا الخديم صورة فقط والاعتماد في مقصودنا عليك» (37) .

وقد كان الحق للزياني فيما وعد به السلطان عبد الحميد باسم سيدي محمد بن عبد الله، لان الحرب التركية الروسية كان بلغ صداها للمغرب واثر اثرا سيئا، حتى ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله اراد ان يهدي للدولة التركية اربعة مراكب حربية وهدد الدولة الانجليزية باعلان الحرب عليها ان رفضت توجيه هذه المراكب مع بحريتها، وسأل الدولة الفرنسية هل تساعد اذا وقعت حرب بينه وبين الانجليز على بيع ما يأخذه للانجليز مدة الحرب بالمراسي الفرنسية ... «ومن جملة استعدادات المغرب الحربية اذ ذاك انه كان للسلطان سيدي محمد ستون الف شخص مجند، وكانت المراكب الحربية المعدة للسفر الى اسطنبول راسية بمرسى سلا لا تنتظر الا اشارة منه لتقلع المرساة (38)» .

ثم ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله اتخذ تدابير مهمة ضد التجارة الروسية والنمسوية بالبلاد المغربية ورفض ان يقابل سفراء كاترينة الثانية امبراطورة الروسيا مع الهدايا التي كانوا يحملونها لتقديمها له.

---

37) الترجمان المعرب ط. هوداس ص 85 من النص العربي
38) عن طوماسي في كتابه المتقدم الذكر ص 306

ولكن الاتراك انتصروا انتصارا بحريا كبيرا على الاسطول الروسي بسيسطبول سنة 1788 م ـ «فلم يبعث سيدي محمد الثلاثمائة الف ريال(39) التي كان اعلن انه يريد توجيهها للدولة التركية واكتفى بارسال خمسين الفا بواسطة القنصل الفرنسي بسلا وحكومته» (40).

توجه ابن عثمان للاصقاع الحجازية :

خرج ابن عثمان من عاصمة الخلافة العثمانية قاصدا الاصقاع الحجازية مع الركب العثماني يوم 29 رجب 1201 ـ موافق السابع عشر من شهر مايه سنة 1787. وقبل سفره اقتبله الصدر الاعظم يوسف باشا اقتبالا رسميا عظيما وتحادث معه حول الحرب الروسية التركية، وقد نظم بعد ذلك قصيدة في هذا الموضوع مشيدا بشجاعة الاتراك ويقول في مطلعها :

كتائب النصر قد اتت لله تنصر ترف اعلامها راياتها تنشر

ومن جملة ابياتها قوله : (41)

خلائف من بني عثمان من لم يدن بطاعة لهم عرفانه نكر
ان الجهاد لهم سيما تميزهم عن الملوك فلا جبن ولا خور

ان السفر ما بين الاستانة ومكة المكرمة طويل وشاق ولا يمكننا في هذه العجالة ان نتبع ابن عثمان في سيره خلال الاراضي التركية والسورية والحجازية وقد دام الى تاسع ذي الحجة سنة 1201 (الموافق للثاني والعشرين من شتنبر سنة 1797).

ولما كان الوفد المغربي مقيما بمكة وقع حادث مؤلم اضفى على من تسبب فيه حلة من العار والشنار وان ابن عثمان لم يتعرض لهذه القضية الا باشارة خفيفة لاسباب واضحة لان بطل هذه الفعلة هو الامير مولاي اليزيد ابن السلطان سيدي محمد، ولنورد تفصيل القضية بقلم الزياني عن كتابه الترجمان المعرب : «وحيث لم يطلع ركب من المغرب في البر، اقام اليزيد بمصر حتى للعام القابل وطلع فاتصل بمكة بعد ان فرقوا بالمدينة والحجاز ومكة، وبقي عندهم واجب اهل اليمن واحكاك فيها الذهب المعين بالشام ومصر والعراق فتركهم الى وقت القايلة ودخل دار ابن يحيى الذي عنده

39) في النص الفرنسي بياستر Piastre وهو ما ترجمته بريال
40) عن طوماسي في كتابه المتقدم الذكر ص 307
41) انظر ص 90 من الرحلة وقد ذكر ابن عثمان ان الاتراك اطلعوا على هذه القصيدة واعجبتهم

المال في اصحابه فنهب ما قدر عليه وخرج وتوجه عبد الملك ورفقاؤه الى والي مكة فاخبروه الخبر فوجه اعوانه له ولما اتوا به حتم عليه في رد المال فرد البعض وقاب على الاحكاك التي فيها الذهب فانكرها، ولما بلغ ذلك السلطان غضب عليه وتبرأ منه وكتب دفاتر بسخطه علقت بالمشاهد السبعة (42) ووجه كتابا لسلطان مكة السلطان سرور (43) يعاتبه على إهماله امر اليزيد وعدم قبضه والانتقام منه ابدأ فيه واعاد ووجه كتابا للسلطان عبد الحميد يخبره بحاله وما هو عليه من العقوق ويوصيه ان لا يقله اذا قدم لبلاده واقام اليزيد بالمشرق ثلاثة اعوام ولما قدم لم يقدر على مواجهة والده وتوجه لضريح مولانا عبد السلام رحمه الله فاقام به» (44)

ان هذه الحادثة المحزنة كان لها اثر عميق على نفس السفير ابن عثمان لذلك نراه يقضي الايام الثمانية عشرة التي اقامها بالبلد المقدس في اداء المناسك والتعبد بالحرم الشريف .

رجوع ابن عثمان الى المغرب :

وقد مر في طريق رجوعه بمدينة القدس حيث دخل في الطريقة الخلوتية وابحر من مدينة عكة يوم خامس يبراير سنة 1788 بعد ان اقتبله اميرها احمد باشا الجزار (1735 ـ 1804) بحفاوة زائدة وقد اشتهر في التاريخ هذا الامير باستماتته في الدفاع عن بلده عند ما هجم عليه الجنرال بونابرت سنة 1799 .

وكان قصد السفينة التي اقلت السفير ابن عثمان والحجاج المغاربة مدينة مرسيلية الا انها بعد مغادرتها جزيرة قبرص هاج البحر واضطربت الاحوال حتى اشرف الركاب على الهلاك لدرجة ان ابن عثمان يقول انه يئس من الحياة ولم يكن يستطيع الصلاة الا جالسا بل واحيانا بمجرد الايماء . فاتفق مع رئيس المركب للتوجه بهم الى تونس وبالفعل ارست السفينة

42) وهي الكعبة والمسجد النبوي والمسجد الاقصى وضريح سيدنا الحسين بالقاهرة ومولاي علي الشريف بتافيلالت ومولاي ادريس الاكبر بزرهون ومولاي ادريس الازهر بفاس ـ وقد وقف الاستاذ عبد الرحيم جبور على نص هذه اللعنة في المخطوطات التاريخية الوطنية بمدريد ونشرها مع ترجمتها الى الاسبانية في مجلة تمودة السنة الثانية (1954) الجزء الاول ص 134 ـ 141

43) كان السلطان سرور متزوجا احدى بنات سيدي محمد بن عبد الله وقد تم قرانهما سنة 1181 هـ (1768 م) ولا شك ان الاميرة وهي اخت اليزيد تدخلت لدى السلطان سرور زوجها في مصلحة اخيها حتى لا يعاقبه على فعلته الشنعاء

44) وقد بقي به مستحرما الى وفاة والده ومبايعته بالضريح المذكور سنة 1204 (1790)

بعاصمة الايالة التونسية يوم 27 مارس وقد رحب الباى حمودة (1782 – 1814) بالسفير المغربى وحيث انه قرر الرجوع على الطريق البرية فقد خرجت الاوامر من قصر الباى لكافة العمال بتسهيل المرور على السفير المغربى .

وقد اقام ابن عثمان بمدينة تونس اثنين وعشرين يوما تعرف اثناءها بأحد الاولياء يدعى سيدى احمد بن عبد الله السوسى (45) وقد استدعاه مرارا الى منزله وربطته واياه مودة متينة تمنى ابن عثمان ان تدوم وتستمر الى دار البقاء .

كانت مغادرة ابن عثمان لتونس يوم الثامن عشر ابريل سنة 1788 قاصدا المغرب على طريق البلاد التونسية والجزائرية متبعا الطريق مخترقا ابواب جبال الاوراس ودروبها ولم يدخل لمدينة الجزائر لانها كانت مصابة بوباء الطاعون الذى كان يفتك بأهلها (46). وقد تابع سيره نحو المغرب حتى وصل الى العاصمة يوم الرابع يونيه سنة 1788 .

وقد كان ابن عثمان يظن ان اتعابه قد انتهت وانه بعد هذه الرحلة الشاقة التى دامت مدة طويلة سيتاح له ان يستريح وان يتوجه الى مكناس لرؤية عائلته وابنائه ولكن السلطان سيدى محمد كلفه بمجرد وصوله ان يرجع على عقبه ليصاحب الى تلمسان جماعة من الاسارى الجزائريين اطلق سراحهم ملك اسبانيا ووجههم كهدية للسلطان سيدى محمد بن عبد الله وان تكليفه بهذه المامورية من قبل السلطان تدل على تقديره لسفيره ولنجاحه فى تادية رسالته فى البلاد المشرقية .

وقد انتهز ابن عثمان فرصة وجوده بتلمسان لزيارة ضريحى الامامين الشهيرين ابى زيد عبد الرحمن واخيه ابى موسى عيسى ابنى الامام (47) .

---

45) قد وقع وهم لمولاى عبد الرحمن بن زيدان فى كتابه الاتحاف فى ترجمة ابن عثمان حيث ذكر ان السفير التقى بتونس بالشيخ محمد العابد والواقع ان الذى لقى هذا الشيخ بالبلاد المشرقية هو والد سيدى احمد السوسى المذكور

46) انظر البحث الذى نشره بربروج Berbrugger حول هذا الوباء بالفرنسية فى كتاب Exploitation simclifique de l'Algérie, Paris 1847 وانظر كذلك كتاب دى كرامون G. de Grammont فى تاريخ مدينة الجزائر تحت النفوذ التركى Paris 1887 ص 339 – 340 Histoire d'Alger sons la domination turque وانظر كتاب فنتورادى باراد : مدينة الجزائر فى القرن الثامن عشر Ventura de Parades: Alger au XVIIIe siècle, Alger 1898

47) انظر ترجمتيهما فى نيل الابتهاج لاحمد بابا السودانى ص 152 وص 166 من مطبعة مصر سنة 1351

وقد اورد ابن عثمان في رحلته احراز المعلمي الرقيب بمناسبة مصاحبته للاسرى الجزائريين تفاصيل عن تبادل الاسارى بين اسبانيا والجزائر وعن الدور الذي كان لسيدي محمد بن عبد الله في هذه القضية وقد كان امر افتداء المسلمين وفكاك اسرهم شغله الشاغل استعمل في سبيله نفوذه وانفق في انجازه اموالا طائلة (48) .

وقد نجح ابن عثمان ــ هذا الرحالة الذي لا يعرف الكلل ــ في آخر مامورية كلفه بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله نجاحا تاما كما نجح في ماموريته السابقة. وبعد رجوعه الى المغرب اقام بمسقط رأسه حيث وصل يوم الحادي عشر يونيه سنة 1788 مدة قضاها في الاستراحة والاستجمام بين افراد عائلته بعد هذا الغياب الطويل الذي دام قريبا من ثلاث سنوات ثم التحق بمنصبه الوزاري في القصر السلطاني بفاس .

ابن عثمان سفير مولاي اليزيد :

ان السنتين الاخيرتين لدولة سيدي محمد بن عبد الله لا تتميزان بحوادث خاصة وكانت وفاة هذا السلطان الجليل في شهر ابريل من سنة 1789. وقد خلفه ولده اليزيد الذي اشتهر في تاريخ المغرب بحدته وقسوته وبويع له بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش بجبل العلم حيث كان ملتجئا.

اننا لا ندري ماذا حل بالوزير ابن عثمان مدة دولة المولى اليزيد القصيرة، ويزعم هيمسو ان السلطان وجهه سفيرا الى مدريد. ان هذا شيء داخل في دائرة الامكان الا اننا ليس لنا مصدر ثان يؤكده ...

هذا ما كنت كتبته منذ قريب من ثلاثين سنة قبل ان نطلع على الوثائق القيمة التي جمعها الاستاذ اريباس بالاو من المحفوظات الوطنية بمدريد ونشرها مع دراسة وافية مفيدة عنها كأطروحة لنيل الدكتورة من جامعة برشلونة، وملخص ما يتعلق بابن عثمان من هذه الوثائق وهي عبارة عن عدة مراسلات وقعت بين مولاي اليزيد وملك اسبانيا وابن عثمان وغيرهم من رجالات الدولتين ان ابن عثمان وجهه مولاي اليزيد سفيرا (50) الى كارلوس الرابع ملك اسبانيا بطلب منه، وذلك بضعة شهور بعد مبايعته. الا ان الاحوال فسدت بعد ذلك بينه وبين الاسبان فوجه يعزل ابن عثمان عن السفارة

48) ذكر الناصري في الاستقصاء ج 4 ص 121 انه افتدى في سنة 1786 وحدها 48.000 من الاسارى المسلمين من اهل المشرق والمغرب

49) موجز في الادب التاريخي للمغرب الاقصى المشار اليه آنفا ص 36

50) انظر مجلة تطوان 1958 ــ 1959 ص 109 ــ 151

ويكلف بها ابن عمه المولى على بن احمد بن ادريس بن اسماعيل (بتاريخ 1791/7/28) ولكن ابن عثمان لم يرجع فى الحين واخذ يحاول حل المشاكل بين الدولتين حتى وجه مولاى اليزيد بتاريخ 4 اكتوبر سنة 1791 (5 صفر سنة 1206) يكلفه من جديد بالسفارة وبقى ابن عثمان باسبانيا الى ان بلغه خبر وفاة المولى اليزيد فرجع الى المغرب حيث وقعت له حظوة كبيرة عند مولاى سليمان، وقد اضفت هذه الرسائل المكتشفة ضوءا جديدا على هذه الحقبة من حياة ابن عثمان مع العلم بان كتب مؤرخينا خالية كلية من الاشارة الى قضية واحدة من القضايا الكثيرة المهمة التى كانت بين المغرب واسبانيا ايام مولاى اليزيد والتى تحتاج الى دراسة جديدة سنخصص لها فرصة اخرى ان شاء الله .

ابن عثمان ايام مولاى سليمان

فى ايام مولاى سليمان وقد بويع بعد وفاة اخيه سنة 1206 هـ (سنة 1792 م) يظهر ابن عثمان كشخصية بارزة فى الحكومة المغربية لها اختصاص بالشؤون الخارجية ونرى المؤرخين طوماسى ودى هيمسو وهما لا يذكران مرة واحدة الزيانى يضيفان عليه صفة الوزير الاول للامبراطورية المغربية، وبهذه الصفة كذلك نراه يقتبل السفراء وقناصل الامم الاجنبية الذين يفدون على المغرب .

ونراه يلعب دورا مهما فى السياسة الداخلية كذلك، فعند ما دخل المولى سليمان مدينة مراكش سنة 1797 وفى معيته وزيره ابن عثمان كان نفوذه قد ثبتت دعائمه فى كل البلاد الا ان مدينة اسفى كانت لا تزال خارجة عن سلطته وذلك ان رئيسها القائد عبد الرحمن بن ناصر كان مبايعا لمولاى هشام احد اخوة المولى سليمان وكان هذا الاخير يقيم عنده، فارتاى المولى سليمان بعد ان استتب له الامر واستوثق ان يولى هذه القضية السياسية عناية خاصة، فارسل وزيره ابن عثمان لما يعلم من خبرته ودهائه ولينه الى القائد عبد الرحمن بن ناصر ولكنه زوده بأوامر صارمة تتلخص فى ابلاغ القائد وجوب القدوم الى الاعتاب الشريفة لتقديم الطاعة والا وجه له جيشا لمحاربته. قال الزيانى فى الترجمان : «فلما وصله اعتذر بالمرض واحضر القاضى والفقهاء وخلع سلطانه وكتب بيعته للسلطان سليمان وأدى طاعته وتوجه هشام لزاوية الشرادى فاستحرم بها» (51) .

51) الزيانى : الترجمان المعرب ط هوداس ص 97 من النص العربى وص 174 من الترجمة الفرنسية

وهكـذا نجح ابن عثمان فى هذه المامورية الشاقة نجاحا باهرا ورجع الى السلطان بوثيقة البيعة واعتذارات القائد ابن الناصر عن عدم استطاعته المثول بنفسه بين يدى السلطان مولاى سليمان لتقديم مراسيم الولاء والطاعة نظرا للمرض النازل به، قـال الزيانـى : «فقبل السلطان عذره واستقامت الامور» (52) .

وقد قـام الوزير ابن عثمان بعمل عظيم لخير السلام وذلك مدة قريبة قبل وفاته كلل به حياته السياسية والديبلوماسية، وكان له اثر كبير فى الاوساط السياسيـة باوربـا رددت صـداه الجريدة الجمهورية الباريسية «المـدرب» (Le Moniteur)

وكانـت فرنسـا تحـت نظام «المديرية» (Directoire) فى حرب مع انجلترا، وكانت هذه الدولة تقوم فى المغرب بمسانـدة مـولاى الطيـب اخى السلطـان بمراكـش وخليفتـه بدعاية واسعة النطاق ضد فرنسا ناشرين بالخصوص اخبارا مقلقـة عـن الحجاج المغاربة وما ينالهم من مضايقات عند مرورهم بمصر وكانت تحت نفوذ بونابرت، ويقول طوماسى فى كتابه المشار اليه آنفا : «وقد قاوم مولاى سليمان ووزيره الاول كل الدسائس التى كان يدسها لنا اعداؤنا» .

الا ان انجلتـرا تمادت فى سياستها وكانت تنتهز كل فرصة للتقرب من السلطان ومحاولة افساد ما بينه وبين فرنسا وحليفتها اسبانيا من ذلك انه عند مـا وجهـت اسبانيـا وفدا لتقديم هدايا لمولاى سليمان تسارعت انجلترا الى توجيه هدايا كذلك مع محاولات لقطع العلائق بين المغرب واسبانيا

وكان ابن عثمان مومنا بوجوب نشر السلام وكانت له خبرة عظيمة بكل الشؤون الخارجية اكتسبها من مباشرته لها واطلاعه بنفسه على كل احوال البلاد الغربية، وقد زار الكثير منها واقام مـددا طويلـة بها. وكان يرى ان مصلحـة البـلاد اذ ذاك كـانت تقضـى بعدم افساد الجو مع اسبانيا نظرا للعلائق التجارية المتينة التى كانت تربط البلدين. فعمل على ابرام معاهدة سلم وتجارة وملاحـة مـع اسبانيا ونجح فى ذلك وتم الاتفاق على معاهدة سنـة 1799 (52) .

---

52) الترجمان المعرب ص 98

52 ثانية) نشر النص العربى لهذه المعاهدة فى مجلة تمودة، السنة السابعة ص 10 ـ 21 مع النص الاسبانى الاصلى وترجمة النص العربى للمقارنـة مع تعاليق وذلك بقلم الاستاذ ماريانو ارييباس بالاو

وقد اعتبرت جريدة «المدرب» الفرنسية (53) هذه المعاهدة كخطوة جديدة فى سبيل التقدم والمدنية قالت : «ان مبادىء الحقوق الدولية المقدسة قد انتقلت من كتب الفلاسفة الى دواوين الممالك المغربية وصارت هذه المبادىء تهيمن على اعمالهم فلم تبق الخلافات الدينية بين الشعوب تقف حجر عثرة فى سبيل التقارب بينها، وان نفس اولئك المسلمين الذين كانوا لا يقبلون من الكفار الا الخضوع او السيف صرنا لا نسمع منهم اليوم الا الفاظ الصداقة والتفاهم والانسجام. وباختصار فان امبراطور المغرب يكتب انه يتمنى ان لفظة الاسترقاق البغيضة تزال من ذاكرة البشر ويوقع على هذا باسمه كما ورد فى الفصل الثالث عشر» (54)

وتدل هذه التعاليق على الاهمية التى اولتها كما قلنا الاوساط الاوساط السياسية لهذا العمل الجليل الذى يقترن باسم الوزير ابن عثمان والذى كلل به حياة مليئة بالنشاط والاخلاص لوطنه وملوكه.

وفاة ابن عثمان

ان المؤرخين المغاربة ومن ضمنهم آخر من تكلم على ابن عثمان من المعاصرين اى مولاى الكبير ابن زيدان رحمه الله (55) يجعلون وفاة ابن عثمان سنة 1212 هـ (1798 م) ضحية لوباء الطاعون. ولكن هذا غلط وقع فيه الزيانى وتبعه فيه كل من جاء بعده من المؤرخين، كما اتبعوه فى كثير من الحوادث التى وردت فى كتبه ولم يجشموا انفسهم مشقة التحقيق . وقد عمد الدكتور رينو فى ابحاث نشرها بمجلة «هيسبريس» حول الاوبئة بالمغرب (55) الى دراسة هذا التاريخ معتمدا على مكاتبات قنصلية وهى نصوص لا تقبل الشك وتوصل الى تأخير حوادث سنة 1212 كما وردت عند الزيانى ومن جاء بعده الى سنة 1213 (56). قال الدكتور رينو فى هذا الصدد : «يوم 6 تيرميضور (24 يوليه 1799 ـ 20 صفر سنة 1214) كتب

53) جريدة «المدرب» (Le Moniteor) للسنة الثامنة من الجمهورية الفرنسية

54) قد كان السلطان سيدى محمد بن عبد الله والد مولاى سليمان اقترح على ملك فرنسا لويس السادس عشر فى رسالة وجهها له سنة 1777 ان يقضى على الاسترقاق والاسر بين المسلمين والنصارى

55) ولكنه بعد ما وضعت له الملخص المذكور سابقا صحح هذا التاريخ

55 ثانية) العدد الاول سنة 1921 ص 160 وما يليها

56) ان الاستاذ ليفى بروفنصال رغم كونه نبه الى تصحيح هذا التاريخ من قبل الدكتور رونو فى كتابه تاريخ الشرفاء (ص 67) فانه عند ذكر ابن عثمان من بين كتاب مولاى سليمان فى ص 404 جعل وفاته سنة 1212 بحيث وقع فى نفس الغلط الذى وقع فيه المؤرخون الذين استقوا معلوماتهم من مؤلفات الزيانى

القنصل گيي : «ان الملك خيم في نواحي مراكش ثم دخلها واخيرا قرر الذهاب الى مكناس حيث يظهر ان المرض في رجوع... والوزير ابن عثمان وقد اصيب بالمرض لم يستطع مصاحبته... وقد توفي مدة قريبة بعد ذلك» وهذا شيء صريح واضح ويزيد الدكتور رينو قائلا : «واعتمادا على هذه الرسالة يمكننا ان نجعل سفر مولاى سليمان من مراكش فى اوائل يوليه سنة 1799 وقد ترك بمراكش وزيره ابن عثمان وحسب ما يقول اكنسوس قد بلغ السلطان خبر وفاة كاتبه ابن عثمان وهو لا يزال فى طريقه الى مكناس على ان طوماسى (57) ودى هيمسو (58) يصرحان بأن الوباء بدأ فى المغرب سنة 1799 ووقعت وفاة ابن عثمان فى نفس السنة .

ثم ان نشر معاهدة سنة 1799 جاء مؤيدا لما ذهب اليه الدكتور رينو وذلك ان هذه المعاهدة موقع عليها بقلم ابن عثمان وبتاريخ 22 رمضان سنة 1213 (الموافق لفاتح مارس سنة 1799) (59) .

وقد نشر الاستاذ ارىباس بالاو صورة من الصفحة الاخيرة من هذه المعاهدة حيث يرى توقيع ابن عثمان واضحا وهى مؤرخة من مكناس (60).

وبناء على كل هذه الحقائق فان وفاة ابن عثمان وقعت بين فاتح مارس والرابع والعشرين من يوليه، فاذا كانت كما يستنتج من كلام القنصل گيى فى اوائل يوليه او اواخر يونيه فان ذلك يوافق من التاريخ الاسلامى شهر محرم سنة 1214 (61) .

وهذا هو المرجح لانه يبعد ان ينتظر القنصل شهورا عديدة ليخبر دولته بأحداث مهمة كالتى سجلها فى تقريره المؤرخ بالرابع والعشرين من يوليه .

ومن سخرية الزمان ان كلف الزيانى خصم ابن عثمان اللدود بالتوجه الى مراكش للسهر على مخلفاته وكان من بينها مؤلفاته وحملها الى مكناس وقد ذكر بعد ان اشار الى هذه المأورية وهو جد مغتبط «فتوجهت لذلك حتى حملته على بغاله التى وجهها معى وقدمت فقلدنى كتابته» (62) .

---

57) انظر الكتاب المذكور سابقا ص 365 وقد ذكر طوماسى كذلك مكاتبات قنصلية وكلاما لرحالة انجليزى جاكسن فى الموضوع

58) انظر كتاب سيكيو المتقدم الذكر ص 274 وقال هيمسو ان ذلك الوباء كان من نوع الطاعون الدملى

50) كما فى المعاهدة وان كان بمقتضى الموافقات الحسابية فان فاتح مارس كان موافقا للرابع والعشرين من رمضان والخطب سهل

60) انظر عدد مجلة تمودة لسنة 1959 ما بين صفحتى 48 و 49 الوجه المقابل لصفحة 49

61) وشهر محرم قد ابتدأ يوم 5 يونيه وانتهى يوم 4 يوليه

62) الترجمان المعرب طبعة هوداس ص 99 من النص العربى وص 182 من الترجمة الفرنسية

ونريد ان نختم هذه الترجمة بكلمة تقدير واجلال وردت في كتاب طوماسي المشار اليه مرارا في هذا البحث فقد قال بعد ان ذكر ضحايا الطاعون الذي فتك في كل المدن والنواحي بآلاف من اهل المغرب حتى بلغ عدد الموتى بفاس 65.000 : «ولكن اعظم ضياع بالنسبة الينا وبالنسبة لمولاي سليمان هو ما منينا به من موت وزيره الاول ابن عثمان ذلك السياسي الداهية الذي كان له استعداد للتفاهم قليلا ما نراه عند المسلمين، وقد كان صديقا لنا كما كان صديقا لاسبانيا» (63) والسلام عليكم ورحمة الله

63) انظر كتاب طوماسي ص 365

المصادر

أ ـ العربية

اولا ـ المخطوطة :

1 ـ **احراز المعلى والرقيب فـي حج بيـت الله الحرام وزيارة القـدس والخليل والتبـرك بقبر الحبيب،** وهى الرحلة التى وضعها الوزير ابن عثمـان عن سفارتـه الى اسطنبول، والنقل فى هذا البحث عن المخطوط الذى نسخته بيدى عن مخطوط الخزانة الزيدانية وهو فريد

2 ـ **البـدر السافر فى افتكـاك الاسارى من يد العدو الكافر** ـ رحلة الوزير ابن عثمـان فى اخبـار سفارته الى مالطة، مخطوط الخزانة الـزيدانيـة

3 ـ **الاكسير فى فكاك الاسير** ـ رحلة الوزير ابن عثمان فى اخبار سفارته الـى اسبانيـا ـ مخطوطان احدهما بالخزانة العامة تحت رقم 2542 وهو جيـد والثانـى فى الزاوية الناصرية بتامكروت تحت رقم 124 ولعله منسوخ عن الاول

4 ـ **تاريـخ الضعيـف** ـ مذكـرات تاريخيـة مفيدة، لابـى عبد الله محمد الضعيف الرباطى ـ مخطـوط الخزانـة العامـة تحت رقم 660 وبها نسختان اخريان .

5 ـ **الترجمانة الكبرى** التى جمعت اخبار العالم برا وبحرا، لابى القاسم الزيانـى ـ وهـى رحلته التـى دون فيها اخبار اسفاره ـ مخطوط الخزانة العامة تحت رقم 659 ومنها نسخة اخرى تحت رقم 1160 .

ثانيـا ـ المطبـوعـة

اتحاف اعلام النـاس بجمال اخبار حاضرة مكناس ـ لابى زيد عبد الرحمن ابن زيدان، ما نشر منه خمسة اجزاء ـ الرباط

الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام، للعباس بن ابراهيم المراكشي . ما نشر منه خمسة اجزاء ـ الرباط

الاستقصا لاخبار دول المغرب المغرب الاقصى، لاحمد بن خالد الناصري اربعة اجزاء ـ القاهرة سنة 1312 هـ.

الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، لابى القاسم الزياني ـ نشر منه القسط المتعلق بالدولة العلوية الى سنة 1812 مع ترجمة فرنسية باعتناء المستشرق هوداس وطبع بباريس سنة 1886. ومنه مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 658 .

مختصر تاريخ تطوان، للاستاذ محمد داود ـ نشر بتطوان ضمن مطبوعات معهد مولاى الحسن سنة 1955 .

نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لاحمد بابا التنبكتي السوداني ـ طبعة القاهرة على هامش الديباج لابن فرحون سنة 1351 هـ.

ب ـ الفرنسية

Les Accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdallah (1757-1790) par JACQUES CAILLE, Tanger 1960.

Alger au XVIIIe siècle par VENTURA DE PARADES, Alger 1898.

Une Ambassade autrichienne au Maroc en 1805 par JACQUES CAILLE, Editions Larose, Paris 1957.

Histoire d'Alger sous la domination turque par DE GRAMMONT, Paris 1887.

Les Historiens des Chorfa par LEVI-PROVENÇAL, Paris 1922, chez Larose.

Le Maroc et ses caravanes ou Rélations de la France avec l'Empire, par THOMASSY, 2e édition, Paris Etienne Didot Frères, 1845.

Mémoire sur la peste en Algérie par BERBRUGGER in Exploitation scientifique de l'Algérie, Paris 1847.

Précis de la Littérature du Maghrib-el-Aksa par GRABERG DE HEMSÖ, Lyon 1820.

Recherches historiques sur les Maures et Histoire de l'Empire de Maroc, par M. DE CHENIER, Chargé des Affaires du roi auprès de l'Empereur de Maroc, 3 volumes, Paris 1787.

Les Relations de l'Espagne et du Maroc pendant le XVIIIe et XIXe siècles par E. ROUARD DE CARD, Paris 1905.

ج ـ الاسبانية

Colección de tratados, convenios y declaraciones por ALEJANDRO DEL CANTILLO, Madrid.

España y los países musulmanes durante el Ministerio de Floridablanca, por MANUEL CONROTTE, Madrid 1909.

د ـ الايطالية

Specchio geografico e statistico dell Imperio di Marocco, da GRABERG DE HEMSÖ, Genova 1834.

هـ ـ الالمانية

Die arab. pers. und türk. Hdss. der K. K. Hofbibliothek, von G. FLÜGEL, 3 Bde., Wien 1863-67.

و ـ النشرات الدورية

بالعربية

مجلة تطوان ـ العددان الثالث والرابع لسنة 1958 ـ 1959 : رسائل عربية حول المغرب فى عهد مولاى اليزيد، بقلم ماريانو ارībياس بالاو من ص 109 الى ص 151

مجلة المغرب الجديد ، الاعداد 11 و 12 و 13 بتاريخ فاتح ربيع الاول، 15 ربيع الاول، فاتح ربيع الثانى سنة 1355 (موافق مايه ـ يونيه 1936) : الوزير محمد بن عثمان بقلم محمد الفاسى

بالفرنسية

Hespéris, tome I, 1921, p. 160 sqq.: *Recherches historiques sur les épidémies du Maroc: La Peste de 1799 d'après des documents inédits*, par le DR. RENAUD.

Le Moniteur, an VIII (1799), p. 61.

بالاسبانية

Tamuda, año II, semestre I, Tetuán 1954, págs. 134-141: *El anatema de Mawlāy Muḥammad Ibn 'Abd Allāh contra sus hijos Mawlāy Yazīd y Mawlāy 'Abd al-Raḥmān*, por ABDERRAHIM YEBBUR.

Tamuda, año VI, semestre II, Tetuán 1958, págs. 327-335: *El texto árabe del Convenio de Aranjuez de 1780*, por MARIANO ARRIBAS PALAU.

عبـد الله كنـون

مـن ادبنـا الشعبـي

للرئيس عبد المهيمن الحضرمي مقامـة ادبية تسمى مقامـة الافتخار بين العشر الجوار، أنشأها علـى لسان عشر جوار، بيضاء وسمراء وطويلة وقصيرة، وسمينة ونحيفة، وحضرية وبدوية، وشابة وعجوز تفاخر كل منهن نظيرتها بأن الحسن هو وصفها، والجمال هو حليتها فى نثر مسجوع مفتتح بالحمد والصلاة، ومخلل بقطع شعرية تناسب المقام .

وقد قلنا فى تحليل هذه المقامة اثناء الكلام على آثار عبد المهيمن فى ترجمته من الذكريات ما يلى : (1)

وفكرة المفاخرة من هذا النوع بين الجوارى موجودة فى قصة من قصص ألف ليلة وليلة معروفة، الا انها انما تقع بين ست جوار فقط، بيضاء وسمراء، وسمينة وهزيلة، وصفراء وسوداء . وليس هناك تماثل فى العرض ولا فى التصميم بين مقامة صاحبنـا وقصة الف ليلة وليلة. مما يدل على انه ليس هناك استيحاء مطلقا من احد الجانبين. **ولعلهـا فكـرة شعبيـة** كانت شائعة فى القصص العامى فاستوحى منها كاتبنا وقاص ألف ليلة وليلة ».

وهـذا الـرأى الذى كان مجرد احتمال قد تحقق الآن ولم تمض على اذاعته بضعة شهور. ذلك اننا عثرنا فـى مجمـوع لصديقنـا الاستاذ الكبير السيد محمد داود على زجل يتضمن قصة الجوارى العشر بالتمام والكمال كما يقال، وهو للزجان المغربى المشهور ابن داود، وقد جعل مسرح القصة فى مدينـة فاس وتناولها فى نفس طويل على طريقة النظم العامى بترتيب محكم وتقسيم بديع .

1) انظر الحلقة 26 من الذكريات

ونعود الى تمام الكلام على المقامة الحضرمية والمقارنة بينها وبين قصة الف ليلة وليلة، لننقول كلمتنا بعد في هذا الزجل، وهذا ما جاء في ترجمة عبد المهيمن باثر الكلام السابق في هذا الصدد:

(وعلى كل حال فقد اختلف العملان الادبيان (المقامة والقصة) في الكم والكيف، وان اتحدا في الفكرة، فعدد الجوارى في المقامة عشر وفي القصة ست ومع ذلك فهما لا يتفقان بالكيف الا في اربع من الجوارى، ثم لا يتلاقيان بعد لا في تقديم ولا في توصيف، باستثناء تعقيب مفاخرة كل جارية بقطعة من الشعر الذى يناسب تفاخرها. وتنتهي قصة البصرى صاحب الجوارى الست ببيعه لجواريه للخليفة المأمون، ثم منه عليه بردهن اليه في الآخر.

اما مقامة عبد المهيمن فتنتهي بحكم العجوز بين بقية الجوارى، بما يرضى غرور كل واحدة منهن، ما عدا القصيرة التي اوصتها بالتادب مع مناظرتها الطويلة، وما عداها هي التي انصفت واعترفت للشابة بفضلها عليها وحجتها القائمة امام دعواها الباطلة، وبذلك انسحبت من صف الجوارى، وان جمعها معهن هذا الاسم اولا على سبيل التغليب).

(وفي المقامة حركات تمثيلية تنبيء عن ذوق فني لدى الكاتب، فمثلا عند تقديم الجارية البيضاء يقول: «واذا بجارية يغلب ضياء وجهها ضياء الشمس، فوقفت بين الصفوف وسلمت ببنانها الخمس» يعنى انها اشارت للسلام بيدها فقط، بينما هو يقول في تقديم السمراء: «ثم حطت اللثام عن وجه يشهى الالتثام، وابلغت في السلام، واقبلت تواضعا على رؤوس الاقدام» فوصف تسليمها بما يناسب شعورها بالغضاضة. وفي تقديم الجارية الطويلة يقول: «واذا بجارية تتخطى الرقاب، بعد ان حطت النقاب» فجعلها تتخطى الرقاب لقامتها الفارعة، على حين انه لما قدم القصيرة قال: «واذا بالقصيرة قد اقبلت تجر اذيالها.. فولولت وصاحت.. ثم قعدت في اعلى مكان، وتكلمت بأفصح لسان» فجعلها تجر اذيالها مما يناسب حالة قصرها، وتولول وتصيح لتثير الانتباه اليها، شان قصار القامة في اصطناع الاسباب التي تلفت اليهم الانظار فهذا يضع طربوشا طويلا على رأسه، وهذه تلبس حذاء بكعب رفيع الخ. ثم ختم بهذه الحركة البارعة وهي جلوسها في اعلى مكان لاجل ان يراها الحاضرون ولا تنغمر بقصرها بين الجالسين من ذوى القدود الكاملة. وفي تقديم العجوز يقول: «فلما اتمت الحضرية هذه الابيات

وقد افصحت في البلاغة والغايات، اذا بهزة عظيمة في المحفل، كاد يرجع اعلاه منها اسفل فأتت عجوز قد اشتبكت مع صبية، وبينهما معاطاة ومجادلة قوية، والصبية تنادي وتقول : كثر الحمق وقلت العقول...» الى آخر كلامها. فأتى بمنظر صاخب كله حركة واستنكار بالنسبة للنظارة وللشابة والعجوز التى تطامنت فى الاخير لتستأنف تظاهرها فيما بعد بكلام يدور كله على ما لها من الدهاء والحيلة فى تأليف الرجال وتسخيرهم. ولو كان هذا العرض على مسرح حديث لما زاد حيوية ونشاطا على ما قدمه به المترجم».

هذا ما قلناه بشأن مقامة الحضرمي قبل ان نقف على زجل ابن داود واذا كان هذا الزجل قد اكد لنا أن فكرة المقامة هى كما ارتأينا فكرة شعبية استلهمها صاحبنا عبد المهيمن فكتب مقامته على اساسها كما استلهمها كاتب قصة ألف ليلة وليلة ولكن على نطاق ضيق نحسب انه الذى كان رائجا فى بيئة الكاتب، فان جميع ما قلناه فى تحليل المقامة يصح قوله فى تحليل الزجل بلا تحفظ، ذلك ان وجوه التشابه بينهما كثيرة لا تنحصر فقط فى ان عدد الجوارى عشر وان ألوانهن وصفاتهن هى هى بعينها فى كل من المقامة والزجل، ولكن كثيرا من التعابير والالتفاتات الذهنية والحركات التمثيلية التى اعجبنا بها فى المقامة هى مما يوجد ايضا فى الزجل، حتى وصف العربية بمعنى البدوية حسب الاصطلاح العامى نراه مستعملا فى المقامة استعماله فى الزجل اعنى فى مقابلة الحضرية، ومن هذا الاشتراك فى اللفظ تنطرق البدوية الى الافتخار بالنبى صلى الله عليه وسلم لكونه من العرب، سواء فى المقامة او الزجل. وان دل هذا على شىء فهو ان عبد المهيمن كتب القصة فى شكل مقامة، وابن داود نظمها فى شكل زجل، كما كانت الجماهير الشعبية تقصها بألفاظها وتصويرها الا ما تقتضيه صياغة المقامة من السجع وقانون الزجل من اعاريض واوزان. ومع ذلك فلم تخل المقامة فى حوكها من بعض الاساليب العامية، وهى المفروض فيها ان تبتعد كل البعد عن ذلك الابتذال حتى ظننا اولا ان بها تحريفا من النساخ، وما هو لا الحرص على محاكاة الاصل وعدم التصرف فى مادتها الخام الا بما لا مندوحة عنه للكلام المعرب .

وهذا النوع من استيحاء الادب الشعبي والاستمداد منه وخاصة فى المقامة معروف ومعهود، ولا سيما عندنا فى المغرب، فهذه مقامة القاضى ابن ابى حاتم العاملى المتوفى سنة 815 المسماة بحضرة الارتياح المغنية عن الراح قد قيل فى سبب انشائه لها انه لما امتحن بعد توليته القضاء بجبل

الفتح (جبل طارق) وسجن بفاس وجد بالسجن رجلا من العوام يؤنس بمثل نسقها جلساءه فنسج على نحوه مقامته وابرزها للناس، فتعجب كل من طرأت سمعه واستحسنها وكانت سببا لخلاصه من نكبته. على ان ابن ابى حاتم قد اجاد التحبير واتقن التعبير بحيث لو لم نعلم بأصل مقامته لما ظننا ان هناك اقتباسا اصلا، ولا كذلك مقتبس مقامة العشر الجوارى، ولهذا السبب بقيت مقامته مهلهلة النسج نازلة عن درجة البلاغة التى تليق بأمثاله من ذوى الرسوخ في الادب، فلم نملك نحن بعد مقابلة نسختين اصليتين لها رأيناهما عند صديقنا البحاثة الاستاذ محمد المنونى الا ان نسوى منهما نسخة اقرب ما يكون الى ادب عبد المهيمن وعلو كعبه في علوم العربية، وذلك بالغاء ما فيها من بعض القطع الشعرية المختلة الوزن والتافهة المعنى وباعادة سبك بعض العبارات التى مهما كانت مجاراتها للاصل العامى فان تحريفا نسخيا لابد ان يكون دخلها، وهذه النسخة هى التى نعرضها فيما بعد.

واما الزجل فانه على العكس من ذلك قد ارتفع بالقصة عن المستوى العامى الصرف الى مستوى ادبى يتناسب والعمل الفنى الذى افرغ القصة فى قالبه، ويدل على ان صاحبه كان ذا ثقافة ادبية لا بأس بها، شأن هؤلاء الزجالين الممتازين، فهو يعبر عن الجوارى بالريام يعنى جمع ريم، وهذا عنوان لما يتضمنه الزجل من الالفاظ العربية الفصيحة اذ كان الكتاب يفهم من العنوان، على انه قد يجرى فى هذه الالفاظ بعض التغيير حسبما تقضى به قواعد العامية او تستلزمه ضرورة النظم، وهو امر معهود لدى كبار الزجالين حتى الادباء منهم، وليس هذا فقط فان الابداع فى التصوير والبلاغة فى التشبيه وقوة الخيال التى تشيع فى كل قسم من اقسامه لما يجعله عملا فنيا رائعا وذلك طبعا فى دائرة الادب الشعبى الغنى بأشكاله وألوانه فضلا عن معانيه واخيلته.. ومن هذه الاشكال القصة التمثيلية التى يعد زجلنا هذا نموذجا من نماذجها وان كان تمثلها فى الشكل المعروف منه **بالحراز** اقوى .. وعلى كل حال فهذا لون من ألوان ادبنا الشعبى نعرضه على القارىء العربى مغربيا وغيره، ونحن متيقنون انه سيجد له لذة عقلية فذة، وانه سيطرب من بعض معانيه وتصويراته الجميلة، وانه سيعتبره اثرا من آثار العبقرية الفنية عند الطبقات الشعبية العربية، وينظر من خلال تعابيره، واسلوب الاداء فيه الى تطور اللغة العربية وما بقى منها حيا مستعملا عند الشعب المغربى فى ابعد نقطة من بلاد العروبة، فيعلم ان هذه اللغة باقية خالدة لا تموت ولا تنعدم، وهذا غاية ما يستفاد من اى انتاج ادبى ناجح .

على ان لنـا ملاحظة هي ان نهاية الزجل ليست طبيعية، لان الجوارى العشر بعد ان ينتهين من المفاخرة ويعرفن ان الاديب ابن داود كان حاضرا فى المعركة يعتذرن اليـه ويطلبـن حكمـه بينهـن، وهذا امر يخالف فيه الزجل المقامة، لان هذه حكمت العجوز كما مـرت الاشارة لذلك، ثم انه يختم زجله ولا يعرج على الحكـم المطلـوب، فهل سقط من الزجل شيء ام ان ابن داود احتفظ بالحكم لنفسه حتى تبقى علاقاته طيبة مع «الريام» كلهن ؟ ..

والآن نقدم الى القارىء اولا نص المقامة الحضرمية بتهذيبنا كما اسلفنا ثم نقدم اليه ثانيا نص زجـل ابـن داود، وبـالاعتماد على ان المقامة توضح الموضوع فانا لا نتعرض بالبيان الا لبعض الالفاظ او التعابير العامية المحض التى لا تفهم دلالتها بغيـر التوقيـف .. اما ما تغلـب عليه الصبغة العربية الاصلية مـن مفـردات وتراكيب فانا نتركـه للقارىء الاديب الذى لا يخفـى عليـه معناه .

المقامة

بـرزت لخـارج بلـد فـاس الاشهـر، وانتهيت الـى واديها المعروف بوادى الجوهر فلم يكـنْ غير بعيد، واذا بمحفل يرتج بالغيد، وقد دار بينهن عتاب، بالفاظ تعجـز عنهـا ألسنة الكتاب، بيضاء وسمرا، فى مفاتنة كبرى، وكاملة وقصيرة فى معاطـاة كثيـرة، وسمينـة ورقيقـة، فى معاتبة حقيقة، وعربية وحضريـة، فـى مجادلـة قوية، وعجوز وصبية، فى مخاصمة بذية، فبينما انا انظر فى تلك الوجوه المشرقـة، والقـدود المرونقة، واذا بجاريـة يغلب وجهها ضياء الشمس، فوقفت بين الصفوف وسلمت ببنانها الخمس، ثم تقدمت وقالت :

الحمد لله الذى جعل البيـاض طـراز كـل جمال، وشرف اهله بالحياء والكمال، واعطاهـم عـزة لا تبيد، وصير السمر لهم عبيد، الا وان على قلبى جمرة، من معاتبتك يا ذات السمرة، أعندكِ يـا سمراء ما عنـدى، وليس قدكِ كقدى ولا خدكِ كخدى، جبينى ذو ابتهاج، وذوائبى كقطع الزاج (I)، ورشح عرقى كمسك اذ فر، يرشح من تحت البرد والمغفر، وثغرى اقحوان، وديباج وجهى أرجوان، وان اسبلـت شعـرى المضفور فظلام ليل على بياض كافور ثم انشدت :

(I) الزاج عقار يدخل فى تركيب المداد .

قل للذى أزرى بأهل البياض	ما أنت الا باطل الاعتراض
فورد خدى أبدا زاهر	فى كل فصل فوق خدى رياض
يا حاسدى مت كمدا انما	تجنى المنى من الخدود الغضاض

ثم سلمت بالبنان، وامسكت العنان، فتقدمت السمراء وحطت اللثام، عن وجه شهى الالتثام، وأبلغت فى السلام، وأقبلت تواضعا على رؤوس الاقدام، فوقفت كالغلام وافصحت فى الكلام، وقالت :

الحمد لله الذى خلق الانسان فى احسن تقويم وجعله افضل الحيوان وفرق بين الصور والالسنة والالوان، وزين الابيض بشعر كالغسق، وامتداد الحاجبين وسواد الحدق، وأجل ما يقف له العاشقون اجلالا، ويرتجلون فيه الاشعار ارتجالا، مسكة الخال، وعقرب الدلال، ثم التفتت الى البيضاء وقالت : يا اشبه شيء بجبن الروم، أحرقت حجاب الاشروم (1)، ما زال طعامك قليل الملح، وجفنك كثير الرشح، ولبنك أذى، وعسلى انا غذا، ولونى لون الخمر، وطعمى طعم التمر، ثم انشدت :

الحمد لله ليس التبر كالورق	قد احسن الله فى خلقى وفى خلقى
فالجسم مثى نضار صبغ منظره	بمسكة فغدا طيبا لمنتشق
يا من يعيرنا باللون ان لكم	جهلا يقود الى الطغيان والحمق
كم اسمر قلبه كافورة وله	من السعادة نجم لاح فى الافق

فلما فرغت من كلامها، وما ابدعته من حسن نظامها، تبرقعت بنقابها، وسلمت على الصفين، وقبلت اسارير الكفين، واذا بجارية تتخطى الرقاب، بعد ان حطت النقاب، عن ديباج صقيل، ورنت بطرف كحيل، ومالت بقد قويم وردف ثقيل، فسمعتها تقول، اليكم يا ذوى العقول، فلعلكم تحكمون بينى وبين هذه القصيرة فانها عمية البصيرة، تعيب الكمال، وهى الطبقة الثانية من الجمال، ثم قالت فى الثناء على ذى الجلال، واجادت فى المقال :

الحمد لله فالق الاصباح من بعد الغيوم، لا اله الا هو الحى القيوم، وصلى الله وسلم على محمد نبيه الذى ارتضاه لنفسه حبيبا وخليلا، وارسله لجميع خلقه نبيا ورسولا، ثم قالت : أين هذه التى تعيب ما لا يعاب، وتدخل نفسها فى الامور الصعاب، لا تحجب عين الشمس بالغربال، والثعلب لا يقابل بالاشبال، يا هذه خطابك الى من غير الواجب، ألم تسمعى أن العين

1) لعله يعنى الفرج فان من اسمائه الشريم ولم نقف على الاشروم

ولو علت فوقها الحاجب، فالى كم يا زريعة ياجـوج وماجوج، يكون فرسك معى للشر مسروج، ثم صالت وما اعتدت فأنشدت :

نـحـن قـوم لنـا بهـاء البنـود   ولـدينـا تـفـاخـر بـالقـدود
كـل زيـن أزينـه بـكـمـالـى   وجمـالـى وغنـج لحظـى وجيدى
واذا مـا الـقـصـار قـلـدن حليا   صـار كالـدر فـى نحـور القرود

فلما أتمت كلامها، وانهت نظامها، اذا بالقصيرة قد أقبلت تجر اذيالها وتواتر اقوالها، فولولت وصاحت، واعلنت بما في ضميرها وباحت، ثم قعدت على أعلى مكان، وتكلمت بأفصـح لسان، فقالت تخاطب الطويلة : يا شقيقة الزرافة الى كم تطيلين هذه الخرافة، يا ناقة العشير، (1) وقصبة التشبير، (2) ويـا كاملـة الصـاد، (3) وقليلة القصاد، نحن أهل المعانى الرقاق، وفتنة العشاق، وعلى منظرنا طلاوة، وورونق وحلاوة، فارى لك من الراى والتدبير ان تأخذى معى فى التقصير، فان الله تعالى خلق الكامل والمتوسط والقصير، على ان القصر والكمال، انما هـو فـى الافعـال، ثم قعدت على أعلى مكان، وتكلمت بافصح لسان، فقالت :

الحمد لله الملـك الكبيـر، الذى ليس له حاجب ولا وزير، وصلى الله وسلم على محمد نبيه وعلى ءاله ما هب نسيم وفاح عبير. ثم انشدت :

غـزلان الانـس ذوو الـقـصـر   وشـفـاء النـفـس مـع البـصـر
فـيـعـيـش القـلـب بمنظـرنـا   وتـقـر الـعـيـن مـن الـنـظـر
واذا مـا الـروض أتـيـت فـلـذ   بـقـصـار القـد مـن الـشـجـر
إيـاك الـنـخـل فـان لـهـا   طـولا يـهـديـك الـى الـغـرر

وبينما هما فى طويل من الكلام وعريض، يتنازعان ابيات القريض، اذا بضجيج كضجيج الناس فى الحجيج، والناس قد تطاولت أعناقهم، وشخصت احداقهـم واذا انـا بقـلاع، يسوق مركبا موسوقا بالسلاع، فقلت ما هذه السفينة، فقيل لى هذه الجارية السمينة، فـدار المحفل عليها كالحلقة، فقلت سبحان من لا يمل مـن خلقـة، فحطت من القلـق رداءهـا، وغاظت بأعكانها حسادها واعداءها، وقد تكلل العرق على جبينها كدر الحباب، وفتنت بروض خدها ذوى الالباب ثم قالت :

1) العشير الزوج والمقصود تشبيهها بالناقة فى الطول

2) لعله يريد القصبة التى يرفع بها حبل الغسيل اى الثياب المغسولة حين ينشر، وبالتشبير يسمى فى كلام العامة .

3) الصاد داء يصيب الابل فتسيل انوفها فترتفع رؤوسها .

الحمد لله باسط الرزق وسابغ النعم، المنفرد في ديموميته بالقدم، والصلاة على خيرته من خلقه سيد العرب والعجم، صلاة تنجي العبد يوم المزدحم، ثم اعتمدت بكفها على عطفها، ومالت كالبحر الزاخر، فقدمت المقادم واخرت المواخر وقالت : اين هذه المسفولة الصوت، الواقفة بين ميدان الحياة وميدان الموت المنفوضة اللحم، التى حرم عليها كما حرم على بنى اسرائيل الشحم، المنغصة العيش الكثيرة الطيش، الضعيفة المخاخ، الشديدة الفخاخ، النحيلة من غير علة، الهزيلة من غير قلة، كفى يا مسقومة عنى هذه الغزارة، واعلمى ان على جسمى من الزينة نضارة، أقتنص بها القلوب من غير حيلة ولا ادارة، ونهدى واعكانى، يغنيانى عن الشورة (1) فى ركانى، ثم أنشدت .

الحمد لله فى سر وفى علن — حمدا يخلصنى من ظلمة المحن
قد نلت ما اشتهى فى الدهر من ارب — فى العقل والقلب منى ثم فى البدن
ان البهاء يزين الخلق منظره — كما تزان حلى الاشجار بالدمن
أرحت قلبى من هم ومن سهر — وساعد السعد بالافراح فى زمنى
يا من تعوذ بالتوبيخ كف فما — يشبه العجف فى الانعام بالسمن

وذهبت لتجلس فما استقر بها القعود، الا وجارية وقفت كأنها كوكب السعود، تبتهج باللطف والابتسام، وتضطرب كما يضطرب الحسام، وتبتسم عن ثغر كاللئال، ريقه كالعذب البارد الزلال، ثم قالت : الـي الـي يا معشر العشاق فعلى مثلى تندب الاطلال ويجرى الدم المراق، وحمدت الله عز وجل بقولها :

الحمد لله الذى اودع الحكمة فى النفوس الرقاق، باعث الخلق وناشرهم يوم التلاق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بالحوض والشفاعة واللواء والبراق، ما حدا حاد وساق الركب اليه مشتاق، يا من حضر فى مجلسنا، ولاذ بانسنا، أسمعت مقالة هذه العاهة، وما ظهر منها من قلة النزاهة، هذه التى تفتح فمها مثل التمساح، وتبلع القرع وتخرجها صحاح، وان قرب منها الرجل لمقصد او سول، غرق فى بحر بسول، قلبها بالعلف هائم، كما تفعل البهائم ثم أبرقت وأرعدت، وقالت فأنشدت :

يا عاهة ليس لها من خلاق — هواك قد انساك يوم التلاق
والحشر والنشر وأهواله — وخجلة العبد وخوف المساق
لو كان للقلب به فكرة — لكان للجسم ضنى واحتراق
نحن رقاق فى النفوس ولا — يرق قلب الصب الا وراق

(1) الشورة زينة المرأة وثيابها وما تصحبه معها من متاع لبيت الزوج

ثم قالت : وما حيلتك ايتها العاهـة اذا جاوت الاربعين، وأتتك العلل بجيش كمين وقد تدلت منك الحواصل، وعجزك الصديق المواصل، وتكمشت منك الحلاقم وتفرقت على أعضائك البلاغم، وتعطلت منك القوائم، فلا تتحركين الا بعجلة ودعائم وأنشدت :

اذا رق الحسـام قضى وأمضى — وخط بحده جيد النفاق
وان رق الزجـاج وراق فيـه — رقيق الخمر لذ لكل راق
فتبصـره نحيلا فى نحيـل — ويعظم فعله عند المذاق

ثم أنى سمعت صوتا يصيح، ويقول بلسان فصيح :

مهلا رويدا يا جميع من حضر — حتى اقول بين بدو وحضر
من عن ربات الخدود الناضرة — ذات الخيام او نساء الحاضرة
نحن جوار من بنات البادية — ملامح الحسن علينا بادية
فان بدت منكن لى مكلمة — أنا التى اردها مكلمة

ثم حطت اللثام، عن وجه يشبه البدر ليلة التمام وقالت :

الحمد لله الذى أمره بين الكاف والنون، الحاضر الناظر القاهر الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون، وصلى الله على النبى الذى نور الافئدة فأبصرت البصائر وقرت العيون، وأنشدت :

قد مال الحسن الى العرب — نحن الاقمار بلا كذب
فلنا أرج ولنا غنج — ولنا دعج بالسحر حبى
ولنا كرم ولنا همم — ولنا ذمم للمكتئب
ولقاصدنا فينا أرب — فيما يرجوه من الارب
قد شرف محتدنا وكفى — ان المختار من العرب
صل ما دمت عليه تفز — يوم الاهوال من الكرب

ثم قالت : نحن ربات القلوب، ومنتهى غاية كل مطلوب، جمالنا ابدع جمال ولساننا أفصح لسان، فالعربية بهذا البيان قمر فى شكل انسان، وسكتت فاذا بجارية حضرية، ذات جمال فائق وهمة سنية، نادتها كفى عن الجدال، ودعى هذا الاحتيال، فان من بالمعاطاة يلوذ، كمن يدخل فى جهله فى زقاق غير منفوذ، اياك ان تذكرى فى هذا المحفل نسبا او قبيل، وان اردت ان تفتحى للحرب بابا فانه على السبيل، واعلمى ان رعيان الجمال، لا يفتخرون بحسن ولا بجمال، ثم قالت :

الحمد لله الذى فضل على البادية الحاضرة، واعطانا الراحة فى الدنيا وأعاننا على طريق الآخرة، وخصنا بأحسن الملابس وأيمن المواطن، وامن قلوبنا فى الظاهر والباطن، ووشحنا بالحلى والحلل، واسكننا فى القصور والدور فى ظل الحجب والكلل، واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له عدة للقائه يوم تكون النفوس حاضرة، والوجوه الناضرة الى ربها ناظرة، وصلى الله على محمد وعلى آله واصحابه واصهاره، وأزواجه وانصاره، وقالت : ما اعطيت الهمة السنية، الا للجارية الحضرية، خدى مورد، ونحرى مفند، ولا يرى صدرى العابد الزاهد الا تنهد، ثم أنشدت :

الا انما الحسن حسن الحضر ... علينا ومنا وفينا ظهر
فان كنت يا هذه نجمة ... بأعلى السماء فانى قمر
بسحر الجفون وغنج العيون ... أسل القلوب كسل الشعر
ومن ليل شعرى ظلام المسا ... ومن وجنتى الصباح الاغر

فلما اتمت الحضرية الابيات، وقد افصحت فى المبادىء والغايات، اذا بهزة عظيمة فى المحفل، كاد يرجع اعلاه منها اسفل، فأتت عجوز قد اشتبكت مع صبية، وبينهما معاطاة ومجادلة قوية، والصبية تنادى وتقول، كثر الحمق وقلت العقول، يا قوم اعدلوا بينى وبين هذه العجوز، بكلام يتعقل ويجوز، فقالت العجوز : يا هذه الزمى الوقار، وكفى النفار، فأنا أفصح منك وأعلم، واسبق واقدم، ولا احق بالتعظيم، ممن له الحق القديم، ثم قالت :

الحمد لله راحم الشيب، وساتر العيب، وجامع الناس ليوم لا شك فيه ولا ريب أنا من ذوات العهود والمواثق، أجمع بين المعشوق والعاشق، وأزوج العرائس، وأقبل النفائس، وأشرف المجالس، ولا تجرى السفينة الا بمحاولة الرائس، ألجم الرجل بالشكيمة، وأرده فى الاركان يدور كالبهيمة، على اننى اقضى له المآرب والاوطار، ويجد عندى كل سلعة لا توجد عند العطار، وارفع عنه المؤن والوظائف، ولا اطالبه بشىء من التكالف وأقنع منه بالزبيبة، واكون له تارة محدثة وتارة طبيبة، فانظرى ايتها الصبية من يكون لك عون، ولا تمشى على اثرى فتغرقى كما غرق فرعون، فانى اكثر منك بحثا عن المناسب، ولى معرفة وذهن ثاقب، وان شئت مناظرتى ومناضلتى ففكرى فى العواقب ثم أنشدت :

أمنت الدهر يا بنت الزواني — وصار لك البها نصب العيان
فكم طفل قضى في خفض عيش — وأخلف ظنه بعد الاماني
اله العرش عمرني وابقى — سعودي ثم ساعدني زماني
جررت الذيل في زمن افتخاري — ونزهت الجفون بمهرجان
واني اليوم من ستين عاما — ولكني أعد من الحسان
فيوم في المجالس باتعاظ — ويوم في المحافل والمغاني

(قال الكاتب) وكانت العجوز مخضوبة البنان، مسوكة الفم وليس لها اسنان، مصبوغة الحاجب والسالف، تندب على ما فاتها في الزمن السالف ثم أنشدت :

اذا جف لين التين يحلو مذاقه — وأحلى مذاقا في الثمار العجائز
عجزت وليس القلب مني عاجزا — واني لمن قد رام حربي مبارز
فطعمي ذكي طيب النشر عاطر — وانسان عيني للمحبين غامز

ثم قالت : وان اردت يا هذه المجون والرقاعة، فأنا والله ربة الصناعة واستاذة الجماعة، واذا بالصبية قد أتت تدرج درج القطا على الاقدام، وتبدت فاقبلت اقبال العام، ووردت ورود الغنى على اهل الاعدام، وهي تزعم بنفسها كما يزعم البطل المقدام، اذا ساعدته الايام، ترمق بلحظ نائم، وتفعل باشفارها في قلوب العاشقين ما تفعله الصوارم، ثم نادت : ايتها العجوز الشمطا، يا من كشفت بعيبها عن نفسها الغطا، أما قنعت يا عجوز، يا نشوز، أما كفاك، سد الله بالشوك فاك، هيهات هيهات يا عجوز، يا بنت الدروز، ان يكون لك بعد الهرم طلق، او يكون الجديد مثل الخلق، اما رأيت شعري الفاحم، وثغري الباسم وغصني الناعم، ثم حطت النقاب، فأخرجت الشمس من تحت السحاب، وقد سلمت على القوم فافصحت، وقالت فاوضحت :

الحمد لله الذي غرس ريحانة الشباب، في قلوب ذوي الالباب ثم قالت، وللعجوز اشارت : ويحك لو كنت تبكين على ما مضى، لكان لك اقرب الى الرضى وانشدت :

نور الشباب له عز وسلطان — وللسعادة ارجاء واوطان
وللمحاسن اوصاف تقوم بها — وللحقائق آيات وبرهان
روض الشباب تبدت فيه اربعة — ورد وزهر ونسرين وريحان
من قال ان زمان الشيب يشبهه — عهد الشباب فذاك القول بهتان
ياتي العجوز الذي ما قد مضى اسفا — ترحلت عنك أوقات وازمان
وأنتم يا أهيل الحسن كلكم — بيني وبينكم في الحرب ميدان

فلما فرغت الصبية من النظام، أقبلت الجوارى والعجوز عليهن من امام، فقالت لها : بورك فيك من صبية، وفي ألفاظك الزكية، وساقول بينكن مقالة انصاف يقتضيها الحق وجميل الاوصاف، امـا البيضاء وذات السمرة فتلك فانيدة وهـذه تمـرة، وزينة الدنيا ذهب ونقرة، ثم قالت للكاملة والقصيرة، مسالتكمـا عنـدى يسيرة، اذا كانت الصورة الحسناء كاملة، فهى من النعم الشاملة، وعلى هذا فالقصيرة الذراع، لا يمتد لها فى مجال الفخر باع، فان القصر مذلة، بسبب هذه العلـة، فتأدبـى مع ذات الكمال، فانها ابهى منك وأمتع للرجال، ولو كنت بالسوية معها فى الجمال، ثم قالت للسمينة والرقيقة تالله لا اخفى عنكمـا مـن معانـى الحسـن حقيقة، فالسمينة رياض وجنان، والرقيقة روح وريحان ثم قالت للبدوية والحضريـة، سافصـل بينكما بحكم الانصاف فى هذه القضية، اما القـول الصحيـح، فكل واحدة منكما فى زيها املح مليح، فالعربية تصلح للحضر والسفر، والحضرية لا تصلح الا للحضر، واما انا والصبيـة، فحجتهـا واضحة وحجتى غير جلية، لانها ابرع منى فى الجمال، وانفع للرجال، وامـا العجـوز مثلـى فقد هرمت بمضايقة الآجال، فما لاحد فيها مجال، ثم انصرف القوم، وارتفع العتاب واللوم.

الـزجـل

أنا ندور فى فاس بين ازناقى وادروب بـالـطـبـع والـتـادب
حتى اسمعت هول فى واحد الزنقا بـيـن الـريـام دعـقـا (1)
لما اسمعـت ذا العياط يا حضرا اوقـفـت ردت خـبـرا
وانظرت فى الريام نوجدهم عشرا بـيـضـا ولـون حـمـرا
وارقيقـة غـزال فى بلاد الصحرا واخـرى مـلات عـبـرا
واخـرى شطـا مثـل غصن البان واقصـيـرة وردة فـى كـم ملـك
والبلـديـة بـزيـنـهـا فتـان وعـربيـة كـساتـهـا بـاللك (2)
وعـجـوزة مـهـدمـة الاسـنـان واصبيـة باشـفـارهـا تهلـك

مـن بـعـد مـا هـدوا حضـروا هـنـاك جـواد
وقـفـوا وقـد ردوا وتـادبـوا الـغـيـاد (3)
والـضـد مـع ضـدوا يـتـعـابـرو الـجـهـاد

1) خصومة
2) يعنى بلونه وهو الحمرة
3) الجواري جمع غيداء

بيضا مع الحميرا وشطا مع القصيرا وعجوزا والصغيرا
والساكن البلاد بالوجه المحجوب وعربية بغنبوب (1)
واللى املات بالشحم فى عرقا واللى اتبلات برقا

* * *

نطقت وقالت البيضا حسنى هاج لونى ابيض كما العاج
بدنى كما القطن بيدين انساج وانت كذاك التمساح (2)
بين البياض وبين السواد دراج مثل النهار والداج
النسرى واللوز والازهار والسوسان والياسمين لونى
واكواكب والشمس والاقمار من وجهى والصبح من حسنى
وانت لونك يحكى للقار وادنيت (3) يا سودا اتعاندنى

اوعاى مع عقلك اوصمت او باعدنى
وانظر الى لونك وانظر الى لونى
عندى احسن منك فى الدار تخدمنى

لون البياض زعوا له العباد تهوى نصف الجمال هوا
انظر بفكرتك فى الثوب المجلوب صاحب البياض محبوب
وما السواد من راد يتنقى باطل كذاك يشقا

* * *

نطقت وقالت السمرا بالزعاج لونى بديع وهاج
يشرق كما الخمر فى قطعان الزاج نسما وطيب واعلاج
وبماء الذهب كيتكتب التاج ونقش القباقب العاج
ما ريت فى البياض سوا خمسا معروفين بالثقل والبراد
ملح او جير به تكسا ورخام وعاج فالبياض اقداد
مبخوسين او قلها (4) بخسا تحت القدام يجرعوا التكاد

وارفاعت لسوام (5) تعرف للاسمر
شهد العسل ومدام والمسك والعنبر
والتبر حين يغنام والبرهمان لحمر

---

1) الغنبوت الوجه والطالع
2) كذا بالاصل
3) اى من مصائب الزمان معاندتك لى
4) اى ما اقلها بخسة
5) اى رفعة السوم

والتمر فأوانو والزهر ... فاغصانو والعود فامكانو
لحمر بديع في الماكول والمشروب ... ما فيه شي معيوب

* * *

اهنا انتهى كلام السمرا حقا ... واخذت سريع اتفقا
قامت لها البيضا هدت هدا ... قالت كلام بلذا
باشمن لسان تجاوبيني يا سودا ... وانكرت السمودا
اكسبت من اقرانك كم من وحدا ... وانا كذاك لبدا (1)
لو كان فيك الخير تتباع (2) ... فيد الدلال حافيا فالسوق
كيف يتباع البهايم الرتاع ... شورك عن شور الادمي مفروق
للكانون تصلاحي بغير انزاع ... ولباسك حالك اخشين خروق

من قربك يعمى ... باصنانك المنتن
باش تعقدي الهما ؟ ... يا سودة الخدين
ما صال بالعظمى (3) ... الا البياض مسكين

لولا المداد به ادفاتر مكتوب ... والقلب به شعوب
تحلف قد نيتي (4) ما ترمق رمقا ... سودا بطرف شفقا

* * *

تطلقت وقالت الحمرا بالزربا (5) ... ها ذي عليك عقبا (6)
أش فيك ما يرى بالله يا شهبا ... راسك تقول لهبا
لا حاجب اكحل لا عينيك هدبا ... ظهرت عليك غلبا
لونك قيحي والبياض مسوس (7) ... انت تنظر فيه وهو يبسال
كل اشقر حتما اخبيث منحوس ... كما قالوا فالحديث مثال
ما ريت الديرا امع البرنوس ... فوق اثواب البياض كتعمال
ما نطلقك بالدين ... يا شهبت التشيا
لحمر كمال الزين ... بالشعر والحليا
لولا السواد فالعين ... ما ترمقى الدنيا

1) اى للابد
2) اى لما كنت تباع وتشترى
3) اى العظمة وهم ينطقونها بضم العين
4) اى فى دنياى
5) بالسرعة
6) بضم العين والقاف المفتوحة اى عاقبتها عليك وحجتها لازمة لك
7) اى قليل الملح

لحمر بديع همي ما فيه ما تذمي وما البياض يعمي

لون البياض عجبك لون مخروب به زدت فالتعجب

عبي بخاطرك عني يا حمقا كيا (1) وزد حرقا

* * *

نطقت السمينا قالت بلسان مثلي يصول فازمانو

انظر لمعاصمي والصدر الملوان برز ترنج فاغصانو

ساقي وسرتي وارد في واعكان نسبي بحسن فتانو

نمشي مثل المركب الموسوق واذا نجلس كاني محلا (2)

زيني شحمي والشحم معشوق ما نحتاج ردا ولا جلا (3)

مهما راني بالبصر مخلوق يروح في خاطر ودبلا

من لا ظفر بيا ضاع الحزين عمرو

مغبون فالدنيا عظم الله اجرو

لان الشحم كميا له العباد شكرو

لحم السمين ملذوذ واما الهزيل مردود مارج عظام واجلود

من لا كسب شحما فحياتو متعوب عاش الحزين مكروب

فجريه واخدمتو باطل كيشقى جرات عليه شقا

وانت يا رقيقا مثل القطا زوجك تراه فقنطا

قبل الدخول بفراشك تتغطا قامت عليك عيطا

بدنك قويم لا طلعا لا هبطا كلك كذاك سبطا

تدرق في العرس بالحباب ما لك فيه سطوا ولا مكنا

والحمام تدخل ورا القبا وتخبع روحك فشي ركنا

زوجك يظل في شدا وعذاب وذا جاء الليل تروح لومحنا

يبات في مرتا هايم هميم منكود

يغسل الموتى يلمس عظام وجلود

عجبني وكيف حتى يبلغ معك مقصود

شمت يا رقيقا فافعالك الزعيقا وايحاعت الخليقا

---

1) كية المرة مر الكي

2) محلا يعني جيشا

3) كساء

ساقك من اللحم مخطوف العرقوب   والرد ف عود مثقوب
قصري في حديثك يا ذا العلقا   قصبة وفيك شقا

* * *

قالت لها الرقيقا هاذى علا   نزلت عليك جملا
عبر ترى بعقلك يا ذا الثقلا   بالك تكون فغفلا
كان هى الغزالة تشبه الجملا   او فالحضور تجلى
اسمع منى كلام بلا تدليس   وافتح لى وذنيك الصما
كان الزردخان (1) يشبه التليس   او البرنى (2) تشبه الرخما
لولا شمت وغربك يبليس   ما تفخرى بزين الشحما
ريتك فذا الوحلا   ما كتقد تقوم
حازت عليك علا   بالبلغم الموخوم
اقريب بلا عطلا   تدخل قبر مغموم

زهمت بالرزانا   واتننت بالسخانا   يا بركت الكرانا (3)

انظر طبيب يجمع لك بعض اعشوب   نفخك يفش ويذوب
هاذيك يا مرا علت الاستسقا   دابا اقريب تفقا
بالقرب تنطفا من ذاك التخبيت   ريتك فشدا وتمريت
وقتا جبذتنى وقبابى دقيت   نوريك شين حبيت
اش من اسماق عليك (4) يا زير الزيت   بارك فركنت البيت
وانا هو الفرفرى (5) الذى يرفاع   فوق المرفع يشهى حسنو
وثمنو عالى باش كينباع   ورفيع القدر يشرب منو
ومن الرقا السيف كيقطاع   ويشطر كل من صادف بدنو
كيف تشبه لرزا   قل لى لغصن الياس
والكامر (6) اعزا   كيف تشبه الدنقاس
والحر بالغمزا   يفهم كلام الناس

منى هى اللطافا   والطبع والظرافا   يا صاحبت الغلاقا (7)

---

1) نوع من الثياب رفيع
2) البوم
3) الضفدع
4) اسماق الشرق
5) يعنى البلور
6) ثوب من الحرير رفيع
7) اى الثخانة

منى العشيق صح ينال المرغوب نسما وطيب وشحوب
واتن باسلا تشبه للزقا تحماض بقل عرقا

*
**

نطقت الطويلة قالت بالشد مثلي يصول بالقد
مني يغير بين القامات البند والرمح كيف ينحد
نوري الضيا بحال الشماع نوقد جيدي عالي مجرد
اذا نلبس اتزين اللبسا واللي راني ينقسم قلبو
واذا تجلس بهجت الجلسا والناس ليلي جميع يرتقبو
وما انت يا قصير اخنسا مثل الفكرون فالتراب يربو

فمشيك تدردب (1) كانك قردا
ما فيك ما يعجب لا سر لا لذا
واش من موجب باش تعلى الهدا

لقصر عيب ديما مولاه في هزيما يسام بقل قيما

ابك على الوفا بالدمع المسكوب واحزن بقلب مرعوب
لان الكمال ليلو هي السبقا له في القلوب عشقا
الوافيا تندرج من تحت لواها ثوب البها كساها
ما صالت النخيل الا باعلاها والشمس في سناها
اسمع قول الناس واستعبر وتامل فيه نخبرك خبرا
الوافي في الناس ما يغدر والناقص تزيان لو الغدرا
والوافي فالثياب كيستر واللي ناقص يكشف العورا

باش تفتخر في الناس يا قبضة الخضرا
فوق الحزام الراس للناظرين عبرا
لو كنت من لكياس تصمت وفيه خبرا

لشياخ بالبشارا قالوا الوفا تجارا واما القصر خسارا

لقصر صح مولاه اضحى مغلوب لاهل الكمال مكسوب
هذا هو الامر وعليه التفقا ينعز من ترقا

---

(1) تتدحرجين

قالت لها القصيرة يا عزافا   قصر فذا الخرافا
بالريح كتدور مثل الرفرافا   يا قامت الزرافا
اطلعت فالهوا مثل الصفصافا   لا طبع لا ظرافا
سالى جماعة الحذاق   واجميعت من هو لبيب يدرى
كان هو يشبه بوشقشاق (1)   للرعاد والزر والكدرى
ويذا ريت الطويل مقلق   تعرف بين القصير وراه يجرى

كم اقوام طالوا   واكمالهم يبسال
عن الصواب مالوا   ما بالغو المحلال
ما هو القصير قالوا   الا قصير الفعال

السهم شبر هدى خصلات   كيودى على الرمح كيعدى

مولى الحسام يصير قدام فالهروب   ويجنب تجنوب
وما المدس والخدمى والورقا   ما يتلاقاو بدرقا
انا الظريف نعجب من قاما   ندرج كما الحماما
وانت طلعت بكمالك تطاما   كتشبه النعاما
قالوا لمثال ما ينباع بالقاما   الا الحبل زعاما
انا فاكلى وكسوتى نرفق   بالرجل ونبيتو فرحان
وانت زوجك فهم لو ينفق   ما تظهر نفقتو مع الجيران
شاين جابو فساعتك تلعق   آش يملاك يا طويلة المصران

ذاك الكمال كله   قل لى آش تعمل به
سمك السما جل   ما تلتحق شى له
واللى معه شغل   فلأرض كيرقيه

القصر فيه نقاوا والطبع والذكاوا   بانت عليه طلاوا

وانت كذاك بذاك القد المسلوب   دغيا (2) يصير محدوب
بالله اقسمت ليلك ياذا العنقا   لا فتنى بدقا

***

نطقت وقالت البلديا بالفن   ما نرقد على تبن
ما نطحن رحا ما بتنا فغبن   ما نغرموا لمخزن

---

1) طائر من بغاث الطير
2) اى حالا

ما نحترقوا فصيف باللقطا   ما تدحاو مع مخيض شكوات
ما نجريو اذا تقوم عيطا   ما نشقوا ما نرحلوا خيمات
ما نمشيو نخبطو جبل ووطا   ما نحملو فظهورنا ثربات

لعرب مكشوفين   فشقا كثير وعذاب
وحنا الصلا والدين   ونقاوت الاثياب
بوجوه مستورين   عن العيوب فحجاب

ما نلبس عدايل   ما نحمل قوايل   انحازت لنا الفضايل

الطيب والمسواك يرقيو فلجيوب   هو لنا تطيوب
واريناحنا الزكيا تعبق عبقا   تدهى العقول شوقا
وابدانا تلين باسماق الحمام   وحنا ورد فكمام
ولباس كامرا ولا نظا (1) يغنام   وحلى ودر ينظام
حورات مزخر فين من جنات لنعام   بلباس وشراب وطعام
على السهارج ندرج لقدام   وسقاقى وخصص تفيض وتفور
واحياطى برقايم الرقام   وخوامى وكلل وحجاب وستور
وفراشات حرير فاش تنام   كل وجبينا فقصرها المعمور

وانزايه الغزلال   تلقى فروض عجيب
والرباب والميزان   والعود والتشبيب
والورد والسودان   فظلايل التخبيب

هذا بغير تعكاس   عند افضايل الناس   معلوم شهير فى فاس

والساكنا البوادى بنت المزغوب   عاشت بوسخ وزغوب
لا طيب عيش لا كسوا لا نفقا   لا بعلها قنفا
نطقت وقالت العربيا عفى   اسمع تر لوصفى
احنا عندنا هو الزين الحرفى   معصور عصير مصفى
وقل شى من الكسوا كيكفى   هذا بقدر عرفى
العربية زينها منعوت   ما تحتاج لثام ولا سروال
وبدنها يشرق كما الياقوت   او الذهب النابر الشعال
وما انت يا صفرا قريب تموت   اربيع الظل بالهوا يذبال

1) الكامرا كما تقدم ثياب حريرية رفيعة ونسبها هنا لا ولنظا ولعله يعنى هولاندا

اتصنعي وجهك   واتخللي تخلال
واتخزري (1) زوجك   بالقول والفعال
واذا يقرب لك   من ساعتك تبسال

قد صادتك بليا دفنوك وانت حيا   ما ريت زهو دنيا

اللحد والتراب من فوقك منصوب   وارمل وجير وخشوب
تنظر من السما مقدار الحلقا   عمدا عليك فى ضيقا
واحنا زينا هو زى العربان   ما قط راه سلطان
بالنجع والقبب من فوق البزلان   فيهم غيود غزلان
وافرسان المشالى باعواد الزان   واخيول كن (2) عقبان
باقلا من مثل النجوم تلمع   وادروع كسات ساير البدان
واشناتل برياح كتفركع   وزرد ولمط زين الفرسان
واشنا دگها للسما تطلع   تسابق للوز والكروان

بالصيد والفرجات   كنقطع الازمان
وانعمروا الخلوات   ونامنوا الخوفان
واللى يروح ، يبات   من ساير الضيفان

وانزلوا الدوار فابطايح النوار واخيولنا تتغوار

نتعاند على الگادا (3) والمركوب   والذهب فوق لركوب
والسخا والاحسان والكرام وصدقا   نزلوا جميع رفقا

***

نطقت العجوز قالت منى   خذ الخبر الفنى
لا تحسب صبية سو تغلبنى   ما زلت كندنى
واللى كبير مثلى كيعشقنى   قدرى كبير وسنى
اقطعت الولدا واتهنيت   واتهنا زوجى وصفت امناى
ما تكسب غير الزبون فالبيت   ما عندى مصاص ولا زواى (4)
لا فالظهر ولا فالحجر عبيت   لا فالبطن ولا فالفراش معاى

---

1) اى تتملقين له
2) اى كأنها
3) اى القادة ويعنون بها نجائب الخيل
4) تعنى بالمصاص الرضيع وبالزواى الصبى كثير البكا.

طعمي لذيذ وبنين   للذوق فيه شهوا
يا حابرا واتين   في اكبر البلوا
ما كتراشي التين   تحلى اذا تلوا

همك كثير شاهر   بيتك كما المطاهر   زوجك يبات ساهر

الحمل والولادا فيها تعذوب   باقذار وذم مصبوب
يبات يمص فيك بحال العلقا   ابلا نعاس تبقا
عند القديم قالوا رى وتعليم   واعقل رجيج وافهيم
وما الكبار هي لهم تعظيم   وعز وازحيم
لا هند يا مرا قالوا غير قديم   يبرى الاعضا بتقليم
القدا وات ضراغم الفرسان   افرسان الحرب والحمالات
ما قط رضوا يركبو الجدعان   قالوا لك فمثالهم كلمات
اركب قارح يبيتك فرحان   لاين ما عولت به تبات
من خيط خيط (1) خليك   ما فيه ما يركاب
فالزي والتحريك   تحقار ولا تهاب
اذا قبلت عليك   من ساعتك تغلاب

قالوا الاشياخ الاحبار   عقب النهار فالوعار   تعيا صغار المهار

واللي ركب يركب كارح مدروب   تجم الطراد واهروب
بين الخيول يحضر فالاول سبقا   مهما طلق بطلقا

***

قالت لها الصغيرة كيف تشبهني   بكماشك المتني
انظر ترى لعينك وانظر لعيني   كلحظ طير برني
وانظر ترى لسنك وانظر لسني   واذهب وسر عني
شفري نبل وحجبي نقشا   والثغر ادرار (2) والخدود وضاح
والجيد مند غارت الترشا (3)   والوجه يلوح والجبين صباح
والمرشف شاهد ويغشى   والريق مدام في عمل لجباح
طبعك قبيح مسوس   قولك مع فعلك
يسكن فعظم السوس   اذا يقرب لك
السم فيك مدسوس   ربقك كيهلك

---

1) خيط خيط بكسر الخاء اسم صوت اي الرك المركوب الضعيف الذي تسمع له صوتا مثل خيط خيط

2) بمعنى درر

3) الغزالة

اتهدموا سنانك واتعمشوا جفانك واتكمشوا دغانك

كتحفظ الكيو دوار وابج ولعوب تورى احراك وحروب
ما بابتك على ذا الا دقا من جنجفار تسقى
يا خاربت العقل لو خالطت تحكى الشباب للشيب
والناس فى المثل قالوا فى الترتيب نسمة الصغر كما الطيب
واللى كبير حتما فالكسب ايعيب فى البعد او فى القريب
اجميع ما هو فتى مشكور جميع نبات الارض والماكول
فلقاح الارض كلها واشجور كل فتى منها يصول ويقول
والشارف يحطب بالشاقور يصلاح للنار شهير معقول
قل لى شد حالك معى تدخل لذا الفتنا
عقلك تكون توعى واسمع لما قلنا
والله عجوز تطعى ما تدخل للجنا (1)

الكبر فيه مذلة او مرض بغير علة القبر به اولى

ما هو الكبير امليح الا فالمضروب (2) مسكوك او موهوب
قصر فذا الجدال واطو الشقا نبغى تكون فاشنقا

***

ثم انتهى الكلام وامعانى الاريام قلت ملاح والسلام
الكل تعجبوا من صنع العلام هذا عيار واملام
للصلح حضروا الاديب النظام ما دح شفيع الانام
قالوا ابنا جازت الغرا ما نحسابو حضرت للدهكا
من فضلك تسمح لنا فشين جرا يجعل ربى فعمرك البركا
يا بن داود راس الشعرا تصالحنا من بعد ذا العركا
من فضلك الممدوح بقصيد تجمعنا
تسبى العقل والروح بالفن والمعنى
يشرق ضياه ويلوح من بعد تصلحنا

باش تشتهر اوصافو فالغرب عن اطرافو واللى اقراه أو شافو

يدعى لنا ظمو يستغفر ويتوب يحظى بكل مرغوب
ونعود بالسلام لشياخ الطرقا طول الدوام يبقى

1) يشير الى ما ورد فى الحديث : اما علمت ان العجائز لا تدخلن الجنة، المراد انهن لا يدخلن عجائز بل شابات

2) اى الدنانير المضروبة

علال الفاسي

مهمة علماء الاسلام

حضرات اصحاب الفضيلة ـ اخواني :

اشكر التعليم العالي لوزارة التربية الوطنية على اقامته مثل هذه الندوات التى تلتقى فيها افكار العلماء للبحث عن وسائل بعث صحيح للثقافة الاسلامية على ضوء التطور الانسانى المعاصر. وفى كامل الانسجام بل الامتداد لروح التربية الاسلامية كما ارادها المربى الاكبر صلى الله عليه وسلم .

وغايتى فى هذه الكلمة ان اتحدث عن مهمة علماء الاسلام. اى عن الغاية التى تعمل لها دعوتهم وعن الوسائل والاعدادات التى لابد منها لاداء تلك الرسالة واستطاعتهم القيام بها .

ومن المعلوم ان مهمة العلماء قديما وحديثا واحدة، فهى مستمدة من طبيعة الدعوة التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم، كما ان الثقافة التى يستعملونها لتقويم المعوج من الانسانية ووصلها بالقيمة المثلى، هى من طبيعة تلك الدعوة، لانها تجلية لها ودفاع عنها. وبهذا الاعتبار صح للنبى صلى الله عليه وسلم ان يقول : العلماء ورثة الانبياء، ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم، فمن اخذه اخذ بحظ وافر.

واذا كان الانبياء قد بلغوا الدين وحملوا الرسالة فمهمة العلماء هى حفظ ذلك الميراث وتبليغه بكل امانة. والنضال فى سبيله بمختلف الوسائل، وابتكار هذه الوسائل نفسها. وذلك ما يقول فيه الرسول :

يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين.

فالمهمة اذن محددة كامل التحديد فى هذا الحديث الشريف وهى تنحصر فى نقط ثلاث :

1 — ازالة كل انحراف عن الدين مصدره الغلو في العقيدة او المشادة في الدين .

2 — دفع انتحالات المبطلين الذين يدخلون في الدين ما ليس منه، او تتسرب الى افكارهم من حيث لا يشعرون مبادىء باطلة لا تتفق وطبيعة التوحيد

3 — تقويم تاويلات الجاهلين بالدين الذين لا يبالون بالانحلال الذي يصيب عقائدهم متى تذرعوا بما يرضي غرائزهم .

ويستوجب القيام بهذه النقط طبعا معرفة الدين نفسه ومركزه من الديانات الاخرى ومن النظريات والافكار الانسانية على اختلاف العصور، وهذا ما يستوجب المعرفة بالبشر وباللغات والتطورات التاريخية والعلمية وكل مقومات الحضارات الانسانية، ووسائلها الثقافية لتكوين الخلق الانساني في كل البيئات والعصور، وهكذا تصبح الدعوة الدينية نفسها محورا اساسيا تحيط به كل المعرفة الانسانية وتنجذب اليه كل الابتكارات والمناهج البناءة، فتصبح هي والثقافة متحدتي المعنى، مشتركتي المدلول .

واذا عرضنا لدراسة معالم الفكر العربي في الصدر الاول وتبينا ثروة العرب الفكرية المدهشة في ابان نهضتهم العلمية المبدعة، وجدنا ان كل ما فعله العرب لم يكن الا بباعث من الدين ولخدمة مقاصده، فالاصلاح الثوري الذي احدثه الاسلام في المجتمع العربي كون من نفسه تعليما جديدا كان الرسول مدرسته الاولى التي اخرجت من الاساتذة العلماء من ذهبوا في الآفاق يبلغون الدعوة، وينشرون العلم بمقوماتها، وسرعان ما احتاج الناس الى تفهم الغايات والاسباب والمعاني والالفاظ. فبدأت العلوم الاسلامية تتكون، وسرعان ما بدأ الفكر العربي يتفتح، فاحتاج الى معارضة المقاومين له ومقارعتهم بالحجة والبرهان فتكونت العلوم الانسانية العقلية والفلسفية، وكان عصر الالتقاء بين مختلف الثقافات الانسانية في ظل الدولة الاسلامية.

ولقد انتبه الكثيرون من علماء المسلمين ومن علماء الاستشراق ايضا الى الاثر الذي احدثه الدين في ميدان المعرفة العربية، فاعترفوا بكون الدين نفسه كان السبب المباشر لا في خلق جو علمي قوي في الوسط المسلم فقط، ولكن في ابتكار العلوم وتعاطي ما كان موجودا منها. وقد اوضح مؤلف عربي ناشيء هو الدكتور كمال اليازجي معالم الفكر العربي في كتاب له بهذا الاسم صدر اخيرا ببيروت، فاكد ما سبق ان اعلنه كولد زهير ورجيه باستيد وما سبقهم اليه الذين كتبوا من المسلمين عن قانون العلوم، امثال الفارابي واليوسي من متاخري المغاربة .

على ان عالما من علماء القرويين الذين نبغوا فى القرن الثانى عشر الهجرى هو ابو عبد الله محمد بن عثمان الطرنباطى الف كتابا فى فضل العلم سماه «بلوغ اقصى المرام فى شرف العلم وما يتعلق به من الاحكام» (1) واوضح فى مقدمته الاسباب التى ادت الى اختراع المسلمين ما اخترعوه من العلوم وتبنى ما تبنوه، وقد واجه الموضوع كما يأتى :

1 — لما استحر القتل فى القراء وخاف ابو بكر ضياع القرآن جمعه فى المصحف لعلمه ان ذلك وسيلة الى حفظه.

2 — لما احس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان فهم الكتاب والسنة يحتاج الى موصل لما فيهما من دقائق الاشارات وغرائب العبارات، حض على رواية الشعر وتعلمه فقال فى خطبته : عليكم بديوانكم لا يضل. قيل وما هو ؟ قال : شعر الجاهلية فيه معنى كتابكم.

3 — لما خشى عثمان (رض) اختلاف الناس جمع القرآن فى المصاحف لعلمه ان ذلك وسيلة الى ضبطه وارتفاع النزاع فيه.

4 — لما سمع على كرم الله وجهه اللحن وخاف ضياع العربية وضع النحو لعلمه ان النحو وسيلة لحفظ اللسان العربى، وحفظه وسيلة الى فهم معانى الكتاب والسنة اللذين هما مدار الشريعة المحمدية .

5 — لما علم مهرة الصحابة والتابعين ان ليس كل احد يقوم بفهم معانى القرآن اشتغلوا بتفسيره ودونوا له التفاسير نصحا لمن بعدهم ودونوا الاحاديث النبوية، لان ذلك وسيلة الى معرفة ما وقع به التكليف. وهو وسيلة الى الامتثال المقصود .

6 — لما كان ما ينقل من الاحاديث ليس كله متواترا ولا متفقا على صحته عن النبى (ص) بل منه الصحيح سندا وغيره، والقوى سندا وغيره، واحتاج ايمة الدين الى تمييز المعمول به من غيره والى معرفة تلقى ذلك وتبليغه احدثوا صناعة الحديث وما فيها من الاصطلاحات والالقاب .

7 — لما كانت الاحكام المأخوذة من الكتاب والسنة منها ما يرجع الى كيفية عمل ومنها ما يرجع الى اعتقاد صرف، والاولى لا تتناهى كثرة. فامتنع حفظها كلها الوقت الحاجة فانيطت بادلة كلية من عمومات وعلل تفصيلية تستنبط منها وقت الحاجة، فجمعوا ذلك ودونوه وسموا العلم الحاصل عنه فقها .

1) توجد مبيضته الاصلية بمكتبتى الخاصة

8 — لما احتاجوا الى استنباط المسائل المجددة والجواب عن كل نازلة نازلة، والى مقدمات كلية، كل مقدمة منها يبنى عليها كثير من الاحكام وربما التبست ووقع فيها الاختلاف، حتى تشعبوا شعبا، وافترقوا على مذاهب لم يروا اهمالها نصحا لمن يعدهم ولا اعانة لهم على ادراك الحقائق، فدونوا ذلك وسموه «اصول الفقه».

9 — والثانية وهي الاعتقادات كانت في صدر الاسلام سليمة، وحين تكاثرت الاهواء والشيع وافترقت الامة، كما اخبر به الصادق المصدوق (ص) على فرق، وكثر الخبث في الدين وغطت على الحق شبه المبطلين، انتهض علماء الامة، وعظماء الملة الى مناضلة المبطلين باللسان، كما كان الصدر الاول يناضلون عن الدين بالسنان، واعدوا لجهاد المبطلين ما استطاعوا من قوة فاحتاجوا الى مقدمات كلية، وقواعد عقلية واصطلاحات واوضاع، يجعلونها محل النزاع ويتفهمون فيها مقاصد القوم عند الدفاع، فدونوا ذلك وسموه علم الكلام، واصول الدين ليكون بازاء اصول الفقه السابق.

10 — وايضا لما كانت ألفاظ الكتاب والسنة عربية، وفهمها موقوف على فهم لغة العرب وضعوا اللغة ودونوها.

11 — ولما كان ثبوت الشريعة موقوفا على صدق الرسول الموقوف على ثبوت المعجزة وكان اعظم المعجزات القرآن العظيم، وكان اعجاز القرآن الموصل الى ما ذكر يحتاج الى مزيد فهم وتحقيق، اذ هو مملوء بالمجازات والاستعارات والكنايات، فوضعوا علم البلاغة ودونوه.

12 — لما احتاجوا في امر الصلاة والصيام وغيرهما الى معرفة القبلة وساعات الليل والنهار دونوا علم الهيئة.

13 — لما احتاجوا الى العد والمحاصات وقسمة التركات وسائر المعاملات وضعوا علم الحساب الى غير ذلك من الفنون.

14 — لما كان كل ما ذكر من الفنون وغيرها دائرا بين ادراك امرين والحكم باحدهما على الآخر، وكان الفكر عند الحكم ليس بمصيب دائما، بدليل مناقضة بعض العقلاء بعضا في مقتضى افكارهم، فاحتيج الى ما يوصل الى الادراك ويميز صحيح الفكر من سقيمه، دونوا علم المنطق وعربوه لتنتفع به هذه الامة المشرفة العربية اذ هو المهيمن على الافكار والفهوم وكل من العلوم التي استخرجها اليونان ومن الحكمة التي اعطوها وكان يقال: انزلت الحكمة على ثلاثة اعضاء في الجسد : قلوب اليونان، ولسان العرب، وايدي اليمنيين. فاذا فهمت هذا علمت ان التوصل الى الحق بكل ما امكن سنة، فعلها كل من

الخلفاء رضى الله عنهم، بل وكل الصحابة، فلا يخطر ببالك وجه لتحريم شىء من هذه العلوم، ولا ان يقال فيه انه مذموم، اذ هى كلها وسائل الى المقصود وحائمة الى الورد المورود، فمن حرم بعضها فليحـرم جميعها. والا فمن اين التخصيص، ومن انكر ان يكون ذلك وسيلة فالعيان يكذبه. نعم بعضها اقرب واكثر ايصالا من بعض هـ. كلامه.

وهكـذا نجـد القرويين مدركة للحاجة الى التجديد واستعمال كـل الوسائل النافعـة منذ عهـد بعيـد، ومدركة كذلك اثر الدين الاسلامى فى استنباط العلوم واستخراجها .

وقد عد المرحـوم مصطفـى صادق الرافعى فى الجزء الثانى من كتابه تاريخ آداب العرب وهو الجزء المتعلق باعجاز القرآن، ذلك من معجزة التاريخ العربى ومن معجزة القـرآن وبعـد ان نقل عن (احد العلماء) لونا مما نقلناه عن السيد الطرنباطى عاد فقال :

غير انـا نوثـق الكلمة فـى ان القرآن الكريم هو كان سبب العلوم الاسلامية ومرجعها كلها فانه ما من علم الا وقد نظر اهله فى القرآن واخذوا منه مادة علمهم او مادة الحياة له. فقد كانت سطوة الناس فى الاجيال الاولى من العامة واشباه العامـة شديدة على اهل العلوم النظرية الا ان يجعلوا بينها وبين القرآن شيئا من التاويل والاستشهاد والنظر فى آثار الله، الى ما يشبه ذلك بما يكون فى نفسه صلة طبيعية بين اهـل العقول والبحث واهل القلوب والتسليم هـ(1) ولكنى ألاحظ على السيد الرافعى تعليله الاخير من شدة العامة على اهل العلوم النظرية فهو ما لا اوافقه عليه. اذ الحقيقة ان ذلك لم يكن قط الباعث على الاتصال بالقرآن، بل العكس هو الصحيح كما يوثقه بنفسه قبل بضع كلمات. اما تزمت السلفيين على النظريين فهو راجع الى لون آخر من الاختلاف. هو هل الافضل التمسك الحرفى بالصيغ المروية وتسليم ما فيها استنادا على اليقين وعلما بان كل ما يصل اليه الانسان من المعرفة لن يزيد شيئا فى ادراك الحقائـق الغيبيـة ؟ او البحـث عن وسائل اخرى للاقتناع والاقناع وهو مذهب الخلف علما منهم بحاجة العامة من المومنين وغيرهم الى ما يأخذ بيدهم ويقرب لهم عن طريق مسلماتهـم العلمية ما يستعصى عليهم قبوله بدونها. وهذا الاختلاف ليس الا فى درجة اليقين الناشىء عن مقدار المعـرفـة .

---

1) الرافعى «تاريخ آداب العرب» ج 2 ص 118

ومهما يكن فالقرآن الذى اثر فى خلق هذه المعارف الجمة وتنويعها، والذى انشأ عالما مليئا بالبحث والدرس والنظر لا يمكن ان يقف قط فى وجه اى منهج جديد من مناهج البحث او طريق من طرق المعرفة، فكيف يعامل بجرم الجامدين من رجال الكنيسة المسيحية حين اختلفت مع اقطاب الحركة العلميــة ؟

فتح القــرآن اذهــان المسلميــن ودفعهم لان يقوموا بالنظر فى الكون وتلمس اسراره واستجلاء غوامضه، وقــد استجابــوا للدعوة واقامو بالمهمة . فكان منهم الاقطاب العاملون الذين اناروا السبيل وعبدوا المناهج لمن بعدهم.

وقيام علماء المسلمين بمهمتهم هو الذى جعلهم يفتحون للفكر الاسلامى آفاقا جديدة ويبتكرون للنظر منهجا تجريبيا يختلف تماما عن الفكر القياسى الذ يسير عليه المنطق الارسطى. وقد قــرر الاستــاذ بريفــو Briffoult فى كتابه : Making of Humanity ان روجيــر بيكون تعلم العربية والعلم العربى. وانه لم يكن له ولا لسميــه الآخر فضل فى ادخال المنهج التجريبى الى اوربا، ولم يكن روجير بيكون فى الحقيقة الا واحدا من رسل العلم والمنهج الاسلامى الى اوربا المسيحية، ولم يكــف بيكون بان معرفة العرب وعلمهم هو الطريق الوحيد للمعرفــة الحــق لمعاصريه. ويقول بريفو : انتشر نهج العرب التجريبى فى عصر (بيكون) وتعلمه الناس فى اوربا تحدوهم الى هذا رغبة ملحة (1)

وهكذا نجد ان القيام بتحمل الميراث الثقيل الذى خلفه الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم للعلماء، ادى بهم الى ان يتحققوا قبل كل شىء بحقيقة العلم، كما ان الدعوة الاسلامية جعلــت الفكــر العربى يتحرر من كل القيود التقليدية ويميــز بين ما هو منسجم مع العقل ومــا هو من الطفيليات التى تلتصق بالذهن كاغلوطة مقدسة موروثة .

ولقــد اعتــرف دارسو الحضارات الانسانية بأن العرب استطاعوا أن يجعلــوا خيــر طابع لحضارتهم من مقدرتها علــى استكناه المسائل واقتناء المعرفة من جميع المنابع ثم صهرها وصياغتها بمقتضى المقياس العربى القائم على التجربة وعلــى النــظر، وبذلــك هضمــوا كل ما تعلموه، واستحقوا ان يكونوا أساتذة العالم لا فى ما ابتكــروه من علــم فقط، بل فى كل ما نقلوه عن غيرهم بأمانة ودقة .

1) على سامى النشار خاتمة كتاب مناهج البحث عند مفكرى الاسلام

لقد سبق العرب بالعمل بهذا القانون الذى يلخصه روجيه باستيد فى قـولـه :

«ان فاعليـة التمديـن تتالف بالدرجة الاولى من انتظام الطبيعة فى الاخلاق بتوسط الثقافة خلال جميع احوال التنوع التجربى وان عكس فاعلية التمديـن يسبـب الوحشيـة» (١)

ومعنى هذا ان المجهود العربي انصرف كله لتوجيه الفاعلية الانسانية الاجتماعية منحى نمو الاخلاق، او بعبارة ادق منحى معرفة الانسان لنفسه. فالطبيعة توخذ كخميرة اولى لتصنع منهـا عـن طريـق الثقافة مدنية غايتها هى الخلق اى معرفـة الذات. والعلم لا يقوم الا بتجلية القيمة النهائية لتنوع الحوادث الانسانيـة، ولا يمكـن ان يتخذ العلم الوضعى او قوانينه كمعيار نهائى الا اذا اعطينا للعلم وظيفة تزييـف القيم الانسانية، وهو ما لا يستطيع العلم ان يدعيه .

فالغايـة اذن هـى انجـاح التجربـة الانسانية المبتدئة من المشاهدة والمعتمدة على العقل فى تقييم الحوادث المتنوعة طبقا للغاية المثلى .

ان علماء الاسلام الاولين اعطوا الشخصية النموذجية لانكباب الانسان علـى التوفيق بيـن الطبيعة المعطاة له على انها لا تحمل قيما روحية، وبين الغاية الخلقية التـى تملأ الطبيعة بمحتوى روحي جديد عن طريق الثقافة . فالاشعرى والماتريدى واحمد بن حنبل ومالك والشافعى وابو حنيفة والباقلانى وعياض وابن رشد وابن سينا والغزالى وابن تيمية وعديد غيرهم من مختلف اساطين المعرفة الاسلامية، ضربوا خير مثل لقيام العالم الدينى بمهمته. فى تجرد من حب الـذات، وبـعد عن الملذات. ان الحروب المدنية التى وقعت داخل المجتمع الاسلامى ما كانت لتستطيع القضاء على متطرفى الخوارج ولا على مذهب الاعتزال والقول بخلق القرآن ـ مثلا ـ وانما قضى على ذلك كله موقف العلماء النظار الذين اضافوا الى المعرفة الصحيحة الثبات فى العقيدة والتضحية من اجلهـا. ان العـذاب الذى تحمله احمد بـن حنبل من الخليفة المعتصم هو الذى قضى على الاعتزال وحكم بالنصر للسنة. وان نفس الدور الذى قام به ابن تيمية والشاطبى واضرابهما فى العصور الوسيطة هو الذى حمى السنـة من الضيـاع، وكتب لها الغلبـة فى النهاية على الخرافة وعلى الابتـداع .

(١) روجيه باستيد، المدنية سرابها وواقعها، الفصل الختامى (النص العربي)

واذا كان الشرق الاسلامي قد سبق الى ابتكار العلوم وانضاجها، فان المغرب سرعان ما اعتنق الاسلام واخذ يدلي بدلوه ليكرع من معين حضارة رائعة، ويستنبط ينابيع اخرى تتفق مع ذوقه الخاص وطابعه الممتاز .

وقد لعب المعهد القروي والمعاهد الدينية الاخرى في المغرب والاندلس دورا هاما في تنقيح المنقول، وابتكار المعقول، وفي ذلك الجو نشأ ابطال في المعرفة والفلسفة امثال ابن رشد وابن الطفيل وابن باجة وابن حزم وابن البنا وابن العربي وغيرهم من مختلف رجال الفكر الذين نشروا المعرفة وضحوا في سبيلها، وكانوا القناة التي سقت الغرب الاوربي فأثمر حضارته الحالية. وقد استخرج صديقنا الدكتور عمر فروخ في رسالته عن ابن باجة بعض المعطيات التي قدمها المفكرون المغاربة للثقافة العربية، وفي مقدمتها سيطرة العقل عند المغاربة وحسن الانتاج والابتكار الى جودة التنسيق والاختصار (1) ونضيف الى ذلك ان المغاربة عملوا على توحيد مجتمعهم لا من جهة العقائد ولا من جهة الفروع فتخلصوا من الطائفيات وانصرفوا لدراسة الانسان وعلاقته بالطبيعة متجنبين بقدر الامكان كل الابحاث الميتافيزيقية التي لا يمكن للانسان ادراكها الا عن طريق النقل. واتجهوا في فلسفتهم الاجتماعية نحو مجتمع واقعي يقوم على التعاون ويتأثر بقوانين الكون وعوامل الاقتصاد ويتطور بحسب البداوة والغزو او الحضارة والاتجار . ومقدمة ابن خلدون خير مثال لذلك. على ان الاتجاه الاجتماعي كان بارزا لا عند الفلاسفة والفقهاء المغاربة فقط، بل حتى عند متصوفة المغرب امثال ابي العباس السبتي وابي محمد صالح من الذين بحثوا في تجربتهم الروحية سبيل خدمة المجتمع والتعاون على سد حاجاته. وبذلك قدر المغاربة مهمة العالم الديني على انها ليست في مجرد البحث والتدريس، ولكن حتى في نقل معرفته وبذل جهوده لخدمة الانسان وتحسين حالته المادية والخلقية. ولكن المسلمين لم يسيروا على وتيرة واحدة دائما .

واذا كان الوعد النبوي يضمن قيام جماعة من اهل العلم الذين يجددون لهذه الامة امر دينها ويصلحون ما افسده الناس من سنة نبيها، فان ذلك لا يعني عدم وقوع تضعضع في الوسط الاسلامي، وانما ذلك يضمن دوام الاسلام وعقيدته محفوظة بحفظ القرآن، اما المسلمون فيحتاجون الى المجهود المتواصل اذا ارادوا البقاء دائما في المستوى الرفيع الذي اراده لهم الاسلام. والمجددون الموعود بهم لا يقدرون على اكثر من بذر البذور الصالحة التي لا

1 عمر فروخ . ابن باجة والفلسفة المغربية ص 11 وما بعدها.

توتى ثمارها الا بعد ان تستعد الامة بمجموعها لتغيير ما فيها. وتعدد العوامل لابد ان يؤثر على المجهود الخاص. والاصلاح لا يتم الا بعد ان يجتاز المجتمع طورا من الفساد يشعر معه بضرورة ازالته .

وقد خلف من المسلمين خلف اضاعوا كل معالم السنة الصحيحة ومعالم الفكر العربى وتراث الحضارة الاسلامية الحقيقى، وانغمروا فى عالم من الغيبيات المزيفة التى كان انتشارها ثمرة مؤامرات من الدول التى غلبها الاسلام على امرها، لافساد المجتمع الاسلامى وعدم قوته، ولكن ذلك لم يمس مصادر الدين الحقيقى؛ لان القرآن قد جمع فى اول الامر ولا يشك احد فى بقائه على الشكل الذى جمع عليه الى الآن. والسنة المأثورة معروفة بصحيحها ومعلولها، فالتغير انما وقع فى التفاصيل وفى الاضافات التى نشات من الاختلاف الذى ادى أحيانا الى تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين تماما، كما نبه اليه الرسول بنفسه فى الحديث الذى ادلينا به اولا .

يحسب بعض علماء الاجتماع الدينى ان التطور الواقع فى الديانات يشمل حتى أسس العقيدة وشعائرها، واذا كان ذلك ينطبق بحسب الواقع على المسيحية التى أدى الاختلاف فيها الى التنازع فى قواعد ذات أثر محسوس على جوهر الدين، فانه لا ينطبق على الاسلام نفسه، لان اصول الاعتقاد وهو توحيد الله ورسالة نبيه مجمع عليها من كل الطوائف والنزعات. ولقد اعترف بذلك جولد تزهير اذ قال : لا يمكن المقابلة بين العقائد الاسلامية وبين العناصر الدينية الاساسية فى اى كنيسة مسيحية. فليس فى الاسلام مجامع دينية يحمى فيها وطيس المناقشات والمجادلات حتى يصل المجتمعون الى تقرير القواعد الدينية، والصيغ الاعتقادية التى يتحتم اعتمادها ... كرمز يدل على الدين الصحيح، ولا توجد فى الاسلام وظائف كهنوتية او سلطة دينية تمثل المعيار القويم للسنة، ولا يوجد تفسير للنصوص المقدسة اقره المسلمون وحده دون غيره. ورد الدكتور محمود قاسم فى مقدمة ترجمته لكتاب مبادىء علم الاجتماع الدينى، على روجيه باستيد مؤلف ذلك الكتاب، فى زعمه ان العقائد الاسلامية قد تطورت، جاعلا جهل باستيد بالاسلام نفسه وبعقائده سببا فى جنوحه لهذا الرأى، وبعد ان نقل كلام جولد تزهير كحجة قال: «انه اذا لم توجد تلك الامور كلها فالسبب فى هذا يرجع الى ان الاسلام يقرر ان العاطفة الدينية فردية، وان الصلة بين الفرد وربه لا تحتاج الى وساطة اجتماعية»، وجعل الدكتور قاسم التسامح الذى كان قائما بين

المسلمين دليلا على ان المناقشات لم تكن تمس صميم العقائد الاساسية، وان الاختلاف كان بصدد الفروع التى يجوز الاجتهاد فيها (1)

وتحقيقا للوعد النبوى فقد برز فى العصر الاخير علماء مسلمون فى كل انحاء العالم الاسلامى يبحثون عن الاسباب التى جعلت المسلمين ينحطون بينما يتقدم غيرهم من تلامذتهم. وكان من ابرز هؤلاء العلماء الشيخ محمد عبده الذى جعله تجواله فى مختلف انحاء الخلافة العثمانية يعتقد فى ان تأخر المسلمين ناشيء عن امرين لا ثالث لهما :

الاول ـ قبول الاضافات التى ادخلها المندسون فى الاسلام والمشعوذون عليه مع التقليد لكل ما نقل عن السابقين من العلماء او غيرهم ونبذ الاجتهاد الدينى نبذا ظهريا .

الثانى ـ استبداد الخلفاء والرؤساء المسلمين ومقاومتهم كل حرية فكرية مع تملق العلماء المسلمين لهم، وتزيينهم لهم ما يعملون بالسكوت احيانا، وبتحريف الاحكام وتأويل التشريع تأويلا متفقا مع الرغبات السياسية وشهوات اولئك الولاة احيانا اخرى.

واذا كان فى ذينك الامرين السبب المباشر لتأخر المسلمين فلن يعود العالم الاسلامى لعزته وكرامته الا عن طريق العودة الى الدين الصحيح من طريق الاجتهاد الحر والنظر المجرد ومقاومة كل استبداد وطغيان، لان الايمان بالله نفسه لا يتم الا اذا صاحبه الكفر بالطاغوت .

يقول الشيخ محمد عبده فى هذا المعنى :

«وارتفع صوتى بالدعوة الى امرين عظيمين :

الاول ـ تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفها الى ينابيعها الاولى. واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه .

اما الامر الثانى فهو اصلاح اللغة العربية (2)

ويقول عبده ايضا :

وهناك امر آخر كنت من دعاته والناس فى عمى عنه وبعد عن تعقله، ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية. وما اصابهم الوهن والضعف

1) الدكتور محمد قاسم، مقدمة ترجمة كتاب الاجتماع الدينى، لروجه باستيد ص 7

2) الاستاذ رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام ص 11 ج 1

والذل الا لخلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة (1).

وبالعودة للمصادر الاولى للاسلام، وباطلاق الاجتهاد ونبذ التقليد، وبمعرفة ما للحكومة من حق وما للشعب من حق، تنفتح من جديد آفاق الثقافة البناءة التى يذهب اجتنس جولد زهير فى الفصول الاخيرة من كتابه (مذاهب التفسير الاسلامى) الى توضيح منابع انطلاقها من المدرسة السلفية (2).

ولا يتأخر الدكتور محمد البهى عن تاكيد ما لاحظه جولد زهير من كون مدرسة محمد عبده تمتاز عن حركات التجديد التى انبثقت فى الهند باستقلالها وبكونها تطورا طبيعيا لحالة المسلمين (3).

على ان الحركات الاسلامية سواء منها الهندية او العربية كانت ترمى لغاية واحدة، هى اقناع المسلمين بضرورة عودتهم الى دينهم الحقيقى، ومعنى ذلك التحرر من الخرافات وفتح باب الاجتهاد، وقيام اجماع جديد على اسس من الدين تتفق ومقتضيات التطور الانسانى فى ميادين العلم والاقتصاد.

ولكن المسلمين لم يمهلوا حتى ينظروا فى امرهم، ويستقبلوا من امرهم ما استدبروه. فان الزحف الاستعمارى الغربى اكتسح العالم الاسلامى برمته وادهشه بقواته المادية، ومقدرته الصناعية، وبهرجته اللفظية، فاصبح فى حيرة من امره لا يدرى ايشتغل بالدفاع عن نفسه وتحرير وطنه ام يبالى بالدعوات التى يقوم بها الغرب لهدم الكيان الروحى الاسلامى. وقد فعل للجهاز الاجتماعى الذى خلقه الاستعمار لمالاته من الداخل ما لم يفعله الجهاز العسكرى والسياسى الاجنبيان.

ولقد بدأ الانجليز الحملة فى الهند، بتكوين حركة لتعويض الدين التلقائى بدين موجه، والوطنية التلقائية بوطنية موجهة. ووجد فى السيد احمد خان داعية بالغ المقدرة كما وجد فى الارساليات الدينية والعلمية خير مهيىء لمجموعة من الشباب لا تبالى بممالاة المستعمر عن طريق الاعلاء من قيمة كل ما هو اجنبى، وتحقير كل ما هو اسلامى او وطنى وامتدت هذه الحملة الى البلاد العربية وقلدتها فرنسا باستعمالها مشايخ الطرق وبعض

1) نفس المرجع اعلاه

2) اجتنس جولد زهير، مذاهب التفسير الاسلامى ص 347، من الترجمة العربية

3) الدكتور محمد البهى، الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص 81 وما بعدها

العلماء، كما قلدتها روسيا التي برعت براعة كلية في توجيه الحركات الاهلية في الاتحاد السوفياتي طبقا لخطة عامة مضبوطة .

واذا كانت للاستعمار رسالة غير الاستقلال المادي الذي استطاع المستعمرون ان يقاوموه دائما فهي في غرس هذه الثقة القوية في كل ما هو غربي. وفي اتخاذ تجارب الغرب كلها معيارا لا يخطىء في الحكم على الاشياء والافكار في الشرق. وهذه هي العبودية الفكرية التي كانت في نظر المفكرين المسلمين عامة اشد على الاسلام وذويه من كل حملة صليبية او استعمارية .

ومن سوء الحظ ان الحملة الاستعمارية على العالم الاسلامي صادفت بلوغ المادية في الغرب اعلى درجاتها فان الخلاف الذي قام بين العلماء الغربيين في بدء النهضة وبين رجال الكنيسة ادى الى عزل الديانة المسيحية منذ ذلك الوقت عن كل مظاهر الحضارة الحديثة، وكان اثر محاكم التفتيش الكنيسية شديدا على الديانة المسيحية بل ضربة قاسية على العقائد الدينية كلها، لان الصراع بين رجال الدين وبين رجال العلم تحول الى صراع بين ما سمي بالمنهج العلمي وبين ما سمي بالمنهج الديني، ومع ان الاسلام لم يقاوم قط ولم يخش الدراسة العلمية على اختلاف مناهجها، فان المسلمين لم يتحرروا اليوم بعد من الحكم على الفكر الاسلامي قياسا على الفكر المسيحي اي بذنب لم يقترفه الاسلام ولا علماؤه.

ان الفرق بين النظرية الدينية وبين النظرية العلمانية في الغرب هي ان الاولى تعتبر ان كل ما في هذا العالم من مظاهر وآثار مرده الى قوة اعلى واسمى من هذا العالم بينما ترفض الثانية تفسير تلك الظواهر الا على اساس لا وجود فيه لاله او قوة فوق الطبيعة وما ذلك في واقع الامر الا امعان في الخصومة بين رجال الحركة العلمية ورجال الكنيسة. على ان رد فعل روحاني وقع من طرف مجموعة من الفلاسفة والعلماء الذين حاولوا الاصلاح بين المسيحية وبين العلم. وهذه المحاولة هي التي تكون شتى المدارس الفلسفية والعلمية التي ابتدأت بديكارت وسبينوزا وانتهت بهيجل وكانت وقد كانت نهايتها الفشل لكونها نظرت الى الدين كمجرد حاجات اجتماعية او تخيلات مثالية وبلغت في القرن التاسع عشر المادية مستواها الاعلى منذ ظهر فوجت Vogt وبوخنر Buchner ومنذ ظهرت الافكار التجربية في الفلسفية النفعية، وتقدم الاكتشاف العلمي في ميدان طبقات الارض وعلوم الحياة وعلم النفس التجربي، وقد مهد ذلك كله لقبول الفكر

الغربى نظرية المادية التاريخية التى برزت كرد فعل آخر لتكتل الراسمالية وحلولها محل الاقطاعية القديمة .

ازاء هذا الهجوم الجارف على المجتمع الاسلامى، وقع انفصال كامل بين التراث العربى بما فيه من ثقافة ودين وبين الناشئة التى لم تعد تجد مربعا لدراستها وتلقى معارفها الا فى مدارس الغرب ومعاهده العليا، وهى كما يعرف الجميع لا يمكن ان تعنى فى قليل ولا كثير لا باللغة العربية واسرارها ولا بالحضارة الاسلامية ومفاخرها، ولا بتعاليم الاسلام واخلاقه، لانها على احسن المحامل تومن بأن من الاحسان للشعب الاهلى ان ترفعه الى المستوى الثقافى الذى عليه ابناء المستعمر تمهيدا لامتاعه بالمواطنة او على الاقل بالاشتراك فى انسانية تمزج الاهلى بالمستعمر وتوحدهما توحيد العبد مع السيد. وقد استيقظ المسلمون اليوم فوجدوا الاغلبية الساحقة من ابنائهم بعيدة بعدا كليا عن اية معرفة اسلامية وعن كل لغة عربية بل لقد اصبحوا فى نفس الحالة التى كان عليها الاسبانيون فى اوائل القرن التاسع والتى يصفها الاب الجارو بقوله :

«يطرب اخوانى المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها بل للحصول على اسلوب عربى صحيح رشيق، فاين تجد اليوم علماءنا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ؟ واين ذلك الذى يدرس الانجيل وكتب الانبياء والرسل ؟ واأسفاه ان شباب المسيحيين الذين هم ابرز الناس مواهب ليسوا على علم بأى ادب ولا اية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وانهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب، وانك لتراهم من الناحية الاخرى يحتجبون فى زاوية اذا ذكرت الكتب المسيحية محتجين بأن تلك الكتب غير جديرة بالتفاتهم، فواحر قلباه، لقد نسى المسيحيون لغتهم. ولا يكاد يوجد واحد منهم فى الالف قادر على انشاء رسالة لصديق بلاتينية مستقيمة، ولكن اذا استدعى الامر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع ان يعبر عن نفسه فى تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة، بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق فى صحة نظمه شعر العرب انفسهم (1)

1) جوستان جروثيام، كتاب حضارة الاسلام ص 54 (النص العربى)

أليس من نكد الدهر ان تنقلب الآية وان يصبح المسلمون اولى بتلك النعوت التي يضفيها الاب الكارو على ابناء دينه ؟ ولقد تغير كل شيء في العالم المسيحي فهل نستطيع ان نغير من امرنا كما غير المسيحيون من امرهم ؟

على ان قسما من المسؤولية في هذا الامر يرجع الى جمود بعض العلماء وعدم قيامهم بواجبهم، فالتقهقر الذي اصاب الدراسات الاسلامية وانعزال المعاهد الدينية عن مسايرة التطورات الفكرية في الشرق وفي الغرب وعدم استماع العلماء لنصح الناصحين من امثال عبده وجمال الدين ومحمد اقبال وغيرهم من المفكرين العصريين كاد ان يحدث هوة سحيقة بين الدراسات العربية والدينية المحافظة على اساليبها العتيقة ومراكزها غير المجددة، وبين الفكر الجديد الذي يتلقفه ابناء المسلمين في معاهد الغرب الكبرى مباشرة او بواسطة المعاهد العربية الجديدة التي اقصى شرفها ان تردد دروس العلماء الغربيين في غير نقد ولا ملاحظة. واذا استمر الحال على ما هو عليه ولم تقم المعاهد الاصلية بواجبها نحو العربية والاسلام، فانه لا يمر زمن قليل حتى يعم الالحاد المدن والقرى ويصبح الكل مقلدا للغرب في انزلاقه نحو لادينية هدامة .

يقول ابو الحسن الندوي من علماء الهند : (1) «يجب ان نواجه الحقيقة بفقه ووعي وشجاعة. ان العالم الاسلامي يعاني اليوم ردة دينية وفكرية وثقافية جارفة يجب ان تكون موضوع دراسة جميع من يهمهم الاسلام وعنايتهم. ان الطبقة المثقفة في كل قطر اسلامي مضطربة في العقيدة متحللة في الاخلاق مادية في التفكير علمانية في السياسة. وان كثيرا من رجالها – ان خفت ان اقول ان اكثر رجالها – لا يومنون بالاسلام كعقيدة ونظام، والشعوب الاسلامية – وفيها كل خير وكل صلاح وكل استعداد – وهي من اصلح الكتل البشرية في العالم – خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها وذكائها ونفوذها. واذا بقي هذا الوضع تسرب الالحاد والفساد الى هذه الشعوب والى الطبقات التي تعيش في البادية والقرى، وتعمل في المصانع والمزارع وسارت في طريق اللادينية والزندقة. هذا ما وقع في اوربا، وهو واقع في الشرق اذا جرت الامور مجراها الطبيعي، ولم تحل ارادة الله القاهرة»

هذه شكوى الهند. ولنستمع الى الدكتور البهي يقول من مصر : (2)

« ... وتحولت بذلك الحركات التحريرية الى حركة عزل الاسلام عن الحياة العملية العامة للجماعات المسلمة ... الى ان قال : وبجانب انفصال

1) مجلة المسلمون : عدد 5 م 6 ص 7

2) كتاب الفكر الاسلامي الحديث ص 461

موضوع الثقافة وعزله عزلا تاما عن الاسلام الذى هيأ للفكر الغربى السابق الاستشراقى والمادى، فرصة قبول المثقفين له دون ان يجدوا فى ثقافتهم التى يحملونها وفى انفسهم ما يناقش هذا الفكر حتى يكون قبولهم اياه نتيجة اقتناع وتأمل، وجد فراغ آخر فى الحياة التوجيهية العامة وهى حياة الجماهير من العمال والفلاحين وهذا الفراغ سببه عزلة الازهر عن الحياة الجارية، وهى عزلة رسمت له فى ظل الاستعمار او عاون على بقائها الاستعمار »

ويقول بعد ذلك : وكلا النوعين من الفراغ فى حياة المثقفين او فى حياة الفلاحين والعمال اتاح الفرصة لغير الاسلام فى التوجيه والتطبيق العملى فى الحياة ».

ويؤكد الدكتور البهى ان الازهر لو قام بواجبه وجعل دعوة الاصلاح السلفى تنمو فى احضانه، كان احتكاك الاسلام بالصليبية والماركسية على غير الوجه الذى هو عليه الآن ». ويمكننا ان نقول مثل ذلك عن جميع المعاهد الاسلامية فى الشرق والغرب .

واذن، فما هو الواجب ازاء هذا الفراغ ؟

الجواب بسيط وسهل. يجب ملء الفراغ بما يجب ان يملأ به.

يجب ان يعاد للمعاهد الاسلامية مركزها كمشعل لحراسة اللغة العربية وتعليم الدين والدفاع عنه، ويجب ان يقوم العلماء بمهمتهم التاريخية التى ألقاها الاسلام على عاتقهم .

وكما قام العلماء الاولون بمسايرة التطور الفكرى والابتكارات الجديدة وكما عملوا على التوفيق بين ذلك كله وبين السنية الاسلامية عن طريق الدرس والجدل، يجب ان يتجه العلماء المسلمون اليوم الى بعث معاهد الاسلام واكسائها الصبغة العصرية التى تساير التطور وتفتح آفاق المعرفة لابنائها، حتى يتكون منهم علماء يقومون باداء الرسالة الموروثة. وكما اعطت الدعوة الاسلامية فى الاول طبيعة المعرفة وطبيعة مهمة العلماء كذلك يعطينا الوضع الحاضر فى العالم الاسلامى طبيعة البعث الجديد لتلك المعرفة للغاية المقصودة منها .

ان الغاية الاولى هى عدم بقاء العزل القائم بين المثقفين والشعب وبين المعرفة الاسلامية الصحيحة والانفصال القائم بين العلماء وبين الحياة العلمية الصاعدة .

ان في العالم الاسلامي اليوم حركة تجديد قوي لمناهج الدراسة واساليبها؛ اصلاحا لما افسده المستعمر من قبل، وهذه الحركة تشمل المغرب وتونس، كما تشمل بقية العالم الاسلامي، ولكن المعاهد الاصلية تقف بين فكرة الانطواء خوفا من الكيد لها، وبين فكرة اللامبالاة التي تكاد تودي بها. وان طبيعة المهمة الملقاة على هذه المعاهد تفرض ان يكون لها مركزها الممتاز بين منارات المعرفة القومية، في الوقت الذي لها من المرونة ما يسهل عليها التغلغل في صميم الثقافة وفي صميم الفكر الوطني لاداء رسالتها الايجابية.

ان التعليم العالي الاصلي يجب ان يعنى قبل كل شيء ببعث اللغة العربية بعثا صحيحا، وبتكوين معاهد الشريعة او الفقه على الطريقة التي تمهد لقيام قانون اسلامي موحد تكون له السلطة العليا في القضاء وفي السلوك الى جانب العمل على بعث الدراسات الدينية المحض، والاخلاقية بصفة مقارنة لابتكار جدل علمي صالح لمقاومة كل تحريف او انتحال.

فأما مناهج اللغة العربية فقد اصبحت اليوم في تقدم يشغل كل انظار المربين في العالم العربي ولا ينقص الجهود المبذولة في هذا السبيل الا ان تكون موحدة وبعيدة عن كل اغراض سياسية او اقليمية. ولكن المعاهد الاصلية في المغرب ما تزال ضعيفة من هذه الجهة سواء من ناحية الاسلوب او من ناحية المادة .

ولذلك نرى من الضروري عناية المسؤولين والعلماء بشؤون اللغة العربية بكيفية تجعل المعاهد الاصلية منارا لها، ودرعا يحميها من كل تقهقر خصوصا في هذه المرحلة التي ما تزال مشكلة التعريب فيها صعبة الحل، بعيدة المنال للاسباب التقنية التي يعرفها الجميع .

واما معاهد الشريعة فارى ان يدرس فيها الفقه الاسلامي على الطريقة التي خطها الدكتور عبد الرزاق السنهوري، (1) وهي :

الاساس في هذه الدراسة ان تكون دراسة مقارنة فيدرس الفقه الاسلامي في ضوء القانون المقارن ويعنى في هذه الدراسة بأمرين جوهريين:

اولهما ـ ان تدرس نشأة الفقه الاسلامي دراسة دقيقة، فيبحث كيف تكون هذا الفقه على مر الزمن، وكيف تطور وبخاصة في العصور التي سبقت عصر المذاهب الكبرى الاربعة .

والامر الثاني ـ ان تدرس مذاهب الفقه الاسلامي المختلفة التي منها الشيعي والخارجي والظاهري، وغير ذلك من المذاهب، دراسة مقارنة

---

1) العالم العربي ج 2 ص 23

لنستخلص منها وجوه النظر المختلفة ولتتركز هذه الوجوه فى تيارات من التفكير القانونى ثم تتبلور فى اتجاهات عامة وتستكشف من كل هذا قواعد الصناعة الفقهية الاسلامية ثم تقارن هذه الصناعة بصناعة الفقه الغربى الحديث، حتى يتضح ما بينهما من الفروق ووجوه الشبه، وحتى نرى اين وقف الفقه الاسلامى لا فى قواعده الاساسية ومبادئه، بل فى احكامه التفصيلية وفى تفريعاته، فتمتد يد التطور الى هذه التفصيلات على اسس تقوم على ذات الفقه الاسلامى وطرق صياغته واساليب منطقه، وحيث يحتاج الفقه الاسلامى الى التطور يتطور، وحيث يستطيع ان يجارى مدنية العصر يبقى على حاله دون تغيير وهو فى الحالين فقه اسلامى خالص لم تداخله عوامل اجنبية تخرجه عن اصله .

ومن ثم تكون موضوعات البحث الاساسية فى دراسة الفقه الاسلامى هى :

1 — تاريخ الفقه الاسلامى وبخاصة قبل عصر المذاهب.

2 — اصول الفقه الاسلامى، على ان يعاد البحث فى النظرة التقليدية لهذه الاصول.

3 — مقارنة مذاهب الفقه الاسلامى المختلفة فيما بينها .

4 — مقارنة الفقه الاسلامى بالقوانين الغربية الحديثة

ويرى الدكتور السنهورى انه لابد لهذه الدراسة من معهد خاص يتوفر على الاسباب الرئيسية لنجاحها، من اساتذة يتخصصون لها، ومراجع يتعاون بها، وطلاب يتفرغون لهذه الدراسة. ويؤكد الدكتور ان الغاية من دراسة الفقه الاسلامى هى تجديد شبابه لينبثق القانون الحديث من الشريعة الاسلامية، على ان يكون هذا القانون الحديث فى منطقه وصياغته وفى اسلوبه فقها اسلاميا خالصا. والواجب ان تدرس الشريعة الاسلامية دراسة علمية دقيقة وفقا لاصول صناعتها ولا يجوز ان تخرج على هذه الاصول بدعوى ان التطور يقتضى هذا الخروج .

واما الدراسات المتعلقة بالاخلاق وبالعقيدة فيجب ان يؤسس لها معهد خاص ايضا تكون له اقسام : قسم للعقيدة، اصلها وحججها العقلية والنقلية، ومذاهب المتكلمين وطريقة دراساتهم المختلفة ومقارنتها بالفلسفات القديمة والحديثة وبالفلسفة التجريبية بصفة خاصة، وقسم للاخلاق من جهتها الواقعية والاجتماعية، وعلم الاجتماع الدينى ومقارنته لمختلف النظريات الفلسفية

والاجتماعية، وقسم الارشاد والتوجيه، ويعنى بطريقة التبليغ وتربية السلوك الى دراسة لعلم النفس والاجتماع واساليب الاقناع الحديثة .

واذا كان الطلبة في اعدادهم الثانوى متهيئين من الناحية العامة تهيأ صحيحا لدراسة هذه المناهج فانهم لا يلبثون ان يعيدوا للعالمية الاسلامية مركزها اللائق بها، ولا تلبث المعاهد الاصلية ان تكتسى حلتها القشيبة التى كانت لها بين مختلف معاهد العالم .

ولكن المعاهد الاصلية بحاجة ـ اكثر من البرامج والمناهج ـ الى ايمان القائمين عليها برسالتهم في تكوين جيل جديد يضطلع بمهمة الدعوة الاسلامية واصلاح ما افسده العصر وظروفه من شؤون الدين. وهذا التكوين لا يقم بمجرد المعرفة وجودة الفكر، بل لابد من ان يصاحب ذلك سلوك اسلامى صحيح يتربى عليه الطلبة ويعطى به العلماء قدوة حسنة، لان التربية بالحال اصدق من التربية بالمقال .

ان رسالة القرويين والمعاهد الاسلامية عظيمة جدا، وهى ليست فى تقوية المرتبات ولا فى اضافة العلاوات، ولكنها فى قيام العلماء بمهمة الدعوة واعداد انفسهم لها عن طريق المعرفة الصحيحة، ومسايرة التطور والتمسك بالحق، ومقاومة كل جمود وجحود.

ان هذه الرسالة ضرورية لكل بعث اسلامى وعليها يتوقف الاتجاه المغربى نحو الاسلام، وكل تقصير فى هذه الجهة سيضر بالمجتمع المغربى وعسى ان يوفق الله علماءنا واولى الامر منا الى اداء هذا الواجب والتحرر من تبعته. وذلك هو المظنون .

طنجة 25 شتنبر 1959

عبد العزيز بنعبد الله

الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب

انتشرت فى القرن الماضى بالديار الغربية نظرية كان لها تأثير فى توجيه الدراسات الادبية وتكييف مناهجها وصبغ البحث عن شاعر او اديب او عالم بصبغة العصر الذى عاش فيه ذلك الشاعر او ذلك الاديب او ذلك العالم حتى صار من لوازم الدقة ومقتضيات الاستقراء رسم صور واضحة عن شتى مظاهر العصر ومختلف مجاليه، ولعل من ابرز الفلاسفة الذين طبقوا هذه النظرية فى اوربا رجلا كان له اتصال وثيق بالاساليب العلمية التجريبية لاسهامه فى مختبراتها اسهاما مباشرا، وهذا الرجل هو تين Taine الذى سيطرت عليه فكرة طبيعة تأثر الاديب بالجو الذى عاش فيه بيئة وجنسية وعصرا حتى اطلق لفكره العنان خلال بحوثه الادبية والفلسفية فى استقصاء الظروف الطبيعية والسياسية، وكذلك الملابسات الاجتماعية والعلمية التى احاطت بالاديب او الفيلسوف الذى يترجم له، فجاءت دراساته عبارة عن دراسة امم وعصور لا دراسة افراد .

وقد يكون فى هذه النظرية حظ وافر من الاصابة، ولكن تطبيقها على هذا النحو من التطرف قد يعكس النتيجة ويشغل الفكر بمظاهر لا صلة لها بحياة ولا بنفسية الشاعر او الاديب، على اننا نجد فى كل عصر من العصور اشتاتا من الناس تأخروا عن عصرهم او تقدموه، اننا نجد فى القرن العشرين رجالا يعيشون فى اطار ضيق اجدر بالقرون الوسطى كما نعثر فى ثنايا الاجيال الغابرة على افراد غلب على افكارهم وشعورهم طابع اشبه بالطابع الحديث .

اذا كان الادب ينبوعة النفس وكانت النفس تستمد جزئيا من جبلتها الاولى التى فيها مقادير مشتركة بين البشرية، فان نتاج الاديب يكون بطبيعة الحال موسما بميزات انسانية مشاعة بين جميع العصور والافراد، كما يكون

مطبوعا بخصائص ترجع الى طبيعة هذه النفسية التى قد يؤثر فيها المحيط الخارجى نوعا من التأثير ولعل هذا التأثير يقوى ويضعف تبعا لقرب ذلك المحيط وبعده فالجو العائلى يعكس فى نفس الصبى خواطر قد تلازمه الى الابد وتنتقش فى مرآته الباطنيــة انتقاشا لازما لا تمحوه الطوارئ مهما تكن قوتهــا، فاذا كانــت الام او الاب مشبــعا احدهما او كلاهما بفكرة صوفية او لادينية فان اثر هذه الفكــرة قد يكيف اتجاه الابن فى جميع اطواره الحيوية ومراحله المعاشية .

ومع ذلــك فان للظروف والاحداث الطارئة نوعا من التأثير يجب ان لا نغفله اذا اردنا ان نستكمل ضروب العوامل التــى تتواطأ على خلق الاديب او الفيلسوف .

ولنضــرب لذلــك مثلا برجل عاصــر ابــن الخطيب ما بين سنتى 713 و 745 هـ. وولد كلسان الديــن فى غرناطــة او ما جاورها من ارباض قريبة حيث تسيطر نفــس الطبيعــة ونفس المنــاخ وتؤثر نفس الظروف والعوامل الخارجية وذلك الرجل هو اثير الدين ابو حيان البربرى .

فقد كان الرجلان رغم وحدة المنبت على طرفى نقيض فى امور شتى كما كانــا فرسى رهان فى امور اخرى قد يكون للظــروف المشتركة يد فى تكييفــهــا .

كان كلاهمــا بوتقة للحيوية الفياضة والنشاط العلمى الغامر ودائرة معارف تتكامــل عناصرهــا واميــرا استقــل بالنفوذ فى منحى من المناحى العلمية والفكرية، وقد تعادلــت مؤلفاتهمــا عدا علــى وجه التقريب وتفتقت شاعريتهما فى الغزل والموشحات يجرى دمع ابى حيان عند سماع الاشعار الغزلية كما تترنح اعطاف لسان الدين اذا استشــف نسيبا رقيق الحواشى وتشبيبا سيال الاطراف .

ولكن رغم هذا كله نلحــظ فى نفسية ابى حيان طابعا خاصا لا ندرى هل يرجع لارومته البربرية ام لظروف مخصوصة عجنت طينته ذلك العجن الغريب ؟ فهو بالعكس من لسان الدين فرور متطرف من الفلسفة يحنق على مــن يتعاطــى علوم الاوائــل ويستنكر الخوض فى المسائل الالهية والقضايا الميتافيزيقية، سيء الظن بالناس فخور بالبخل تتركز نظرياته الاخلاقية على مبدأ مجاملة الناس مع التحفيظ والتحــرز من العدو والصديق على حد سواء وشهود دوافع الغــرض فى كل شيء حتى فى ذلك الاندفاع الطبيعى الــذى يشعر به الاخ نحو اخيه والصديق نحو صديقه .

فلعل طبيعة غرناطة الغناء قد اسهمت في تكوين شاعرية الرجلين ووجهتها نحو الحب والنسيب كما اسهمت في انبثاق نزعة الانبساط وروح الدعابة في مزاجيهما، ولكن رحلة ابي حيان الى الشرق فتحت آفاقا جديدة لم تتيسر لمعاصره لسان الدين فاتجه في حياته اتجاها مغايرا لاتجاه ابن الخطيب واندفع يدرس اللغات الشرقية من تركية وفارسية وحبشية ويصنف فيها تصنيف العارف الخبير واصبح شيخ النحاة وامير المحدثين، وقد يكون لاصله البربري فيما لاحظناه من شذوذ وتشدد ومن تطرف في سوء الظن لان العرب الذين وردوا على الاندلس تضاربت مطامحهم زمنا ما، مع مطامح البربر فخلف ذلك التضارب نوعا من الاحتراس المتبادل تمكن من نفس ابي حيان وجعل فيها هذا الخلق الشاذ طبيعة مستصحبة، ولعل تلك الرحلة الى الديار الشرقية كانت هي العامل في كثير من التقلبات النفسية في حياة ابي حيان فقد تمذهب خلالها بمذهب الشافعي بعد ان رفض آراء الظاهرية التي دان بها زمنا وافاد من اتصاله بشمس الدين بن تيمية سلفية صارمة في العقيدة ونفرة من تأولات الفلاسفة .

ذلك انموذج حي يتبين منه مدى تأثير البيئات المتقلبة والظروف الاصلية والطارئة في التكوين الخلقي والفكري، فان نشأة لسان الدين في وسط موسوم بحسن السمت وكمال الوقار ونقاء العقيدة ووفير الصلاح قد طبعت نفسه منذ الطفولة بذلك الطابع الروحي الذي ما فتيء ينمو ويترعرع حتى صار يتجلى بين الآونة والاخرى في شكل نزوع صوفي تطفح به نفس ابن الخطيب عند اشتداد الملمات وكانت عوامل مختلفة تتفاعل لتنمية هذه الروح الجذابة في طبيعة الرجل ولعل الاحداث التي كانت تعكر صفو حياة ابن الخطيب احيانا في ميدان السيف والقلم ومؤامرات القصر التي توالت مشاهدها المؤلمة امام ناظريه والاحابيل التي نصبها له اعداؤه الكثيرون والانقلابات التي فرقت بينه وبين ذويه ردحات من الدهر ــ كل ذلك تواطأ على تجلية هذه النزعة الروحية التي طغت عليها نعومة الحياة ورغد العيش واجتماع الشمل واسكنت نداءها الفطري الخافت أزمنا مديدة ومن خبر آثار الانفعالات النفسية لم يستغرب هذه التحولات الروحية التي تخلق في الرجل الموتور شخصية جديدة في فكرتها ووجهتها جديدة في ذهنيتها وعقليتها، جديدة في كل شيء يمت الى صميم الذاتية وعميق الفردية حتى ينقلب شهود الذات الى انكار والانانية الى ايثار والجحود الى اقرار والانقطاع الى تواصل واستمرار، وقد يكون ذلك الهوى الذي «خاض ابن

الخطيب غماره واجتنى ثماره واقام مناسكه ورمى جماره، قد انقلب ـ بعد الشعور الطارىء الذى غمر نفسه وكشف لها عن تفاهة هذا الهوى ـ الى حب علوى تغلغل فى قرارة الروح فاثار الوجدان وخلص العقل من شوائب الغرض وجواذب المادة، وهكذا ادى الحب الجسمانى بابن الخطيب كما ادى بابن الفارض الى رحاب المحبة الالهية التى هى غاية الارادات الفطرية ومرماها

تعوضت حب الله عن حب غيره ... ألفت طريق الحب حتى اذا انتهى
برق تألق موهنا لمعانه ... وبداله من ما اندمل الهوى

كيف لا وقد صاح لسان الدين بعد أن تامل محاسن الجسوم قائلا «ما أكذب رائدها المطرى واخبث زخرفها المغرى واقصر مدة استمتاعها واكثر المساعى تحت قناعها.. أليست الداعية مرتفعة والباعثة منقطعة وصورة الحسن دائرة واجزاؤها المتناظمة متناثرة ؟ أليس الجواب العنصرى عائدا الى اصله ؟ أليس الجنس مفارقا لفصله ؟ .. ما ثم الا انفاس تركد وتخبث وعلل تنشأ وتحدث وزخارف حسن تعاهد ثم تنكث وتركيب يطلبه التحليل بديته ويأخذ اثره بعد عينه وأنس يفقد واجتماع كان لم يعقد وفراق ان يكن فكان قد» .

كل هذه عوامل جزئية ومؤثرات منفصلة قد يتأتى لاجتماعها فى عصور اخرى غير عصر ابن الخطيب ويتمخض تفاعلها عن تكييف خاص لنفسية الفرد وتوجيه قاهر نحو المرامى الروحية، فقد تدفع الازمات والحروب طوائف من الناس نحو الحياة الصوفية التى يجدون فى ربعها طمأنينة تغمرهم بزلالها المنعش فتعود الارواح بعد خلاصها من جلبة العالم وضوضائه الى سكينتها الفطرية التى تتفتح فى بحبوحتها آفاقا علوية خلابة وقد تستتب هذه النجوة العابرة ويتطاول امرها فتنتقل من حالها الخاطف الى مرحلة قارة لا تلبث ان تصير مقاما من المقامات الصوفية المرموقة، فابن الخطيب قد اعتراه السأم من ضجة السياسة وضوضائها، فعمد الى هدوء العزلة ينهل من رقراقها فما كان منه الا ان استساغ طعمها واستمرأ لذاتها فانقلب الشوق الى ذوق ...

على ان هذه الروح قد سادت فى عصر ابن الخطيب اوساطا كثيرة تملكها الملل من تقلبات السياسة وغوائل الحروب بين الولايات الاسلامية التى تصطدم تارة بعضها مع بعض وطورا مع كتائب المسيح، فاذا كان لكل عصر روح تسوده، فان عصر لسان الدين قد سادته روح السآمة والملل

من التضارب على المادة وتهالك الافراد والجماعات على المتاع الزائل والاعراض العابرة حتى ود الكثيرون من اهل هذه الفترات المضطربة لو اتيح لهم القبوع والانطواء والتبتل والانزواء فرارا من الفتن المتوالية التى احاقت بهم والنكبات التى تعقبت المسلمين شر متعقب، ولا شك ان النفس تصير فى هذه الازمات سلسة القياد للنزوع الفطرى السليم الذى يوجهها اين شاء وكيف شاء .

ولعل تلك الحركة الصوفية التى تجلت فى مناظرات جدلية حول الطرقية والمشيخة والارادة كانت وليدة هذه الروح (1) .

ما هى علاقة الفلسفة بالاخلاق فى نظر ابن الخطيب ؟ هل الاخلاق جزء من الفلسفة ام هى علم مستقل يستوثق رباطه بالشرع اكثر من العقل ؟ لنا ان ندعى ان نظرية ابن الخطيب اقرب الى الحل الثانى منها الى الحل الاول بدعوى ان الرجل حشر فى الروضة ما يسميه «بعلم التخلق ومكارم الاخلاق وطرائق الصوفية» فى سلك العلوم الشرعية

ولكن اذا كان ابن الخطيب يعتبر الاخلاق حقا من الشرعيات فما باله يركز هذا العلم على قواعد ومقررات فلسفية ؟ انه يتحدث فى سياق تعاريفه الخلقية عن العقل ولكن ما هو العقل ؟ اننا لا نعرفه ولا هو كذلك وكلنا فى احتياج للرجوع الى الفلسفة نستشف من بحوثها حقيقة هذه اللطيفة، وما قلناه فى العقل نقوله فى النفس، وقواها وفى الروح والقلب .

والحواس الخمس ؟ ألم يشر اليها ابن الخطيب فى القسم الخلقى من كتابه الروضة دون ان يعرفها ويبين ماهيتها وخصائصها ؟ والحب الذى يعتبره اساسا للاخلاق ؟ أليست ماهيته من الحقائق الفلسفية التى طالما حاول علماء النفس استكناهها ؟

الحقيقة ان ابن الخطيب وان كان يدمج الاخلاق فعليا فى الشرعيات ـ الا انه يضطر فيرجع الى الفلسفة يستفسرها عن ماهية بعض القوى وبعض آثار هذه القوى، وهذا كاف فى نظرنا لان نقول بان ابن الخطيب لم يخرج عن سنن جمهور الفلاسفة الذين يرون ان الدراسات الاخلاقية ـ كعلم له اصوله وقواعده ـ تعتبر جزءا لا يتجزأ من الفلسفة .

1) نجد اثرا لهذه الحركة فيما كتبه ابن خلدون جوابا عن سؤال ورد على فاس من عدوة الاندلس وذلك فى كتابه المخطوط الموجود بالخزانة الزيدانية بمكناس والمسمى «بشفاء السائل عن جملة المسائل» وقد اشار ابن عباد فى رسائله والشيخ زروق فى قواعده لهذه الضجة التى قامت فى القرن الثامن حول الطرقية والمشيخة

بـل انا نذهب اكثر من هذا فنؤكد انه اذا ما اعتبرنا ان ابن الخطيب كثيرا مـا يمـزج فـي الروضـة بين مختلف العناصر الفلسفية والصوفية والخلقية دون حد فاصـل ولا ضابـط مميز - أمكننا ان نقول بأن الفلسفة والتصوف والاخلاق كانـت في نظر ابن الخطيب متقاربة رغم اتصال بعضها - كالتصوف والاخلاق - بالشريعة من جوانب مخصوصة، ولعل ابن الخطيب لم يكن مذهبه يعـدو المذهـب الكلاسيكـي، وانما حمله على عدم التصريح باندراج الاخلاق في علم الفلسفـة تفاديـه تهييج شعور الشعب الاندلسي الـذي بغـض علمـاء الديـن الفلسفـة اليه بما رسموه من صور قاتمة عن الحاد الفلاسفة وزندقتهم، وهـل يعنى ابن الخطيـب ان يشرح للناس ان الاخلاق جزء من الفلسفة او ان الفلسفة جزء من الاخلاق ما دام همه مصروفا لشيء واحـد وواجبـه العلمي محصورا في نطاق محدود وهو غرس الفضيلة في النفـوس ؟ لشد مـا برهـن ابن الخطيب على انه رجل العمل والتطبيق رجل النظر والشكليات .

وما يدريك لعل هذا المزج الذي اعتدناه فلم نر فيه دليل وحدة الماهية - ناتج عن كون ابن الخطيب يحشر الاخلاق والفلسفة والتصوف في فصيلة واحدة رغم ما قد يكون فيها من عناصر متنافرة .

وليس ذلك ببدع لان لفظتـي - الاخـلاق والفلسفة - تكادان تكونان مترادفتيـن فـي الاصطلاحات الجارية على السنة العلماء المحدثين، فقد أكد اندري بريد (A - Bridoux) في مقدمة كتابـه الاخـلاق (Monale-Hachelte 1945) بعد ما لاحظ هذا الترادف قائلا «اليست الفلسفة في نظر كل واحد من الناس هي تقدير الخيرات والشرور حـق قدرهـا ؟ أليس موضوع هذا التقدير هو تنظيم رغائبنا ومخاوفنا وحسراتنا وتعزيز قوى النفس والتزام سيرة خليقة بالرجل في ثنايا جميع المحن والنكبات ؟

اما كون ابـن الخطيـب يعتبر الاخلاق علما فهذا مما لا شك فيه، لانه يعبر عنها صراحـة «بعلـم التخلق» بل انه يذهب ابعد من ذلك فيحاول ان يثبت لهـذا العلم - بتطبيقاتـه العلمية - صلته الطبيعية بعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الجمـال، بـل بالفنـون نفسـها، والا فما باله يدرج في سلك نظرياته الاخلاقية فنـون الشعـر والموسيقـى والغناء محاولا تحليل دقائقها النفسانية ؟ الحقيقة ان ابن الخطيب ادرك كغيره من الفلاسفة وفي مقدمتهم - باكون وديكارت - ان العلوم توجهنا فـي افعالنـا واحوالنا بما تكشفه لنا من اسرار الحياة، ومن البديهي ان معرفة الوظائف النفسانية ضرورية لكل

عمل بشرى لاننا اذا لم نتعرف ماهية هذه الوظائف التى هى من اهم ضوابط افعالنا وقعنا فى غمرة من اخطر الغمرات .

وقد نجد هذه الصلة عند ابن الخطيب فى مثل وثاقتها عند ابن خلدون الذى درس الاخلاق على ضوء الاجتماع وتطورات المجتمع، فرأى لحياة البداوة الاولى خلقا يخصهـا، ولحيـاة الحضارة تكيفا نفسانيا يناسبها، ولعل ابن خلدون فى هـذا الامـر اقـرب الـى سـان سيمـون
الذى اسس برنامجه الخلقى على مبدأ تطور المجتمعات من الحالة العسكرية الى الحالة العلمية والصناعية .

ونسير ابعد من كل هذا فنثبت ان لسان الدين يرى ـ ككثير من علماء الاخلاق المسلمين ان لكل علـم آدابـه اى هيئات نفسية تقتضى دراسة هذا العلم التكيف بها، ومعنـى هذا انه لا يوجد للاخلاق علمها فحسب كما يقول دور خايم (Durkheim) بل للعلوم كذلك اخلاقها كما يقول سبنسر (Spencer) اما يتطلب العلم الاخلاص والاستقامة والصبر والدقة والاحاطة والكمال وكلها مثل سامية وفضائل خلقية ؟ وذلك المجهود الذى يبذله الانسان من اجل احراز درجة الكمال فى العلم ؟ الا ينطوى هو ايضا على معنى خلقى رفيع ؟

ولم يغفـل ابن الخطيـب حقيقة اخرى وهى ان للاخلاق جانبين جانب فنـى وجانـب علمـى، فالجانب العلمى يتجلى فى تحرير القواعد وتقريـر الاحوال بينما يتركز الجانت الفنى على جودة تطبيق هذه القواعد والاحوال من اجل رفع المستوى الخلقى وتحسين الاحوال النفسانية عند الفرد والمجتمع

ونحن اذا ارتفعنا من التفصيل الى الاجمال ومن الخصوص الى العموم والجزئى الى الكلى ـ علمنا ان علاقة العلم بالاخلاق لا تعدو ـ فى نظر ابن الخطيب ـ علاقة العلم بالعمل، ولعل هذا هو معنى ما اشار اليه ديكارت عند ما اكـد (3e partie-Discours de la Meth) انـه يكفى ان نقـدر الاشياء حق قدرها لتحسن اعمالنا وتتهذب افعالنا وعند ما قال (Préface de Principes) ان الاخلاق لا يمكن ادراكها الا بعد الكشف عـن جميع اجـزاء العلم وانه ينبغى اعتبار علم الاخلاق كاكليل لغيره من العلوم (1)

ولكن ما هو مصدر هذه المعرفة البسيطة التى يجعلها ابن الخطيب دعامة للاخلاق ؟ هل هو العقل ام تلـك الفطرة الربانيـة التى جبل عليها الانسان والتى تنبثق من قـرارة طبيعتـه فتحفظه، مـن الهفوات التى قد تدفعه الى ارتكابها مداركه العقلية ؟

Bridoux P. 4 (1

الغريب هو ان ابن الخطيب الذى يعتبر المعرفة اساس الفضيلة الخلقية يرى ان الفطرة هى الينبوع الفياض بحجة «ان العقل لا يهدى الى الافعال المنجية كما لا يهدى الى الادوية، المخلصة من الامراض وان الفطرة السليمة قد تغنى عن الصنائع والعلوم.

ولكن هذا هو نفس ما يراه الفيلسوف الفرنسى روسو (Rousseau) الذى يقيم حاجزا بين العلم والاخلاق غير ان ما يسميه ابن الخطيب بالفطرة السليمة يسميه روسو - ويعبر عنه فى مواضع كثيرة على الاقل - بالضمير ولعله اختلاف فى التعبير فقط لان الضمير لا يمثل عند روسو سوى غريزة الاهية .

وهذا هو ما يرتئيه كذلك الفيلسوف كانط (Kant) الذى تأثر بروسو واتسق هذا التأثر العلمي بتأثره الفطرى بامه التى كانت قليلة المعرفة ولكن صارمة ملحة فى شعورها الخلقى

فهل معنى هذا ان ابن الخطيب كان يعتنق فى آن واحد مذهبين متناقضين تتشيع لكل واحد منهما مدرسة خاصة ؟ لاشك انه ليس هنالك تناقض لان نظريات لسان الدين متماسكة لا نجد فى آخرها ما يتنافى مع اولها ولكن لعل ذلك العقل الذى يشك ابن الخطيب فى قدرته على هداية المرء وتخليصه من براثن المادة وعلاج نفسه من ادوائها المستعصية هو ما يسميه «كانط» نفسه بالعقل النظرى، اما العقل بمعنى التعقل والتميز اى الادراك البسيط للنسب القائمة بين الاشياء فهو شيء ضرورى الوجود وفقدان الانسان له معناه تجرده عن انسانيته .

فهذا العقل يتناسق مع الفطرة فى عملها الطبيعى ولا ينافيها لانه متمم لها بل اساس ودعامة .

وكانط نفسه يترك فى الحاجز الذى اقامه بين العلم والاخلاق منافذ تتخللها عناصر مختلفة وتتسرب فى ثناياها من الطرفين، فاذا كان «كانط» يربط العلم بالعقل النظرى والاخلاق بالعقل العملى والفلسفة التطبيقية فانه لا يمارى فى وجود لحمة بين العقلين كما لا يمارى طبعا فى وجود صلة ما بين العلم والاخلاق .

وهنالك نوع من المعرفة يعتبره ابن الخطيب لزيما للكمال ويجمعه مع هذا الكمال فى اعلى درج سلم السمو الانسانى وهذا النوع هو معرفة «العارف» الذى يدرك جوهر نفسه وكيف تصير عقلا بالفعل ويتخلص من كدورات الطبيعة ويتجرد عن جميع العلائق القاطعة عن السبب الاول ويكمل

جوهرها كما تحب فيتسم معراجها الاول «ويتمم ويخلص الفطرة الناقصة بعلم اعلى من العلوم المكتسبة ويعلم النفس وعللها ولا يترك شيئا من الصنائع العلمية والعملية التي تعطى تدبير الانسان الا نظر فيه وحصله واتصل به ثم حمل من المشقات التي تحصل اكتساب الصنائع المذكورة ويبحث عن حقائق الموجودات حتى يقف على ماهيتها ويفكر في مبدع الخلق وينظر في الذي يجب له ويجوز ويستحيل ويطلب القرب منه والوصول اليه بالعلم لا بالتجوهر» هنالك «يستقيم ويبلغ كمال الانسانية»

فهذا النوع من المعرفة يعتبر هو والكمال فرسي رهان والطريق التي تؤدي ليهما واحدة .

ونحن نستشف من هذا الاتجاه في مذهب ابن الخطيب طابعا افلاطونيا لان الفيلسوف الالهي افلاطون يرى ان الرياضة التي تمارسها النفس من اجل الوصول الى الكمال هي في نفس الوقت مرتقى يؤدي الى الحق والى الخير لان استكناه الحقيقة من خصائص النفس الطاهرة .

وقد نجد في فلسفة ديكارت Descartes تناسبا بين اخلاق كاملة وعلم مكتمل ولكن نوع العلم يختلف عند الجانبين فبينما نجد ابن الخطيب يغلب عليه الطابع الالهي اذ بنا نرى ديكارت يقصد بالعلم عموم المعرفة .

وليست هذه النظرية مقصورة على ديكارت، فان فلاسفة القرن الثامن عشر ميلادي اجهدوا انفسهم في ابراز الصلة الضرورية بين تفتق العقل واكتمال الحاسة الخلقية (1) .

وقد وجد ابن الخطيب في بعض الفلاسفة الاوربيين مشايعين له في حصر التلازم العلمي والخلقي في معرفة مخصوصة مجردة عن الصبغة المادية الصرفة ومن هؤلاء الفلاسفة الاوربيين مشايعين له في حصر التلازم العلمي والخلقي في معرفة مخصوصة مجردة عن الصبغة المادية الصرفة ومن هؤلاء الفلاسفة بروكسن Pregson الذي خلف لنا صفحة رائعة في رسالة التشكر عن جائزة نوبل فقد اكد ان اهل عصره يعتقدون بأن الاختراعات الالية تكفي ـ لمجرد تراكم «اثارها المادية ـ لرفع المستوى الخلقي واسعاد البشرية، ولكن التجربة تدل على ان تطور الآلات الصناعية لا يتمخض عن الفضيلة ولا عن السعادة بل تبرهن على ان توافر الذرائع المادية في قبضة الانسانية من شأنه ان يسفر عن اخطار اذا لم يرفق بمجهود روحي يناسبه(2)

Bridoux P. 11 (1

Bridoux P. 12 (2

وليس تلازم المعرفة والكمال بالشيء البدع الغريب، لان حقيقة الانسان التى يهدف العارف الى استكناهها ليعرف ربه تندرج فى كماله، فالانسان كما يقول موريس بلونديل لا يكون مطابقا لحقيقته ولا يسبر غور نفسه الا اذا اجتهد فى انتجاع الكمال

مصادر ابن الخطيب

لا يمكننا ان ندرس نظريات ابن الخطيب فى الاخلاق دون ان نربطها ربطا محكما بنظرياته في التصوف لما بين هذين الشعبتين الفلسفيتين من اتصال وثيق فى مؤلفات ابن الخطيب لاسيما منها «روضة التعريف بالحب الشريف» حيث حشر «علم التخلق وطريق الصوفية» في حلقة واحدة لدى ترتيبه للعلوم وما بالك برجل يستمد وجهته الخلقية ويدعم نظرياته فى السلوك الفردى والاجتماعى بأقوال الجنيد والحسن البصرى والشافعى وعبد الله بن سهل وابراهيم بن ادهم وابى نصر السراج ورؤيم والحلاج وابن العريف وابن الفارض مستلهما منهم تقسيماته وتراتيبه للاحوال والمقامات الروحية التى ليست سوى باطن للمجالى الخلقية الظاهرة ؟ على ان ابن الخطيب لم يكتف بالسير على غرار الصوفية الاقدمين بل استمد فى نفس الوقت من الفلاسفة الاوائل وزملائهم الاسلاميين وبالاخص الشيخ الرئيس ابن سينا الذى بلغ اعجابه بـه حدا بعيدا ــ ومن الادباء كأبى الفرج بن خلصون وابى الفرج بن الطيب البغدادى، ومن الشعراء كالمتنبى فى حكمياته وابى العلاء وابى العتاهية فى زهدياتهما وقد نجد بعض آثار ذلك ظاهرا بين ثنايا كتبه .

ولكن ليس معنى هذا ان مصادر ابن الخطيب وينابيع استلهامه محصورة فيما ذكر فانه استمد لباب اخلاقياته من آداب القرآن والسنة التى بعث صاحبها عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الاخلاق كما افادته تفاريع الفقه الذى تأثر ــ تأثر الغزالى ــ بتقاسيم احكامه.

وابن الخطيب قد قرأ واستفاد من كتب لم يشر اليها صراحة فهو ينقل فى سياق بحثه ويدمج في تضاعيف كلامه امثالا وحكما ومقالات ينسبها لبعضهم مكتفيا بهذا العزو الغامض، ولعله اختصر رغبة فى الايجاز او انبهمت عليه ــ لكثرة ما قرأ ــ بعض المصادر فاضطره ضيق الوقت لعدم التبسط فى مراجعتها واثباتها ولا شك عندى ان كتب الاحياء وميزان العمل

وكتاب الاربعين ومنهاج العابدين (1) والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك للغزالى كانت من بين هذه المصادر كما انه لا يبعد ان يكون من جملتها ايضا ادب الدنيا والدين للماوردى وكليلة ودمنة (2) والادب الكبير والادب الصغير لابن المقفع وتهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق لابن مسكويه والشفا للقاضى عياض ورسائل اخوان الصفا وكذلك الرعاية للمحاسبى والرسالة للقشيرى والقوت لابى طالب المكى .

ولا مناص لمن يدرس نظرية لسان الدين فى الاخلاق ان يطلع على جل ما وصلنا من كتبه وان كان سيعثر على كثير من التكرار والترديد فى ثنايا هذه الكتب، ولعل اهم مصدر ينبغى الاعتماد عليه بعد «الروضة» هو شعر ابن الخطيب فقد كان الكثير من هذا الشعر مرآة انعكست عليها خلجات نفس الرجل وانظاره الفلسفية والصوفية فى الكون والوجود والحب والجمال ومع ذلك فان ابن الخطيب لا يخلو من حكم وامثال يتألف من مجموعها جزء من هيكل الفلسفة الخلقية الخطيبية، زد على ذلك ان لتجارب ابن الخطيب الشخصية ـ ولتجارب بعض شيوخه كابن هذيل وابى القاسم اللوشى وابن مرزوق وكذلك بعض تلاميذه كابن خلدون ـ يدا فى بناء هذا الهيكل المتناسق الاجزاء .

اسلوب ابن الخطيب

لا ينتظر ابن الخطيب سنوح الفرصة الجدية لادماج الحكم السامية فى سلك كلامه فهو يرسل الامثال السيارة ويبث فى القارىء ارشادات ونصائح بمناسبة وبغير مناسبة ويستخلص من كل حادث تاريخى حكمة ومن كل واقعة وجهة ومن كل ترجمة صالحة انموذجا للفضيلة ومثالا للاستقامة والكمال وما بالك برجل يتخذ قصائد المدح والذم والفخر مطايا للاعراب عن آرائه فى ادق المسائل واهم القضايا ؟

وله طرائق فى الكتابة ومناهج فى البحث تختلف باختلاف المواضيع فهو اذا تحدث عن الحب والجمال اسمعك من قيثارته ما يتملك ومن نايه ما يشجيك وغمرك بفيض منعش من فنه البديع يسحرك بسجعاته المتجاوبة

1) نقل الزبيدى عن المسامرة لابن عربى انه ليس له وانما هو لابى الحسن على بن خليل السبتى

2) والذى يدل على ان ابن الخطيب عرف هذا الكتاب انه جعله مضرب المثل فى قوله :

قلت لما استقال مولاى زرعى ... ورأى قلة الطعام قليلة
دمنتى لانتجاعى لحرث كلت ... فهى اليوم دمنة وكليلة

وراعك بتعمقه ـ رغم الابداع الفنى ـ فى الملاحظة والوصف والتحليل لارق خطرات النفس وادق خلجات القلب واذا كتب فى التصوف اثار العاطفة والوجدان وحرك اوتار الكيان واهاج الخفقان، واذا كتب فى الفلسفة اسلس قياد العقل لمنطق بيانه وسحر لسانه ودامغ حجته وناصع برهانه وهو فى ذلك كله جزل وديع يرسل النبرات فى خفة ورشاقة ويتحرى الوضوح ويلتمس ابلغ السبل نفوذا الى الفكر المجرد وانجعها على انه قلما تنتظم ظواهر الايجاز والجزالة والجلاء فى اسلوب ولكنها توفرت كلها عند ابن الخطيب الذى تجرد اسلوبه من ذلك الجفاف الملحوظ غالبا فى البحوث الفلسفية والتحقيقات العلمية .

وليس ذلك ببدع من رجل غلب عليه الطابع الادبى ورقت شاعريته وشعوره فسكبها زلالا رقراقا فى كل شىء حتى فى المناظرة والجدل وابدع ما يثير الاعجاب فى عبقرية ابن الخطيب هى تلك السعة النادرة والغزارة الفياضة التى تجعله يحيط بالموضوع من جميع جوانبه ويحدق من كامل اطرافه ويلم منه ما تناثر وتبعثر دون ان يحيد عما تحراه من ايجاز والتزمه من دقة ووضوح .

وقد صدق ابن الاحمر عند ما حلى ابن الخطيب «باديب الدنيا ومفرد العلم والثنيا وكاتب الارض الى يوم العرض»

ولقلما يعمد لسان الدين الى تلك الخطابيات التى تغلب على اسلوب الغزالى مثلا الذى يكثر فى اشاداته وتوجيهاته نحو الخير والصلاح من سرد الآيات والاحاديث والمأثور من القول وسبك الحكايات ما تخيل منها وما وقع ومع ذلك فابن الخطيب ينهل كسلفه من فيض الخيال ويعل من نبع الفن ولعل هذا هو سر تلك الجاذبية التى نالت منها مؤلفات الرجلين اوفر حظ واكمل نصيب .

وقد اتفق الرجلان فى جانب من اسلوبهما وظاهرة فى منهجى بحثهما فتحرى كلاهما الدقة والجلاء فى استعراض حجج الخصم قبل التعقيب عليها واستقصيا شرح الآراء لدى نقدها بطريقة تجعلها فى متناول الجمهور فاتهم الغزالى بسبب هذا الاستقصاء الكاشف بمشايعة الفلاسفة والفرق الضالة كالباطنية كما اتهم ابن الخطيب بالزيغ فى عقيدته فكانت هذه التهمة المنكرة سببا فى احراق كتب الاول والايداء بحياة الثانى .

فكثيرا ما يسرد ابن الخطيب تاولات الفلاسفة القدماء او شطحات بعض غلاة الصوفية دون ان يكبد نفسه عناء نقدها فيقع القارىء فى حيرة من

حقيقة موقف ابن الخطيب لا سيما اذا لم يتبين هذا الموقف من بين السطور وسياق الكلام غير انه قد يعود في الصفحات التالية الى الموضوع فيرسل اشارة او تلميحة يدرك القارىء منها شيئا عن موقف ابن الخطيب وربما عثر القارىء ــ فى ثنايا مؤلفات الرجل التى عرجت على الموضوع ــ على طائفة اخرى من التلميحات قد تسفر عن آرائه الحقيقية اذا جمعت عناصرها المبعثرة وقوبلت مقابلة نقدية مثال ذلك قضية العقل ومكانته بالنسبة للشرع فى تقدير القيم الاخلاقية، ففي بعض كلام ابن الخطيب نوع تناقض فى الظاهر لا يلبث ان يتلاشى اذا جمعت اطراف الموضوع المتناثرة فى كتب خطيبية اخرى كما سنرى فيما بعد، وقد وقع شيء من هذا للغزالى فى كتابه «مقاصد الفلاسفة» حيث عرض آراء الفلاسفة عرضا موضوعيا ــ كما يقولون ــ دون تعليق ولا انتقاد حتى ظن بعض المسيحيين المولعين بالفلسفة فى القرون الوسطى، ان الغزالى من انصار هذه الفلسفة ولكنه ما لبث ان عاد الى تفنيدها فى كتابه تهافت الفلاسفة، فاتضح ما كان قد انبهم وظهر ان الغزالى صارم فى تفكيره حتى لبعض الاسلاميين من هؤلاء الفلاسفة كالفارابى وابن سينا رغم ما قد نجده فى كثير من مصنفاتهما من آيات الاستقامة والايمان، واذا كان الغزالى وابن الخطيب قد اتفقا فى اتجاهات مختلفة خلال دراستهما الفلسفية وابحاثهما الاخلاقية فانهما قد اختلفا اختلافا بينا فى موقفهما ازاء ابن سينا اذ بقدر ما يسفه ابو حامد بل يكفر الشيخ الرئيس بقدر ما يجله لسان الدين .

ولله فى مواقف عباده شؤون .

حب الوطن

حب الوطن عاطفة شريفة تغلغلت فى احشاء الناس وفضيلة تركزت فى طباعهم وقد ناب ابن الخطيب منها علاوة على القدر المشترك بين البشرية حظ الموتور الذى زحزح عن مسقط رأسه ومسرح صباه ومعهد أنسه ومألوف منتداه وابعد قهرا عن مربع الاباء والاجداد ومنابت الخلان والانداد ولعل هذا الحظ الزائد ليس له من مجالى الزيادة الا سنوح فرصة الاستعلان والا فقد كان كمينا فى تضاعيف الجنان .

قال ابن الخطيب فى مقامة يخاطب فيها الولى الصالح ابا العباس السبتى .

«مزق شملي وفرق بيني وبين اهلي وتعدى علي وصرفت وجوه المكايد الي حتى اخرجت من وطني وبلدي ومالي وولدي ومحل جهادي وحقي الذي صار لي طوعا عن آبائي واجدادي، وأنا قرعت باب الله بتأميلك فالتمس لي قبوله بقبولك وردني الى وطني عن افضل حال»

ولكن كيف كان ابن الخطيب ينظر الى هذا الحب ؟ هل هو في نظرة نوع من حب الذات انصرف الى مراتع ترعرعت فيها هذه الذات منذ نعومة الاظفار ؟ ام هو نوع من المناسبة تناسقت جناساتها الروحية وانتظمت اسلاكها منذ كان قلب الطفولة البريئة لا يزال على نقشه الفطري ؟ قد يكون هذان العنصران اسهما معا في تغذية هذه العاطفة وقد يكون لاحد العاملين اناقة على صاحبه في بعث هذه الروح فيكون لعامل الاغتراب «يد في تقويتها غير ان الذي يهمنا هو ان ابن الخطيب كان مشبعا بهذه الروح التي وصمه بالتجرد عنها المستشرق «بونس بواك» بدعوى هجره المزعوم لوطنه وايثاره الموهوم لمملكة بني مرين على ربوع الاندلس الرطيب ولن اكلف نفسي عناء تفنيد هذه الدعوى ما دام (دو الديكوا) قد تكفل بهذا الامر حيث كتب في مقال له «بالوثائق البربرية» القسم الاول المجلد الثاني سنة 1917 ما معناه وانا اريد هنا ان اجرد ابن الخطيب مما وصمه به بونس بواك Pons Buigues من انه سعى في خراب وطنه، ثم ذكر ان من الغلط استعمال لفظة وطن في حق المسلمين واطلاقها على المدلول الجاري عند الاوربيين اذ ديار الاسلام كلها للمسلمين وطن فلا ينبغي والحالة هذه اعتبار تنقل ابن الخطيب من خدمة مملكة اسلامية الى مملكة اسلامية اخرى جناية على الوطن ثم فند ما رمى به ابن الخطيب من نكران الجميل مستندا الى احداث ووقائع تشهد بما طبع عليه لسان الدين من جميل الاعتراف وطيب الامتنان وحسن العهد .

على ان ابن الخطيب لم يهجر وطنه طيعا مختارا، وانما اكرهه على ذلك توارد للدسائس وتوالي الوشايات وكيف يتهم رجل بنكران حق الوطن وشعره ونثره يفيضان بالحنين الصادق الى هذا الوطن.

اما قرأت قوله :

بلاد عهدنا في قرارتها الصبا   يقل لذاك العهد ان يألف العهدا

وقوله :

وطن قد قضيت فيه شبابا   لم تدنس منها البرود مذمة

بنت عنه والنفس من اجل من قد   خلفته خلاله مغتمة

ولعل ذلك الهجران القاهر هو الذي ضاعف في نفس ابن الخطيب عاطفة النزوع الى الزهد والخلوة بعد اليأس من احلام الحياة فقد قال بعد البيتين الاخيرين :

كان حلما فويح من امل الدهر واعماه جهله واصمه
تأمل العيش بعد ما خلق الجسم وبنيانه عسير المرمة

وكيفما كان الامر فان تغرب ابن الخطيب لم يكن عن طيب خاطر وقد كان له اثر قوى في حياته الخلقية ولو لم يكن من نتائجه الا تمحيض وجهة الرجل نحو الحياة الصوفية لكفى.

ولعل اصل هذه التهمة هي الرسالة التي وجهها ابن خاتمة لابن الخطيب وهي مثبتة في ازهار الرياض (ج I ص 625) حيث انبه على هجرانه الاندلس بقوله «متى توازن الاندلس بالمغرب او تعوض عنها الا بمكة او يثرب ؟ ما تحت اديمها اشلاء اولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد ومعاقد الوية في سبيل الله ومضارب اوتاد»

ولكن المتهمين اهملوا رد ابن الخطيب على هذه المؤاخذة حيث قال :

«واما تفضيله هذا الوطن (اى الاندلس) على غيره ليمن طيره وعموم خيره وبركة جهاده وعمران رباه ووهاده باشلاء عباده وزهاده حتى لا يفضله الا احد الحرمين فحق برىء من المين .

ولابن الخطيب في توديع ابنه لما انصرف عنه الى فاس :

بان يوم الخميس قرة عيني حسبى الله اى موقف بين
وطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى معذب بين ذين ؟

غير اننا نجد الى جانب هذا التعلق نوع ازمة نفسانية كانت تعترى ابن الخطيب من جراء تالب اعدائه عليه في الاندلس فيظلم عليه جو العيش وتدلهم في عينه الحياة ويتوق الى الفرار من مغاني الاندلس لا بغضا ولا كراهية ولا مللا ولكن عزوفا عن وسوسة بعض اهلها الذين كان شغلهم الشاغل ايغار القلوب على لسان الدين وقد ورد في رسالة وجهها ابن الخطيب لاحد وزراء ملوك بني مرين عبارة تشعر بهذه الازمة «فاني كما يعلم الوزير منقطع الاسباب مستوحش من الجهة الاندلسية»

المعرى وابن الخطيب

كلاهما مفخرة للادب وخزانة فياضة بفنون من العلم وضروب من الادراك قلما ظفر بها غيرهما دقة فى النظر الى الحياة وصدق ومرارة فى نقد الاحياء وعمق فى تحليل الداء وتشخيص الدواء .

غمرتهما شاعرية مهذبة وجلال هادىء وديع نقاء فى المبنى وجمال فى المعنى وانتجاع للقيم الحسنى

كلاهما اصدر عن خيال فياض وفكر ثاقب

كلاهما فيلسوف ولكن فلسفة المعرى عريقة اصالة فى التشاؤم وفلسفة لسان الدين ـ رغم نقده اللاذع وغمراته العابرة ـ موغلة فى الرجاء

نعم بقدر ما كان ابن الخطيب مستبشرا متفائلا تذكيه نفحة صوفية انارت فى ناظريه صفحة الوجود واشاعت فى قلبه برد اليقين ـ بقدر ما كان ابو العلاء موغلا فى الارتماض والتشاؤم تطوح به نزعته الصوفية الفلسفية الى فيافى توغل فى دياجيرها فأظلم فى نفسه الوجود بعد ان احلكته الطبيعة فى عينيه وشاع فى قلبه شك خانق وشعور بالانهيار واليأس من هذا العالم القاتم المثقل بدواعى الريب والظنون .

وما لبث نظرهما الخلقى ان تأثر بهذه الوجهة المتنافرة فطفح فؤاد الاول املا فى الناس واستيناسا بهم وثقة بمزاياهم واحس بروح الحرية ينعش روحه وتسيم الاختيار يفسح له ربع الوجود .

وانغمر خلد الثانى خيبة وارتيابا فرأى السعادة فى الانعزال والشقاء فى الاتصال ورأى الشر غالبا والخداع مناصبا والصدق ناضبا فشعر بالقهر وثقل على نفسه عبء القدر فهامت منه البصيرة وتاه البصر .

هو الشر قد عم فى العالمين ... اهل الوهود واهل الذرى
وقد بلونا العيش اطواره ... فما وجدنا فيه غير الشقاء
تهوى الثريا ويلين الصفا ... من قبل ان يوجد اهل الصفاء
قد فقد الصدق ومات الهوى ... واستحسن الغدر وقل الوفاء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصـ ... ـادق يضحى ثقلا على الجلساء
ان مازت الناس اخلاق يعاش بها ... فانهم عند سوء الطبع اسواء
فهم الناس كالجهول وما يظـ ... ـفر الا بالحسرة والفهماء
اخلاق سكان دنيانا معذبة ... وان اتتك بما تستعذب العذب
وزهدنى فى الخلق معرفتى بهم ... وعلمى بأن العالمين هباء
بعدى من الناس برد من سقامهم ... وقربهم للحجى والدين ادواء

الدنيا ظلام وحق لها ان تكون ظلاما لان لحظ المعرى المطبق لا يتبين منها الا حلوكة مدلهمة تصاعد بخارها من بصره الى بصيرته فاحلولكت فى نفسه مباهج الوجود .

الدنيا طعان ورياء ونفاق وعداء

قد حجب النور والضياء ‏ وانما ديننا رياء
انس على الارض تدمى هامها احسن ‏ منها اذا دميت للوحش انساء
وعرانا على الحطام ضراب ‏ وطعان فى باطل ورماء
وما زالت الدنيا باصناف ألسن ‏ تبين عن غير الجميل وتعرب
والدهر يشتف اخلاءه ‏ كأنما ذلك منه اشتفاء

وكانى بالمعرى شعر بغلو فى حملته على الدنيا فكر على اهلها :

نقمت على الدنيا والاذنب سلفت ‏ اليك فأنت الظالم المتكذب
وهبها فتاة هل عليها جناية ‏ بمن هو صب فى هواها معذب
فما اذنب الدهر الذى انت لائم ‏ ولكن بنو حواء جاروا واذنبوا

ولعل ابا العلاء ما اوصى بالزهد فى الدنيا الا فرارا من ذويها فليس زهده فيها زهدا صوفيا يعتزل ذاتها وانما هو زهد انفجر عن يأس من الناس .

نعم لقد مل ابو العلاء الناس ونفاق الناس

عيبونى حيا ثم قام لهم ‏ مثن وقد عيبونى ان ذا عجب
رويدك قد غررت وانت حر ‏ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهبا صبحا ‏ ويشربها على عمد مساء
تشاب عمرو اذ تثاب خالد ‏ بعدوى فما اعدتنى الثؤباء
اذا رام كيدا فى الصلاة مقيمها ‏ فتاركها عمدا الى الله اقرب

وما بالك بأناس تختصم منهم حتى الطباع والغرائز

وارى الاربع الغرائز فينا ‏ وهى فى جثة الفتى خصماء
ان توافقن صح اولا فما ينفك عنها الامراض والاغماء
غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء

وكيف يستساغ العيش في مربع يكون مقياس الخير فيه هو الغنا والجاه

اذا قبل الانسان في الدهر صدقت احاديثه عن نفسه وهو كاذب

ضاق المعري بهذه الحياة التي غار فيها الحياء وانحى بالاقداع على الوالد الذي تسبب في وجود الولد

على الولد يجني والد ولو انهم ولاة على امصارهم خطباء
تطلق رازق الاحياء طرا لقد وهت المروءة والحياء

فما كان من ابي العلاء وقد خنقته الضائقة واحرجته تمويهات الاجتماع الا ان استبطأ الموت واستعجل المنون

وشف بقاء صرت من سوء فعله أهش على الموت الزؤام واطرب
ولي مورد بأناء المنون ولكن ميقاته ما اتى
حياة عناء وموت عنا فليت بعيد الحمام دنا
يد صفرت ولهاة ذوت ونفس تمنت وطرف رنا

ولكن المعري لم يستطع الخلاص من اتون الحياة فشعر بقهر يسيره وجبر يحيره فانقلب جبريا خنوعا وانصاع لحكم القدر مرتاعا من صروفه هلوعا .

جرت زمنا وتسكن بعد حين واقضية المهيمن لا تجارى
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الانسان من ملك ربه فيخرج من ارض له وسماء
وما كنت في ايام عيشك منصفا ولكن معنى في حبالك مجدبا
اذا نزل المقدار لم يكن للقطا نهوض ولا للمخدرات اباء
ارى فلكا ما زال بالخلق دائرا له خبر عنا يصان ويخبأ
حكم جرى للمليك فينا ونحن في الاصل اغبياء
اقضية لا تزال واردة تحار في كونها الالباء

ابن الخطيب الفيلسوف

اذا اعتبرنا ان من دعائم الفلسفة نفوذ البصيرة وصدق النظر في حقائق الحياة والاحياء ظاهرا وباطنا اجتماعيا ونفسانيا والدقة في استكناه اسرار

الكون وماجريات الوجود وعلل الخلق ودقائق الاجتماع واوضاع السياسة ونزغات النفوس وتموج الطباع ـ قلنا بأن ابن الخطيب عل من ذلك ونهل بالقدح الطافح، كان فيلسوفا من امثل ما انجبته الارحام العربية فقد جمع الى روح الابتكار فى المبانى القويمة والمعانى السليمة والفكر السديدة والاساليب الجذابة ـ اقتدارا على تحليل خلجات الوجدان مهما دقت وتشريح نزوات النفوس مهما لطفت ورقت وتعليل قواعد الاجتماع وقوانين الحياة مهما استعصت وكان اذا لاحظ اصاب الصميم واذا نظر استكنه السويداء وكانت ملكة التجريد متناهية المتانة فى قواه العقلية ومداركه الفكرية، فكان يعمد فى اوصافه وتحليلاته الى الحقائق الثابتة فى الطباع البشرية والاوضاع الانسانية والنظم الاجتماعية فيضعها على المشرحة ويستجلى خفاياها ليخرج لنا صورا خالدة عن سر اختلاف الاتجاهات وتنوع النزعات فى بنى الانسان وانت اذا قرأت صفحة وصف فيها ابن الخطيب طبقة من طبقات الشعب فى اهداف غدواتها وروحاتها واسباب حركاتها وسكناتها وغايات تفكيرها ونوع وجهة هذا التفكير وصبغة مجموع مظاهر الحياة ومجالى العيش وجدت ان هذا الوصف الذى ركزه لسان الدين منذ قرون متطاولة خلت على العناصر الدائبة والماهيات الخالدة فى الانسانية لا يزال يتفق وما نلحظه الى الآن فى خصائص هذه الموصوفات على اختلافها من مدن وقرى واندية ومجتمعات وهنالك ندرك ان الرجل كان من الفلاسفة المبرزين والخبراء المضطلعين فى علم النفس وعلم الاجتماع .

واذا قرأت ما كتبه فى السياسة وتموجاتها والممالك وتداولها والامراء وما يحاك حولهم من دسائس ومؤامرات ومختلف الخلايا البشرية وغرائب مطوياتها ـ ألفيت نفسك امام دراسات نقدية تحليلية لا تصدر عن مطلق كاتب ومجرد اديب وانما تنبعث من نفس دراكة نفحتها فلسفة طبيعية فطرية بروحها المنطقى السليقى الرصين وكيف تنتظم هذه الحقائق السرمدية التى تمس مختلف ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والعواطف النفسية ـ فى فكر غير فكر حكيم؟ بل كيف تتناسق نبراتها فى قلم غير قلم فيلسوف؟

لقد جمع ابن الخطيب خصائص لو توفرت احداها فى رجل لاعتبر بحق من الفلاسفة المبرزين فمن نقد دقيق للمجتمعات البشرية فى اطوار التاريخ يستلزم سعة عارضة وقوة بديهة الى محاولة موفقة فى التنسيق بين التعاليم المستخلصة من تجارب الحياة وبين مقتضيات الفضيلة كما يراها العقل والشرع والوجدان الى سعى جدى فى وضع اسس المدينة الفاضلة على نهج

يرتضيه القرآن ويستسيغه الطبع ويطرب له الوجدان ويضمن السعادتين للانسان .

وقد توفر ابن الخطيب على دراسة الفلسفة القديمة كما يتبين ذلك مما يورده من تحليلات لبعض مشاكلها الغامضة وهو لا يقتصر على الدراسة الموضوعية السطحية وانما ينقد ويؤول ويوجه في اسلوب يجمع بين البساطة والوضوح والدقة والفن ويشهد بضلاعة الرجل وقوة ملكته، وقد تعرض لمختلف المدارس الفلسفية والاشراقية والصوفية شرقا واندلسا بالنقد المستقرىء واصفا خصائص كل منها والطابع العام الغالب على انظارها وقد امتاز علاوة على ذلك بنظرات طريفة اسلوبا وروحا حول المعرفة والحب مازجا بين الطريقة العقلية التي هي طريق الحكماء والمنهج الوجداني الذي هو منهج الصوفية والمهيع الشعري الذي هو ميسم عباقرة الادب وكيف لا وابن الخطيب فيلسوف صوفي شاعر أديب ؟

محمد ابراهيم الكتاني

بين يدي (شذرات من كتاب السياسة) لابن حزم

(كتاب السياسة) لابي محمد علي بن احمد بن سعيد ابن حزم الاندلسي ـ الذي اشار اليه في كتابه (التقريب لحد المنطق) ص 181 ـ نشر مكتبة الحياة ببيروت بتحقيق الدكتور احسان عباس سنة 1959 ـ احد آثار ابن حزم التي لا يعرف لها وجود الآن، وما زلت منذ وقفت على النقل عنه في رسائل ابن عباد الصغرى ـ قبل طبعها ـ أتتبع أخباره، الى ان وفقت للعثور على نقول كثيرة منه في مخطوط مغربي هو كتاب (الشهب اللامعة في السياسة النافعة) المعروف بسياسة (ابن رضوان) .

ونظرا لكثرة هذه النقول ـ في الجملة ـ وانقطاع اخبار الكتاب عنا، فقد رأيت ان اجمع هذه النقول وانشرها في مجلتنا «تطوان» التي تعتز بمستواها الثقافي الممتاز، في انتظار العثور على نسخة كاملة من الكتاب ـ ان شاء الله ـ لان هذه الشذرات تتناول ناحية اخرى من نواحي تفكير ابن حزم الموسوعي المبدع .

ومع كثرة ما لفت النظر في هذه الشذرات، فاني احب ان أشير هنا ـ على الخصوص ـ الى ما ورد اثناء الكلام على ما يلزم الامام من امور الامة من جباية الفيء والصدقات على ما اوجبه الشرع ـ نصا او اجتهادا ـ فاعتبر الاجتهاد من قبيل الشرع، والمعروف عن ابن حزم انه يرى في النصوص غنية عن الاجتهاد .

هذا، ولا يخفى ان ابن حزم قد تكلم على بعض المسائل السياسية المتعلقة بالخلافة في الجزء الرابع من كتاب (الفصل)، وقد حللها وناقشها الشيخ محمد ابو زهرة في كتابه القيم الاصيل (ابن حزم) ص 240 ـ 253 .

ابـن رضـــوان

ابو القاسم وابو محمد عبد الله بن يوسف البخارى المالقى ثم الفاسى دفين أنفا ـ المعروفة اليـوم بالدار البيضاء ـ الشاعر الناثر المؤلف، كاتب الانشاء بديوان السلطان ابى الحسن المرينـي، ووالـى خطة العلامة لولده السلطان أبى عنان، وله الف يامر منه كتابه (الشهب اللامعة) فى (السياسة الملوكية، والسير السلطانية) وهو يشتمل على خمسة وعشرين بابا تتخللها عدة فصول، وهو يدل على اطلاع واسع .

وتوجـد عندنـا بالخزانة العامة منه عدة مخطوطات، من بينها الارقام التـاليـة : ق 92 ـ د 729 ـ ج 68 ـ ج 908 وتقع اولها فى 201 ورقة .

(راجـع ترجمـة ابـن رضـوان بقلم صديقه لسان الدين ابن الخطيب (الاحاطة) مصورة الخزانة العامة (2636 ـ ص 269 ـ 274) وعند ابن القاضى فى (جذوة الاقتباس) ص 246 ـ 247 طبع حجر بفاس 1309 هـ.

1

الحاجـة الـى الخلافـة، وحكمتهـا، ومهمتـهـا، ودليلهـا

ابـن حـــزم :

لما كانت الخلافة من الله على منهاج رسوله، واقامة شعائر دينه، احتاج الناس الى من يقوم فيهم مقام نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتأتلف برهبته الاهـواء المختلفـة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة، وتنقمـع مـن خوفـه النفوس المعاندة، لان فى طباع البشر من حب المغالبة والقهر ما لا ينفكون عنه الا بمانع قوى، ورادع كفى.

فلمـا تحقـق ذلـك الصحابة والمومنون، واجتمع على الاخذ به العقلاء والمسلمون، لم يكن بد من اجتماع على امام :

1 ـ يحفظ الدين من تبديل فيه، أو زيادة عليه، ويحث على العمل به من غير اهمال له .

2 ـ ويذب عن الامة من عدو فى الدين .

3 ـ وعمارة البلدان باعتماد مصالحها، وتمهيد سبلها ومسالكها .

4 ـ وتنفيذ ما يتولاه المسلمون من الاموال بسنن الدين، من غير تحريف فى اخذها واعطائها .

5 ـ ومعاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين أهلها، واعتماد النصفة فى فصلها، واقامة حدود الله على مستحقيها، من غير تجاوز فيها، ولا تقصير عنها .

أقام الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ابا بكر ـ رضى الله عنه ـ مقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليا ـ مع خلاف عليه ـ رضى الله عنهم اجمعين ـ ثم لم يزل العمل جاريا على ذلك حتى الآن، بلا خلاف فيه بين المسلمين .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة : الباب الاول)

2

فصل فيما يلزم الامام من امور الامة وهى عشرة اشياء :

1 ـ حفظ الدين على اصوله المستقرة، وما اجمع عليه سلف الامة، وان نجم مبتدع فيه، او زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسا من خلل، والامة ممنوعة من زلل.

2 ـ تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين، حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم، ولا يضعف مظلوم .

3 ـ الحماية والذب عن الحريم، ليتصرف الناس فى المعايش، وينتشروا فى الاسفار امنين من تغرير بنفس أو مال .

4 ـ اقامة الحدود، لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ الامة عن اتلاف واستهلاك .

5 ـ تحصين الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة حتى لا يظفر الاعداء بغرة ينتهكون بها محرما، او يسفكون فيها لمسلم او معاهد دما .

6 ـ جهاد من عاند الاسلام ـ بعد الدعوة ـ حتى يسلم او يدخل فى الذمة، ليقام بحق الله ـ تعالى ـ فى اظهاره على الدين كله.

7 ـ جباية الفيء والصدقات على ما اوجبه **الشرع نصا او اجتهادا**

8 — تقدير العطا وما يستحق من بيت المال، من غير سرف ولا تقصير ودفعه في وقته لا تقديم ولا تأخير .

9 — استكفاء الامناء، وتقليد النصحاء، فيما يفوضه اليهم من الاعمال ويكل اليهم من الاموال، لتكون الاعمال بالاكفاء مضبوطة، والاموال بالامناء محوطة .

10 — ان يباشر بنفسه مشارفة الامور، وتصفح الاحوال، لينهض بسياسة الامة، وحراسة الملة .

انتهى من كلام ابن حزم (ابن رضوان، الشهب اللامعة الفصل 4 من الباب 1)

3

تنظيم اوقات الامام

ابن حزم :

يجب على الامام ان يجعل يوما في الجمعة يركب فيه فتراه العامة كلها، ولا يمنع منه مشتك كائنا من كان (1).

ويجعل سائر ايامه للنظر في الامور، ولا يسرف على نفسه، لكن طرفي النهار : من صلاة الصبح الى ثلاث ساعات من النهار، ومن صلاة العصر الى إسفار الشمس، ويجعل وسط نهاره لراحة جسمه، والنظر في ماله وأهله (2).

ويمنع اهل الفضول من الوصول اليه، وملازمة داره ومجلسه، لئلا يشتغل في مجالسة من لا يجدي عليه مصلحة في دينه ولا دنياه، وليغلق الباب دون ذلك جملة، فلا يطمع احد في الوصول اليه لغير معنى (3)

ويجعل الامام عشي نهاره — الى الاصفرار — للجلساء، ويختارهم من أهل العلم، والفضل، والعقل، وحسن التدبير : يخوض معهم في الفقه وفي

---

1) نقل هذه الفقرة ابن الازرق في «بدائع السلك، في طبائع الملك» خ (ق 99 ا).

2) نقلها ابن الازرق بالمعنى (ق 96 ا) وعقب عليها بنقل كلام الجاحظ الذي قال عنه انه اوسع من كلام ابن حزم

3) ابن الازرق (ق 97 ب)

سائر العلوم الشرعيـة، وفـي مذاكرة السياسة وأخبار الناس من الماضين فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه ويذاكرهم ويشاورهم ويعلمهم، وكذلك كان الخلفاء بعده (4)

انتهى كلام ابن حزم .

4

ابـن حـزم :

ينبغي للملك ان يفرغ نفسه في ليله لعياله ونسائه وولده، ويعدل في القسم بين نسائه (5) .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة، الباب الخامس)

5

وزراء الامـام

ابـن حـزم :

ويتخذ من وجوه الكتاب، ووجوه الاطباء، والعلماء، والقضاة، والامراء، قومـا ذوي «اراء سديـدة، وكتمـان للسر، فيجعلهم وزراءه الذين يحضرون مجلسه، ويلازمونه في التدبير لجميع ما قلده الله تعالى من امور عباده .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة، الباب السادس)

6

الـشـــورى

قـال ابـن حـزم :

اذا نزلت بالملك معضلة ـ ليس عنده فيها يقين ! ـ شاور من اصحابه وولاة جنوده من يرجو عنده فرجا من ذلك، ويشاور في الحروب اهل الحرب

---

4) ابن الازرق (ق 96 ب)

5) ابن الازرق (ق 97 ب)

وسياساتها. ويسال عن كل علم اربابه، ولا يتكل على راى أحد، ولا يطلعهم على ما يختار من رايهم، فاذا انقضى ما عندهم انفذ ما رآه مما سمع منهم (6) او من رأى نفسه ان رآه صلاحا .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة، الباب السابع)

7

تشجيع الامام العمارة والغراس

ابن حزم :

يأخذ الناس السلطان بالعمارة وكثرة الغراس، ويقطعهم الاقطاعات فى الارض الموات، ويجعل لكل احد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك، فبذلك ترخص الاسعار، ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الاجر، ويكثر الاغنياء، ويكثر ما تجب فيه الزكاة (7)

قال : ولا يمنع الامام من البنيان الواسع، وان يبلغ به غاية الاتقان والقوة ولكن يمنع من التزويق والتزخريف (كذا !) وما اشبه ذلك.

(ابن رضوان : الشهب اللامعة : الباب 23 قبل الاخير)

8

والى الصلاة

قال ابن حزم فى (سياسته) :

ينبغى للامام ان يولى الصلاة رجلا قارئا للقرآن، حافظا له، عالما بأحكام الصلاة والطهارة، فاضلا فى دينه، خطيبا، فصيحا، معربا، فقيها فى جميع ذلك (8) .

ومن ولاه الامام الصلاة بأهل بلد كانت له الجمعة والعيدان والصلوات الخمس المفروضات والكسوف والاستسقاء فى جميع البلدة التى ولى صلاتها

وحكم منزل صاحب الصلاة ان يكون بقرب الجامع، كما كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

6) نقل ابن الازرق هذه الفقرة فى «بدائع السلك» ج

7) نقل ابن الازرق هذه الفقرة وقال : (لترخص) بدل : فبذلك ترخص)

8) نقل ابن الازرق هذه الفقرة فى «بدائع السلك» عن ابن حزم ولم يسم الكتاب

ويتخذ مؤذنين او ثلاثة، صيتين فاضلين فصيحين بالاذان، **عالمين** بالاوقات، ويجب على الامام التوسعة عليهم ان كانوا فقراء، لئلا يحتاجوا الى الشغل فيخلوا بلزوم المسجد أوقات الصلوات .

ولابد من خدمة يكتفون بقم المسجد وكنسه وتنظيفه وبسط **حصره** وتسوية حصاه ان كان مبسوطا بالحصى، وفتح ابوابه واغلاقها، وتسوية صفوف المصلين .

ويجب على **والي الصلاة** ان يتفقد مساجد البلد الذى ولى الصلاة بأهله فيلزم اهل كل محلة ان يتولى امامتهم أقرؤهم لكتاب الله، فان استووا فأقدمهم صلاحا .

ويأخذهم باقامة مؤذن راتب لكل مسجد، فان لم يكن فيهم من يقوم بالصلاة والاذان تكفل لهم الامام بامام ومؤذن يجرى عليهما ما يكفيهما ان كانا فقيرين .

ويتعاهد والى الصلاة **قبلة ما احدث من المساجد** فيقيمها على شطر المسجد الحرام .

ويجرى على ما ذكر من كل مال موقوف على مصالح المسلمين، فان لم يكن هناك مال موقوف على ذلك جبر (ك) الامام الاكبر اهل كل محلة وقرية على القيام به .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة ـ الباب 19)

9

يلزم الامام عدم البحث عن الحدود

قال ابن حزم :

ويلزم الامام ان لا يبحث عن شيء من الحدود كلها اصلا، الا ان يجاهر بها صاحبها او يشتكى اليه بفعل شيء منها، فاى هذين الوجهين كان لزمه السؤال عن ذلك والارسال اليه، كارسال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انسا الى المرأة، وسؤاله عليه السلام عن زنى الذى كان عسيفا على الآخر اذ شكا (كذا) اليه عليه السلام امرهما

(ابن رضوان : الشهب اللامعة . الباب 19 فصل والى الشرطة)

10

فصل في ذكر صاحب البريد

قال ابن حزم : «أما البريد فيلزم الامام ان يرتب قوما من فرسان الجند ويقدم عليهم رجلا منهم موثوقا، من اهل السياسة، والدلالة في الطرق والتبصر بالقبائل، يزيد في أرزاقهم، ويكونون مرتبين في كل قاعدة من قواعد بلاده، فاذا ناب خبر او طرق امر يجب على الامام اعلام بعض اهل عمله به، او يجب على بعض ولاته اعلام الامام، قلد الامام او الامير بعض اولئك الفرسان انهاءه الى المكان الذي يجب انهاؤه اليهم **وتكون لهم علامة يعرفون بها لا يشركهم فيها غيرهم**، ويكونون مشاهير بما تولوا من ذلك، ليصح ما ياتون به من عند اترابه من الامراء وسائر الولاة .

قال : «ومن نزل به بريد المسلمين لزمته ضيافته، من غير تقصير ولا اسراف، وكذلك علف دوابهم، ويكونون من اهل المعرفة بالطرق، وقوة الاجسام، ويأخذهم الامام باستجادة الدواب واختيار القوى منها من البراذين والبغال، **فانها ان كانت لهم كانوا احوط عليها.**

ويتفقد الامام المولى عليهم، ويستخبرهم عن أحوال الطرق **واحوال الناس فيها !**

ابن رضوان : «الشهب اللامعة» . الباب 19

11

فصل في ذكر عمال الزكاة

قال ؛ (9) : ويخرج لكل جهة من يكتفي بصدقات اهلها، ويخرج معه من الاعوان والرجال ما يستعين به على عمله عددا لا يكتفي بأقل منه اصلا، **ولا يكثر ممن لا يحتاج اليه،** ويامرهم بان لا يأخذوا من أحد جعلا، لان لهم فيما يقبضون ـ من قليل او كثير ـ حقا يقوم بهم **ويفضل عنهم.**

واما في مسيرهم وترددهم فينبغي للامام ان يدفع لهم نفقة يبلغون بها **فان لم يكن مع الامام مال فاضل !** فضيافتهم فرض على كل من نزلوا به، لانهم ابناء سبيل في خدمة المسلمين .

---

9) لا يبعد ان يكون ابن حزم هو قائل هذا، حسبما يفهم من سياق ابن رضوان

ولا يكون من يتولى ذلك الا عالما باحكام الصدقات، ومقاديرها، ونصابها وصفات ما يوخذ منها، وممن توخذ، وكيف توخذ، حليما، غير عانف، متيقظا، غيـر مغفـل .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة ، الباب 19

12

مـرتـب والـى الـخـراج

قال ابن حزم : يلزم الامام ان يجعل لوالى الخراج ما يقوم به وبخدمته واعوانه، من غير تقتير ولا تبذير، **فـان لم يكـن للامـام مال يفضـل لذلك**

فمؤنتهم ومؤنة اعوانهم عن المعتمرين لارض الخراج .

(ابن رضوان : الشهب للامعة، الباب 19)

13

الـولاة والـعمـال

ابن حزم :

[يلـزم الامام ان يتخير ولاته وعماله مـن المسلمين واهل الدين، اذ لا تمكنه المباشرة لكل امور المسلمين، ولئلا يشتغل عن تدبير الامور العظيمة] (10) التى ابتلاه الله بها واختصه لها.

والاعمال ــ بعد الخلافة ــ اثنا عشر عملا :

1) اولها الصلاة

2) وقبض الزكاة وتفريقها، وقبض الجزية وتفريقها .

3) وولايـة الجيـوش، وتدبيـر الحروب، واخذ المغانم وتخميسها وقسمتها وما صار من المشركين الى المسلمين وحكمه .

4) واقامة الحدود

5) والاقضـيـة

---

10) نقل ابن الازرق هذين السطرين الذين جعلناهما بين معقوفين فى «بدائع السلك» ص 88 بتلخيص مخل بالمعنى !

6) والشرطة
7) والحسبة
8) والكتابة
9) والمحاسبة
10) والبريد
11) والاختزان
12) واقامة الحج

فيلزم الامام ان يتخير الولاة والامراء والعمال لكل ما ذكرنا، [فان رأى أن يفرق هذه الاعمال فى كل بلد وعلى عدها رجال فحسن، كما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليا قاضيا لليمن وقابضا للاخماس، وبعث خالدا اليها متوليا للحرب، وبعث معاذا وابا موسى الاشعرى اليها معلمين للقرآن وأحكام الدين وقبض الصدقات، وولى أعمالها جماعة غير هؤلاء .

وان رأى ان يجمعها ـ او بعضها ـ لواحد فى بلد واحد فحسن، كما جمع النبى صلى الله عليه وسلم اليمن كله لباذان، وجمع عمان كله لعمرو ابن العاص رضى الله عنهم اجمعين] (11) .

[يلزم الامام الاعظم ان يرزق امراء النواحى رزقا واسعا يقوم بهم وبمؤنتهم على السعة التى لا يشرهون معها الى مال احد من اهل عملهم، ويرزق من لهم من الاعوان والفرسان والرجال، ويكونون عددا يستظهرون به على ما هم بسبيله على قدر ما يلى كل واحد منهم : من كبر الناحية وصغرها، من قمع ظالم ان ظلم، او معاند ان عاند، او اشباه ذلك] (12) .

[ويلزم الامام الاكبر اهل كل جهة من جهات بلده ان يفد عليه من خيارهم وعلمائهم ووجوه قومهم، ليستخبرهم عن حال الامير والناس، ويكسوهم ويصلهم، على نحو ما كان عليه السلام يفعل، فاذا وفدوا عليه انفرد بهم عن كل من ذكر، ثم ينفرد بوجوه قومهم : واحدا بعد واحد، حتى يقف على الحق من الباطل فى امر الناس وامور ولاته، وجميع احوال عماله] (13) .

---

11) نقل ابن الازرق هذه الاسطر التى بين معقوفين بتلخيص فى «بدائع السلك» ص 73 أ

12) نقل ابن الازرق هذه الاسطر التى بين معقوفين بالمعنى ص 89 ب

13) نقل ابن الازرق هذه الفقرة ببعض اختصار (ص 89 ب)

ابن حزم : والذى نختاره للامام ـ على كل حال ـ ان لا يطول مدة امير بلد، لاسيما البعيدة عنه، او الثغور [التى فيها القلاع المنيعة والجند الكثير، او (I4)] التى فيها المال الكثير، بل يعجل عزل كل امير يوليه شيئا من ذلك، وان كان عدلا فاضل السيرة فيوليه الامام بلدا اخر من بلاده، ليعم بعدله وحسن سيرته ما امكنه من بلاد رعيته، ويحسم اطماعهم فى الرجوع الى البلاد التى عزلوا منها، ولا يخص بسوال اهل بلد ما، واما سائر البلاد فبخلاف ذلك : لا يعزل عنهم أحد الا عن جور ظاهر، او خيانة بينة.

ولا يفتح الامام باب التشكى بالقضاة، لا سيما من طالبى الترؤس من أهل البلدان فان شكوا كلفوا تبيين ما شكوا به، فان فعلوا عزل عنهم وبكت، وان ظهر تحاملهم عليه عوقبوا بالسجن والاخمال واسكانهم فى غير بلادهم حتى يتوبوا عن طلب الفضول ويقبلوا على شأنهم .

ابن حزم : ينبغى للامام ان يتخذ **خازنا** ثقة، عفيفا، دينا، ضابطا : يختزن كل ما يرد على الامام من الاموال، ولا يخرج منها شيئا الا عن علم الامام او بكتبه، ويكون له نظار وحراس يحرسون الاموال، لئلا تضيع او تسرق، حتى توضع موضعها . ويجب على الخازن تصنيف الاموال وترتيبها والكتب عليها وعلى انواعها والوجوه التى قبضت منها، مفصلا كل ذلك .

قال : ويتخذ الامام خازنا للسلاح المستعد، فمن اعطاه الامام شيئا من ذلك بالبت أثبت ذكره، وتاريخه باليوم والشهر والعام، وان اعطاه عارية كتب عليه اسم الذى استعاره، وأخذ برد ما لم يثبت انه ضاع، فان اتهم بخيانة لم يعطه الامام شيئا بعدها .

قال : ويتخذ الامام **ناظرا على الخيل**، يشرف على اعلافها ونفقاتها وخدامها وتكون كلها مذكورة فى زمام بأثمانها وشياتها وسماتها.

قال : وينصب **للمواريث التى لا مستحق** لها رجلا امينا فى كل بلد، عالما بالفرائض وقسمتها : يحصل ما يجب من ذلك فى زمام، ويرفع المال الى الامام ليضعه حيث وضعه الله عز وجل .

ويرزق الامام من ذكر ما يغنيهم عن الخيانة، ويستغنون به عن سائر الكسب الشاغل لهم عما هم بسبيله من خدمة المسلمين .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة ، الباب I9)

I4) الكلمات 7 التى بين معقوفين ساقطة من بعض نسخ (الشهب اللامعة)

14

السجون

ابن حزم : يعهد الامام الى من قلده ولاية من الولايات ان يكون لهم **سجن ثقيف** للدعار ومن تخاف غائلته، **وسجن اخر غير ذلك** للمستورين المحبوسين في الديون والآداب وأشباهها.

ويتفقد احوال جميعهم في جميع ذلك .

وسجن للنساء مفرد، بواباته موثوق بهن، ولو جعل للمستورات المحبوسات في الديون والآداب **سجن على حدة** من سجن المحبوسات في التهم القبيحة لكان حسنا .

قال : ويجعل الامام لاهل السجن اماما يصلي بهم الجمعة والفرائض ويرزقه من بيت مال لمسلمين .

(ابن رضوان : الشهب اللامعة : الباب 21)

هذه هي النصوص 14 التي نقلها لنا ابن رضوان في «الشهب اللامعة» عن «كتاب السياسة» لابن حزم. وقد اشرنا الى ما نقله منها او اشار اليه ابن الازرق في (بدائع السلك) اتماما للفائدة .

وقد وقفنا على نص آخر نقله الشيخ محمد ابن عباد الرندي الصوفي الشهير، نزيل فاس ودفينها (733 هـ 1333 م — 792 هـ. 1390 م) اثناء الرسالة السادسة من (الرسائل الصغرى)

15

شدة حمق من يبذل نفسه فيما لا يعلم !

قال ابن عباد :

... بل من جهل النفس وشدة غباوتها انها تفعل الافعال الشاقة لغرض تافه، كالذي يعرض نفسه لمعارك الحرب ومباشرة الطعن والضرب ليثنى عليه بالشجاعة والجلادة بعد موته ! وهذا جهل عظيم ! واي منفعة للنفس في ذلك بعد الموت ؟ ! وقد تفعل ذلك من غير تصور غرض، ولا تحصيل عوض !! كما قال علي بن حزم في (كتاب السياسة) :

«واحمق من هؤلاء قوم شاهدناهم لا يدرون فيما يبذلون انفسهم، فتارة يقاتلون زيدا عن عمرو وتارة يقاتلون عمرا عن زيد ! لعل ذلك يكون في يوم واحد ! فيتعرضون للمهالك بلا معنى، فيقتلون الى النار، او يفرون الى العار ! وقد أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : «يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل !»

(الرسائل الصغرى لابن عباد، نشر الراهب ب. ع. نويا «مجلة المشرق» البيروتية السنة 51 ج 1 ص 52)

ومما تجدر الاشارة اليه ان الناشر لم يفصل نص ابن حزم من كلام ابن عباد لا بنقطتي التبيين ولا بالهلالين اللذين يحصر بينهما عادة قول القائل، مما يوهم القارئ ان الكلام كله لابن عباد وانه انما اشار الى معنى كلام ابن حزم !

وقد نقل ابن الازرق في «بدائع السلك» نصين عن ابن حزم، ولكنه لم يعين الكتاب الذي قالهما فيه ابن حزم هل هو (كتاب السياسة) او غيره فأضفناهما الى شذرات (كتاب السياسة) .

16

ما في جميع الناس شر من النمام

قال ابن حزم : «ما في جميع الناس شر من النمام، وان النميمة لطبع يدل على نتن الاصل ورداءة الطبع، وفساد الطبع (كذا) وخبث النشأة»

(ابن الازرق : بدائع السلك في طبائع الملك ق 154 ب 155 أ)

17

خطر النميمة والكذب على المجتمع

قال ابن حزم : «ما هلكت الدول، ولا انتقضت الممالك، ولا سفكت الدماء ظلما، ولا هتكت الاستار، بغير النمائم والكذب، ولا اكدت البغضاء الا بهما، ثم لا يحظى صاحبهما الا بالمقت والخزي والذل ! »

(ابن الازرق : بدائع السلك ق 155 أ)

محمد ابـن تاويـت

مـن زوايـا التاريـخ المغـربـي

مـن صـادرات المغـرب ووارداتـه اواسـط القرن السادس عشـر

منذ ان احتل البرتغال شواطىء المغرب فى القرن الخامس عشر اتجهت أنظار الاوربيين اليـه خصوصـا الانلجيـز ودول الاراضى الواطئة وفرنسا، فكانت تتـردد هذه علـى تلك الشواطىء التى احتلها البرتغال، ولما شرعت الدولة السعدية تسترد شواطـىء المغـرب من المغتصبين بدأ هؤلاء يتحولون اليها فى الاستفادة من اسواق المغرب التـى كانوا يجلبون منها واليها كثيراً من البضائع، وبالرغم من ان البرتغال واسبانيـا كلتاهما لم تكن تسر بهذا الاتصال وتعمل على احباطه، فان هؤلاء استمروا يقصدون المغرب، خصوصا من مرساه الرئيسى آسفـى، وبعض المراسى الاخرى، ويهمنا ان نطلع على بعض هذه البضائع فى التقريرين الآتيين :

ورد فى تقرير جمس طوماس، احد ربابنة الانجليز الذين زاروا المغرب سنة 1552 ما يأتى :

كانت سفننا التى اتجهت الى المغرب فى هذه الرحلة ثلاثا، اثنتان منها كانتا من سفن نهر التيمـز، احداهمـا كان اسمهـا (لين اوف لندن) يتولى قيادتها طوماس ويندهام، وكانت حمولتها نحو خمسين ومائة طن، وكان اسم الاخرى (ذى بتوف)، حمولتها نحـو ثمانين طنا، أما السفينة الثالثة فكانت عبارة عن سفينة شراعية كبيرة برتغالية، اشتريت من بعض البرتغال بميناء ولز، المعروفة باسم نيوبورط، وكانت حمولتها نحو ستين طنا .

وكان عدد رجال الاسطول عشرين ومائـة رجل، اما مالكا السفينة لين أوف لندن، فهما رجلان، جون كيرى مينهيـد بسمرسيتشير Somersetshire وزميله دافيد لندمان Daved Landman ، وكان الربان الرئيس لهذا الاسطول الصغير هو السيد طوماس ويندهـام السالف الذكر، وهو رجل نورماندى المولد الا انه يقطـن بمـارشفيلد بارك Marshfield-parke فى سمرسيتشير المذكـور .

لقد اقلع هذا الاسطول من ميناء كنج رود King Road قريبا من بريستول Bristoll في اوائل شهر مايه لسنة 1552، وكان ذلك صبيحة يوم الاثنين، وفي يوم الاثنين التالي الرابع عشر من الشهور القمرية، رسا اسطولنا صباحا عند اول مرسى في طريق زفيا Zafia أو آسفي Asafi الواقع على الشاطىء المغربي بدرجة 32 من خط العرض، وهناك افرغنا جزءا من بضائعنا، لينقل برا الى مدينة مراكش، ولما تم ذلك وتزودنا بالطعام والماء، اتجهنا الى المرسى التالي، الذي يدعى سانتا كروز Santa Cruz حيث أفرغنا ما كان قد بقي من بضائعنا، التي كانت تحتوي على اجود الثياب الصوفية والكتانية، والمرجان والعنبر، والكهرمان وأشياء أخرى مختلفة الانواع، مما اعتدنا المغاربة يتقبلونه قبولا حسنا .

وفي طريقنا وجدنا سفينة فرنسية، ومن غير ما تعلم ما اذا كان بين فرنسا وانجلترا حرب او سلم، اتجهت تقترب بكل ما تستطيع الى اسوار المدينة، ملتمسة مساعدة المدينة في الدفاع عنها، اذا ما احتاج اصحابها الى ذلك، وفعلا فانها لما رأتنا نقترب منها، اطلقت قذيفة من اسوارها، انطلقت فرق ربان السفينة (ذي لين) بين دقلها الرئيسي والاخر الموضوع على مقدم السفينة مما جعلنا نشرع في الاقلاع، ولكنه في الحال اقترب منا قارب بقصد ان يعرف من نحن، فعلم اننا كنا من قبل بسنة هنا، وقد حصلنا على اذن صالح من قبل ملكهم (محمد الشيخ السعدي) بالاتجار معهم، فاقتنعوا تماما بذلك، ومنحوها رخصة احضار بضائعنا الى الشاطىء، وافراغها بسلام هناك، على حين كان العامل (على المدينة) سي بلمانتش Sibill Manache آتيا بعد برهة قصيرة بقصد زيارتنا، فعاملنا بمنتهى الشهامة، ولكن لاسباب متعددة، بقينا هناك قريبا من ثلاثة اشهر، دون ان نستطيع الشحن من هناك ثم شحنا السكر، والتمر، واللوز، والدبس، وشراب السكر.

وبالرغم من الحرارة التي كانت مرتفعة هناك في فصل الصيف، فانه لم يمرض احد من رفاقنا مرضا منهكا .

ولما انتهينا من شحن سفننا اتجهنا الى عرض البحر، منساقين مع الرياح الغربية نحو انجلترا، ولكن بينما كنا نمخر عباب البحر واذا بالسفينة (ذي لين) يقع خرق عظيم بها، فاتجهنا بسبب ذلك الى لنسروطا Lancerote وفورتيفينتورا Forteventura حيث كان طرقنا بين جزيرتين (من الجزر الخالدات) الى أن رسونا، وانزلنا الى البر سبعين غرارة محملة بالسكر، بساحل لنسيروطا، مع اثني عشر او ستة عشر من رجالنا، فظن السكان ان

هناك غشا ارتكب فيما تحتويه سفننا، ولهـذا دهمونا مع قوتهم، وكنت انا من بين أولئك الرجـال الذيـن وقعـوا أسرى بأيديهـم، فاستاقونا سجناء وانتهبـوا السكـر الذى كنا افرغناه من السفينة المذكورة، ولما حصل هذا بمشهـد من رجالنا الذين بقوا على ظهر سفننا، ارسلوا ثلاثة قوارب مجهزة من أجل تخليصنا من اولئك الاسبان، الذين لجاوا الى الفرار، فقتل رجالنا منهم ثمانيـة عشـر، وأخذوا حاكم جزيرتهم أسيرا، وكان رجلا مسنا جدا، فى نحو السبعين من عمره، غير انهم وقد اوغلوا فى مطاردة العدو، مبعدينه عنا من اجـل خلاصنا، احتاجوا الى البارود والسهام، فلاحظ الاسبان ذلك، وعادوا كارين، فذبحـوا مـن رجالنا المنهزمين ستة، وحينئذ حصل التفاوض بيننا، انتهينا فيه الى هذا الاتفاق، وهو ان يطلق سراحنا نحن الاسرى عندهم مقابـل تسليمنـا لهـم حاكمهم الشيخ، كما انهم تعهدوا لنا كتابيا، بتوقيع حاكمهم وتوقيعهـم، بأن كل ما تلـف لنا يغرم من قبلهم، وبذلك عوضت لنا تلك الاضرار التى وقعت علينا تعويضا حسنا، بواسطة تجار ملك اسبانيا، حينما كنا عائدين الى انجلترا .

وبعد ما كنا قد بحثنا عن مصالحنا، ورممنا سفينتنا، عدنا الى الابحار بسفننا وبينما كنا نتجه الى عرض البحر، محاذين جانبا من جوانب الجزيرة اذا بالسفينة كاكافويجو Cacafuego وسفـن أخـرى مـن قوات ملـك البرتغال تدخل الناحية الاخرى منهـا، آتيـة لترسـوا بنفس المكان الذى رسونا فيه وغادرناه منذ لحظة، فقذفوا قذائفهم العظيمة على مسمع منا.

وفـي طريقنـا هنا علمنـا ان البرتغال كانوا مغتاظين جدا من معاملتنا التجاريـة هـذه التـى عاودناها مع المغرب (لانهم كانوا يعتبرونه من مناطق نفوذهم التى منحها اياهم البابا سنة 1494، حيث قسم العالم كله بينهم وبين الدنيا الجديدة، وبذلك كانوا لا يسمحون لاحد بالاقتراب من مناطق نفوذهم خصوصا الانجليـز) وفى كلتا رحلتينا، بالسنة الفارطة وهذه السنة، كانوا قد اشاعوا فى انجلترا بواسطة تجارهم، أنهم ان تمكنوا منا بهذه النواحى فانهم سيعاملوننا كاعـداء تهدر دماؤهم، متوعدين ومهددين، ولكن بعناية الله وحسن تدبيرنا، فقد نجونا منهم .

وبعـد ما ابحرنـا من هذه الجزيرة قاصدين انجلترا، قضينا سبعة او ثمانيـة اسابيـع استطعنا بعدها الوصول الى شاطىء انجلترا، واول ميناء دخلناها كانت مرفأ بليمـوث Plimmouth من حيث اننا بعد وقت قصير كنا قد أتينا الى نهر Thames فـأفرغنـا بضائعنـا بلندن، اواخـر شهر اكتوبر سنـة 1552 .

وورد في رسالة نيقولا ثروكمرتن Nicholas Throckmorton سفير انجلترا بباريس الى وليم سيسل بارون برغلي William Cecil ما يأتي :

سيدي، كان معي رجل برتقالي يدعى القبطان ميلتشيور Capten Melchior (1) وهو شيخ في نحو الستين من عمره، سبق ان كانت له معاملة في بلاد البربر والنواحي المتصلة بها، كما ان له تجارب عظيمة في الملاحة وطرقها، ومن اجل ذلك كان قد اوفد من قبل الملك السابق، الملك فرنسيس King Francis وملك فرنسا هنري، ومنذ ان توفي هذان الملكان التحق بخدمة ملك نبرة (2) الذي يتقاضى منه سنويا مرتبا قدره مائتا كرون (خمسين جنيها) ولهذا فانه غير راض عن معاشه الذي لا يفي بحاجاته هو وزوجه واولاده، وحتى هذا فانه لا يظل كما هو، ولهذا فانه راغب في ان يترك عمله هذا ويلتحق بخدمة في مكان آخر وحيث إنه لا يريد ان يستخدم في امر لا يستطيع ان يقوم به تماما، ولا يأتي بنتائج طيبة يطمأن اليه فيها فانه افضى الي في كتمان شديد مع مناشدة ألا يطلع على ذلك احد الا صاحبة الجلالة الملكة والخلصاء من وزرائها بمعلومات عن اتجار، سيكون مربحا ومثمرا بالنسبة الى بلادنا التي هي اليوم لا تتاجر مع الآخرين وقد قضى هذا الرجل كما قال، اثنتى عشرة سنة في البلاد السوسية والمراكشية والفاسية، استفاد خلالها خبرة بهذه الاقطار ومعرفة بداخلها، واطلاعا على السلع التي يمكن جلبها منها، والتي يمكن ان يكون لها رواج عظيم في اسواقها، وتدر أرباحا طائلة، وهذه السلع يطلبها الناس من الهند وغينيا وبنين (3) البلاد الشاقة الطرق والخطيرة بحرارتها (خصوصا بالنسبة لشعبنا الذي لم يخبر هذه الاحوال كما خبرها البرتقال الذين سبق ان امتحنا بهم) فهذه الرحلة كما يقول، ليست شيئا من حيث ذلك البعد او تلك الخطورة، ثم انها ملائمة في سائر ايام السنة، ويمكن جلب اعظم السلع قيمة من هذه النواحي، باستثناء الفلفل الذي يأتي من غيرها ولا ينافسنا في ذلك غيرنا من الاسبان والبرتغال، الذين ملوكهم في حرب مستمرة مع هؤلاء الامراء، ولهذا لا يمكنهم ان يتاجروا مع هذه الاقطار في امن وسلام .

1) يهودي تسمح وكانت له أدوار قام بها لبعض الدول الاوربية خصوصا ما كان منها بالمغرب، ويلاحظ في جميع مراحل العصر السعدي ان مثل هذا الرجل من اليهود، سواء ظلوا على يهوديتهم او تظاهروا بغيرها : كانت لهم مثل هذه الادوار

2) هو انطوان دي بوربوا الامير الفرنسي المستقل باقليم نبرة والمتوفى في الحروب الدينية سنة 1562

3) يريد مملكة بنين Benin بنيجيريا وفي النص هكذا Bignie ويلاحظ اننا اذا اثبتنا الكلمة في صلب الترجمة، نحافظ على شكلها كما هو مثبت في النص الاصلي، وان كان ذلك يخالف قواعد الاملاء المعروفة الآن .

ويوجد بهذه البلاد بكمية وافرة، الذهب، والنحاس الشديد الحمرة، وهو اجود ما يصنع به المدافع، ولا يوجد مثله في البلاد الاخرى، والسكر، والتمر، والصمغ العربي للبزازين، والعنبر، والشمع، والجلود التي تتخذ للباس، والخيول التي هي اجود من خيول اسبانيا، اما الاشياء المطلوبة هناك ولها رواج عظيم في الاسواق، فهي، كما يقول، القصدير، وشفر السيوف، ورماح الحرب، من النوع الطويل ومجاذيف السفن، والحديد، والاقمشة الصوفية السميكة، الزرقاء والباهتة، مما بعضه يعتبر من سلعتنا الاساسية، والذي نحن في حاجة الى تصريفه في الخارج، ولهذا فان الرحلة الى هذه البلاد ستكون مجدية علينا، واكثر ملاءمة لنا من غيرنا .

والملك هنا، كما يقول، سياخذ ثلثي القصدير بثمنه الذي هو 15 دوكة للمائة، مع الاعفاء من كل الرسوم الجمركية والضرائب التي تفرض على البضائع، أما الثلث الباقي فيمكن ان يباع كما يراد وهو على العموم، يساوي 30 دوكة للمائة، وتساوي الرماح والمجاذيف، كما يقول، دوكين اثنين على الاقل للواحد، وتباع هنا شفر السيوف بأغلى الاثمان .

وبعد فهو يعرض على جلالة الملكة، او التجار او غيرهم، ان يرسلوا الى تلك الجهات، سفينة لا تزيد حمولتها على مائة طن، أو اقل او تزيد بقليل لاختبار عرضه وان يمضي هذا بدون اذاعة الخبر، او اظهار له، بادىء ذي بدء، وسيذهب هو بنفسه في تلك السفينة، فيدل على الطريق ومواطن الاتجار ويرغب في ان يصحبه بعض الاشخاص الماهرين في الملاحة، ليطلعهم على ما يفيدهم في هذه الرحلة، ويودعهم معلوماته التي يستفيدون منها بعد مماته،، وذلك ما يلقيه عليهم خلال هذه الرحلات التي يشارك فيها بقية حياته كما انه يرغب في ان يصاحبه بعض المهرة من التجار، حتى يطلعهم كذلك على ما يمكن ان يستفيدوه في هذه الرحلة، جيئة وذهوبا، من الفوائد التجارية

وهكذا، وقد ادى للدولة كثيرا من الاعمال، ان كانت ستصادق على ذلك، فيدعى للقيام بأعبائه، فانه حينئذ يرغب في ان يكافأ على خدماته، بأن يرتب له معاش عند عودته، يناسبه حسب ما يظن انه يفي بحاجاته، او يؤدي له ما يحتاج اليه سنويا، ويسره ان يكافأ على عمله دفعة واحدة ثم يخلي طرفه .

ويعود فيذكر ان هذا الامر يجب ان ينفذ بكل كتمان مستطاع، لان ملك البرتغال، وهو يعلم كفاءته في هذا الاتجار، ويخشى ان يمكن ملكا آخر من هذه التجارة (حيث انه يمني نفسه بأن يكون له في المستقبل اتجار مع

هذه البلاد) لابد ان يحاول بعدة وسائل شل هذه الحركة، ولهذا فانه لن يقطن فى البرتغال ويخدم الملك المذكور، وفى حالة ما اذا علم هذا الملك بعرضه، فان ذلك سيثير عليه سخطه الشديد، ويزيد فى عدائه له.

سيدى، ان كان سيسر صاحبة الجلالة ان تجرى هذه التجربة، او جماعة من التجار، مثل السيد العظيم للندن الذى هو الآن (السير وليم تشتر Sir William Chester) والمستر كريط Garret وغيرهما، فان ذلك لن يتطلب اكثر من ارسال سفينة صغيرة محملة بالبضاعة المذكورة، وصاحبنا يعرض ان يذهب بنفسه فى هذه السفينة، ولا يعنى هذا الا أن يكون ذا قصد حسن فى هذه القضية، كما انه يصطحب معه برتغاليا آخر من أحسن النوتية فى العالم، كما يظن، وفى حالة ما اذا كان المشروع سينفذ، فانى ساعين ستريتويش وهو (نوتى برتغالى) ليكون الرجل الذى يرافقه فى هذه الرحلة، ويدرس الوضعية التجارية هناك، وهو مع هذا ذو خبرة عظيمة فى الملاحة وشؤونها، ويستطيع تماما ان يسافر فى هذه الرحلة، ويكون الرجل الذى ينال رضاه اكثر من غيره .

ويرغب القبطان ملتشيور ان يجاب فى هذه القضية باسرع ما يمكن لان ملك نبرة قد وعده بأن يسند اليه بعثة يتجه بها الى فرنسا التى هى الآن على اتفاق معه، وهو لا يريد ان يربط نفسه بذلك اذا هو ارتبط بهذا العمل لانجلترا، فأرجوك ان تضع هذه القضية موضع العناية، وان تفيدنى فى العاجل بما يجب اتخاذه فيها حينئذ، لان الوقت كما يبدو لى ملائم الآن للقيام بهذه الرحلة، وحسبما هو معروف عنه، فانه سيظل يؤدى عمله لك بأمانة واستقامة، وهناك لا يمكن ان يضيع لنا شىء، وان كان سيعطى مرتبا محترما، الا يكن من صاحبة الجلالة الملكة، فانه سيكون من التجار، لان ذلك لا يأتى الا بتنمية تجارتهم، وحينئذ فان قبوله للعمل فى صالحهم وعلى الاقل، فانه سيعلم الاخرين شؤون التجارة والملاحة فى الرحلة الى هذه البلاد، وبما انه عرض ان يذهب بنفسه، والتزم ان يضطلع بذلك، قبل ان يكون قد حصل على شىء منا، فيبدو لى ان عرضه لابد ان يعار جانبا عظيما من الاهتمام، ثم انه بالاضافة الى هذا كله، فالرجل فى هذه السن لن يعيش طويلا، بالرغم من كونه قوى البنية وله زوج واطفال، هم الآن مع ملك نبرة، الذى على الاقل قد منحه بيتا صغيرا يأويه وعائلته، وقبل الذهاب الى هناك فانه سيحاول ان يجعل الملك المذكور يوافق على سفره الى الخارج، ولكن ليس الى المكان الذى سيذهب اليه، ويرى الا يزعج عائلته بالانتقال من

مسكنها بنبرة، حتى يرى مدى الاقبال الذى سيكون علـى هذه الرحلة، التى ستشجعه على الحياة فى انجلترا.

اما الميناء التى سيتجه اليها بسفينتـه، لينزل الى البر منها، فهى لا تبعد عن المضيق (لجبل طارق) الا بخمسين ومائة غلـوة، ومن هناك يصعد فى النهر (4) نحو اربع عشرة غلوة وبالنسبة الى هذا النهر فان السفينة التى تجرى فيه يجب ألا تزيد حمولتها على مائة طن .

ولا بد ان يحتفظ بكتمان هذا الامر عن السفير الاسبانى والاسبان وكذا البرتغال وربما تسأل، كيف يتأتى لهذا البرتغالى ان يقوم بهذه الرحلة الى تلك البلاد، مـع انه برتغالى، وان جنسه البرتغال فى تطاحن وعداء مستمر مع هؤلاء الامراء ؟ وهو يجيب عن هذا فيقول، انه كان وزيرا (ممثلا) لفرنسا هناك فيما مضى، وكان الفرنسيون قد عقدوا معاهدة مع هؤلاء الامراء، وبسبب ذلك فانـه ليس معروفا جدا ومحبوبا فحسب هناك، بل انه ايضا مصرح له بأن يأتـى الى هـذه البـلاد ويتنقل فيها حيث شاء، وقد اطلعنى على صك التصريح له بالتردد على هذه البلاد .

وفضلا عن ذلك، فانه قال لى، بناء على حديث جرى مع الامير هناك، ان هذا الامير راغـب فى ان نجلب الى بلاده قصديرنا، ورغبته فيه تفوق أية رغبة له فى بضائع اخرى .

فان وافقت على هـذا الموضـوع، وانـت الآن على علم بنوع السفن والبضائع التى تلائم هذه الرحلة، فلا يبقى الا ان تهيىء ذلك وتنتظر قدومه وحينما يكون كل شىء قد انهى انجازه، فانه سيتجه اليك عند الاخطار، بينما يربح الوقت، ويتم كل شىء فى جو من الكتمان .

باريس فى التاسع والعشرين من ينيه 1561

اوراق مـن تـاريخنـا مجهولـة :

قـال صاحب نزهة الحادى «وذكر بعضهم ان السلطان مولاى عبد الله لمـا رأى عمارة ترك الجزائر وسفنهم لا ينقطعون على حجر بادس، ومرسى طنجـة، وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية، ان يعطى له حجر بادس، ويخليها من المسلمين فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغـرب، ولا يجدون سبيلا اليه ، فنزل النصارى على حجر بادس، واخرجوا المسلمين، ونبشوا قبور الاموات، واحرقوها، واهانوا المسلمين كل الاهانة...»

---

4) غير واضح تماما النهر الذى يعنيه بهذه المسافة

وبعد ما سرد بعض ما اخذ على السعديين من اغلاط، قال «وهذه امور شنيعة ان صح انه فعلها، ولست ادخل في عهدتها. **انما رأيتها في اوراق مجهولة المؤلف ...**»

هكذا بقيت هذه الصفحة من اخطاء السعديين غامضة في تاريخ المغرب او «يظن أنها من وضع بعض اعدائهم»، كما يقول اليفرني... وسواء أكان ذاك ام هذا، فان قائد السفينة الانجليزية، التي شاركت في هذا الغزو، وهو روبرت كولان Robert Cullen يلقي أضواء على القصة، فيما كتب به الى سفيره، او رئيس البعثة الانجليزية بمدريد طومس تشمبرلن Thomas Chamberlen يقول في رسالته المؤرخةبسادس غشت من سنة 1563

لعله مما يسر سيادتكم، ان تذكروا انه بسبب ان ضون فرانسيسكو Don Francisco «مندوثا، امير البحر الاسباني» قد مرض على اثر عودته بخمسين سفينة حربية من بادس Pinion بقيت تجاه مالقة، فقد ذهب ضون سانتشو دي ليفا Don Sancho de Leva ليحل محله كقائد أعلى.

لقد فصلنا من مالقة في اليوم الثاني والعشرين من يليه، وفي اليوم التالي بعده اتينا الى جزيرة صغيرة، تبعد عن مالقة بخمسة عشر عقدة غلوة (45 ميلا) تدعى بديسربولاطا Disarbolata (هي جزيرة البران Alboran ومن هناك كانت قد ارسلت ثلاث بوارج الى مليلية لتقل الحاكم بها، مع 60 جنديا بصحبته، فأتى بعد مضي أربعة ايام، وفي اليوم التالي سافر، وفي يوم الاربعاء على الساعة الرابعة صباحا، وكان اليوم الثامن والعشرين من يليه، كنا نمر امام حجرة بادس، غير عالمين اين كنا. فمررنا امامها على بعد ثلاث او اربع غلوات، وفي مقابلتنا كان اليوم مشرقا، فاكتشفنا وعلى اثر ما كتشفنا غادر كل السكان من مغاربةويهود البلدة(5) واسرعو نحوالربى فاجتزنا الحجر - بادس - بغلوتين، حيث نزلنا الى البر فجاة، باربعة آلاف رجل، وبالتدريج تجهزنا للزحف على بلدة بادس، حيث تقع على 7 اميال منا، وكل المسافة عبارة عن مرتفعات قاحلة ليس بها قطرة ماء، فوصلنا الى بادس حوالي منتصف النهار، فلم تجد احدا هناك، وشرع في النهب، وكان ما ينهب ذا قيمة زهيدة، لانه لم يكن هناك لا مغاربة ولا مال، ولكن السمن والملح والقمح والدجاج وماشية وثيران وعدد عظيم من الجلود الجيدة، الى جانب كثير من حجر الشب.

5) اي بلدة بادس، وكلمة بادس مؤلفة من به + دس : اي راس الفرس

وكان في المكان الذي افرغنا فيه شحنتنا، قد ترك للحراسة 300 رجل مع قائد قبطان، وقد شرعنا نتجه الى الربى نصعدها علنا، ثم اتى جماعة من المغاربة كانوا لا يتجاوزون 50 من الرجالة وفوق 10 من الفرسان، جعلوا شجعاننا 300 من الاسبان يهرعون الى الفرار، وقتل نحو 140 منهم، ولم يوخذ احد منهم حيا، ولكنهم مزقوهم كل ممزق، وكان قائدهم احد الفارين الاولين منهم، وقد ترك لواءه وسيفه، مما جعل القائد الجنرال فيما بعد حين يطرده من فرقته مع اعظم عار وخزى ناله ونال الاسبان .

وفي نفس الليلة، بسبب ان السفن بقيت بدون رجال متروكة، فقد ارجع الى بادس فرقتان، وقبل ان يصلوا الى السفن كان المغاربة قد هجموا عليهم وجعلوهم يفرون بعيدا، الى داخل البحر، الى القوارب، ملقين بأسلحتهم بعيدا حتى يتمكنوا من الجد في الفرار، وقد قتل منهم وجرح نحو 30

وستدرك سيادتك ان الحجرة - بادس - صخرة عالية في البحر، حيث تكون جزيرة تقع امام بادس، من حيث يمكن ان يرمى الى كل ناحية من نواحي البلدة، وانها ليست قوية، حصينة، بحيث انهم لم يكونوا قد جروا اربع قطع من المدفعية اليها، و 50 رجلا، وقد اعتقدنا جدا اننا سنذهب اليها في طريق مستقيم، ونظرنا ساعات حينما كانوا سيحضرون المدافع الى الارض، لتلم نقب اسوارها، وفي اليوم الثاني شرع المغاربة يجتمع بعضهم الى بعض فوق الجبال، حيث كان منظر رهيب، وكان رئيسنا الاعلى الجنرال مع رئيس المعسكر، يشاهدانهم في هلع بالغ، فلم يتقدموا اكثر للاستيلاء على الحجرة، ولكنهم شرعوا يدرسون ويتشاورون فيما بينهم، كيف يستطيعون ان يبحروا بالجنود، اما ان نعود الى حيث كنا فانه لم يكن في مستطاعنا، لان المغاربة كانوا قد استولوا على الممر الذي كنا قد سلكناه حينما نزلنا الى البر.

وفي صباح يوم الجمعة، كان اتى الى قمم الروابي نحو 8000 من المغاربة رجالا وفرسانا، وبعد قليل استحث الجنرال قطعة من الاسطول لتاتي وتصوب نحو الحجرة قذائفها، ثم اركب الفرسان والعساكر، وفي الليل كانت قد اتت كل الفرق تقذف الحجرة، حيث اركب كل العساكر، واتينا الى طريقنا مع اعظم خزى وعار .

سيدي، ان الاسبان يزعمون انهم ليسوا الا شجعانا، على حين انهم في الواقع جبناء جدا، وهنا في مالقة قد وصلنا، ثاني يوم من غشت، وبقينا بناء على اوامر الملك .

وهنا قد قتل وجرح نحو 300، وليس خمسين مغربيا، وقد توفى ضون فرانسيسكو Don Francisco والاخبـار هنا ان جـون اندرى John Aradrea (حفيد اندرى دوريا Jean Andre Doria) قد سمه فى مأدبة اقامها له اخو جون أندريا فسيادتك ستدرك الحقيقة اكثر توسعا .

مالقة سادس غشت سنة 1563

فمن هذه الرسالة ندرك انهم لم يتمكنـوا اولا من احتلال حجر بادس، وانهم قد وجدوا البلـدة خاليـة مـن سكانهـا، لا الحجر، كما ذكر اليفرنى معتمدا على تلك الاوراق المجهولة، ونقل عنه الناصرى فى الاستقصا، وانهم لاقوا مقاومة ـ فيما بعد من المغاربـة، وواضح ان هذه المقاومة كانت شعبية، ليـس فيهـا من الادوات الحربية التى كان السعديون متوفرين عليها، ثم ان الرسالة لم تشر اقل اشارة الى عبد الله الغالب ولا الى قواته، مما يؤيد انه كان على اتفاق سـرى مـع انجلتـرا صديقته، فى هذه الحملة وان صاحب الاوراق كان علـى صدق فيمـا قال من انه اوعز الى الطاغية الاسبانى، بأن يحتل المكـان بعد اخلائه من سكانه، حتى يأمن بذلك هؤلاء الترك الذين كان معهم فى حرب مستمرة، منذ ست سنوات، ويذكر المؤرخون ان الغالب، كان قد عزم من قبل بسنة واحدة، على استرجاع الجديدة، وفعلا حاصرها رجاله بقيادة ابنـه محمـد (المعـروف فيما بعد بالمسلوخ) فتمكنوا من التغلب على حاميتهـا، التـى استعـدت لمغادرتها فشرعت تركب السفن، الا أن أمرا من من الغالب ورد بالافراج عن المدينة، والنهى عن احتلالها «فتراجع النصارى اليها، بعـد ان ركبـوا البحر عازمين على الجلاء عنها، مما يدل على انه كان يبرم مع القوم من اسبان وبرتغال، اتفاقيات سرية ضد هؤلاء الاتراك الذين اغتالوا ابـاه، وهـددوا بلاده، واندسوا حتى فى جنده وجند اسلافه والذين خلفوه فى ملكه ...

ولا يعنينا ان كانت انجلتـرا، على علاقة حسنة مع سليمان القانونى، فذلـك ما لا يقـف حجر عثرة دون فهم هذا الموقف العدائى ـ سرا ـ ازاء الاتراك، فالديبلوماسية لا قلب لها، فالملكة اليزابت التـى وقفت هذا الموقف المختفـى ـ ولا شك ـ هى نفسها التـى ستحارب فيما بعد، ملك اسبانيا فيليب الثانى، الذى كان صديقها وزوج اختها مارى الملكة قبلها، والذى كاد ان يوفق فى الزواج بها، بعد موت اختها، وكذلك كان السعديون بصفة عامة ينسـون قلوبهـم ومـا تمليـه عليهـم تعاليـم دينهم، اذا ما اقتحموا مرسح

الديبلوماسية، وارتدوا الاردية التي يمثلون بها ادوارها، وان لم تكن مفهومة المغزى، لمن كان يشاهدها من رجالنا.

ومهما يكن فان هؤلاء الاسبان استأنفوا فيما بعد حملات أخرى بقصد احتلال الحجر الذى كان عبارة عن جزيرة صغيرة كما فى التقرير (6) وشاركت فى هذه الحملة امم مسيحية عديدة كما سنرى، واخيرا استطاعوا احتلال الجزيرة سنة 1564 وجلا عنها الاتراك (7) ومن المفيد أن نأتى ببعض البلاغات والتقارير التى وردت فى هذا الشأن خلال هذه الفترة واثر الاحتلال نذكرها حسب الترتيب الزمنى .

***

فمن رسالة طوماس تشالونار Thomas Chloner (من رجال الديبلوماسية الانجليز) الى اليزابيث، يقول فيها :

ان الاتراك، كما فى الرسائل الواردة أخيرا من القسطنطينية، كانوا قد زحزحوا الى (أدرنة) اثر مطاردتهم، وحيث انهم لا يبعثون بسفنهم المسلحة الى الخارج، هذه السنة، فالمفهوم ان هؤلاء الناس ــ الاسبان ــ قد شرعوا منذ مارس الاخير فى القيام ببعض الاستكشافات البحرية، التى احتفظ جدا بسريتها، ومع هذ فقد علم من بعض رجال الرأى فى القصر هنا، ان المتبادر الى الاذهان، هو ان هذه الحملة ستتخذ ضد بعض قطع (الاسطول التركى) فى بلاد البربر، اما (بوغير) ــ بالجزائر ــ واما (كما يظن غالبهم) حجر بادس ــ بالمغرب ــ اما عدد (الرجال الذين سيشتركون فى هذه الحملة) فسيكون عشرة آلاف او نحوها، اعنى ثلاثة آلاف من الالمان، وثلاثة آلاف من الطليان، واربعة آلاف من الاسبان .

من مدريد يوم الجمعة ليلة التاسع من يِنيه سنة 1564

***

ومن رسالة ليونرد تشلطون Leonard Chilton الى طوماس تشالونار يقول فيها :

على قدومى الى سفرة Saffra (8) حيث مكثت ليلة ونصف يوم، سلمت رسائلك الى الكوندى والكنديسا، فتسلمت بشكر عظيم.

6) قد اتصلت الجزيرة بالشاطئ، سنة 1934 اتصالا طبيعيا كما هى الآن

7) احتلها الاسبان لاول مرة بتاريخ 23 يليه سنة 1508 ثم اجلاهم عنها الاتراك بتاريخ 20 دجنبر سنة 1522

8) يريد بها Zafra فى اقليم بدخوس Badajoz

وفيما يتصل (بالاسطول الاسباني) Armada العظيم، الذي يتحدث عنه كثيرا هنا، فليس هنا اى تعبئة بالمرة، وكل ما عمل من استعداد انما كان بناحية مالقة، اما اتجاه السفن، فليس هناك اية سفينة قد رسمت لذلك غير ان رأى الكثيرين هو انهم سيتجهون الى بادس غمارة، وحجر (بادس) او الى بوغيا ايضا، ولكن الحقيقة حتى الآن غير معروفة هنا، وكل ما يقال هو ان حملة عظيمة قد اعدت للزوم وان اسلحة قد اتخذت استعدادا للحرب .

من قادس فى الثامن عشر من يليه سنة 1564

***

ومن رسالة اخرى له الى نفس الشخص يقول فيها :

اكتب اليكم اخيرا، بان ضون غرسيا دى طوليدوDon Garcia de Toledo قدم باسطوله الى هنا، حيث مكث يومين فقط، وكان قد فصل به من مالقة يوم 28 من غشت، ويتكون من 29 سفينة و 15 قاربا، مع عدد آخر من السفن فى احسن جهاز من المدافع والاسلحة، لفتح بلاد البربر كما قد كتب الي من مالقة، اما كيف يكون ذلك ؟ فانى ارجح انهم سيرجئون فتح قسم منها الى وقت آخر، ولكننا على علم تام بأنهم ذاهبون الى بادس، الله يرسل عليهم نصره المبين .

من قادس فى الثانى من شتنبر سنة 1564

***

بلاغ من اسبانيا

من رسائل واردة من اسبانيا بتاريخ 5 شتنبر سنة 1564

ان عدد الرجال والعدة لغزو حجر بادس، بلغ هكذا : 30 سفينة كبيرة و 60 سفينة متوسطة، و 11.000 راجل و 400 فرس، و 400.000 زوج من الاحذية المظفورة، مع سلاليم، وباقى الاشياء الضرورية من المعدات الاخرى من ازودة، وذخائر حربية متنوعة، واسلحة لازمة .

وبعد هذا البلاغ نعثر على تقارير مفيدة ومفصلة فى الموضوع :

من اهمها تقرير من القبطان فرانسيسكو هيراسو Francisco de Heraso الى فيليب الثاني يقول فيها :

لقد فصلت الحملة من مالقة، في اليوم الثامن والعشرين من غشت 1564 وفي تلك الليلة كنا قد رسونا عند طري دي موليتو (9) Torre de Molinos وفي الصباح التالي، عند وضح النهار، استأنفنا رحلتنا بدون الاسطول البرتغالي والاسطول المالطي اللذين كانا قد اتجها الى ناحية الغرب ليتصلا مع اعظم غليون (10) للبرتغال، كان ينتظرهما مع بعض المراكب والسفن الاخرى الصغيرة .

وفي يوم الثلاثاء، صباح آخر يوم من غشت، وكنا على بعد ثلاثين ميلا من بادس، غادرنا الشاطىء الاسباني، وتوسطنا البحر متجهين الى بلاد البربر، على حين كان اولئك على الشاطىء يقومون بالمراقبة، وما ان تمكنوا من مشاهدتنا، حتى أطلقوا بعض القذائف من قطع مدافعهم، ليخطروا باقي السواحل المغربية، ولكننا استمرنا في اتجاهنا، بدون توقف طويل، الى ان اقتربنا من القلعة (11) بعد ما وضعنا الحراسة من خلفنا، بحيث كنا على اتصال بها، فاتجهنا جميعا الى المكان الذي كان يصدر به ضون غرسيا اوامره الى جميع الزرازير (12) التي هي عبارة عن القوارب، التي توجه الى الشواطىء، وعلى كل منها عساكر، يحملون معهم بنادق من نوع Musquettes وقد صدرت اليهم التعاليم، بانه على اثر ارسال طلقة من القطع المدفعية الكبيرة، عليهم أن يرجفوا الى الشاطىء ويقتحموا البر. وهكذا تماما صدر الامر بالنزول الى كل القوات الباقية وكان كل جندي مزودا بما يلزمه من المؤن ايام الجمعة والسبت والاحد، وفي نفس الوقت كانت كل سفينة ينزل منها غرائر البسكويت، وستة عشر زقا من الماء، ولما انتهى كل ذلك اتجهنا يوم الخميس نحو الحصن، وشرعنا في حفر الا بار ايضا، للتزود بالمياه، وفي نفس الحصن غنمنا بعض القطع المدفعية الكبيرة، وثبتت على قصر القلعة قطعتان للحراسة، يصحبهما ستمائة جندي، لهذه الغاية .

وفي يوم الجمعة ليلا، كان الحصن قد استولى عليه، على حين كان كثير منا لقوات قد نزلت الى البر وخيمت تلك الليلة هناك .

---

9) Torremolino

10) Galeón مركب اسباني قديم ذو ثلاث غرف

11) مرسى على مقربة من بادس

12) وردت الكلمة في النص هكذا Skyfe والمراد بها Skiff الزورق

وفي يوم السبت، كان البحر قد ارتفع جدا، لدرجة اننا لم نستطع انزال باقي الزاد الى البر، ولهذا كنا مضطرين للبقاء حيث كنا، بدون ان نتقدم اية خطوة من هناك، وفي هذا الوقت وصلت سفن البرتغال ومالطة، مع الغاليون (السالف الذكر) وكان مما يرضي الله، قبل غيره، ان هدأت العاصفة، فتمكنا من افراغ متاعنا، ولو انه قد تحملت بعض المشاق لانزال تلك الاشياء، التي كان انزالها الى البر ضروريا لنا .

ولما كان يوم الاحد، استأنفنا الزحف الى الامام، وكان نظامنا هكذا، كانت كل الفرق الاسبانية مقسمة الى ثلاثة اقسام، قسمان منها كانا عبارة عن فرقة نابلي تحت قيادة ضون سانتشو دى ليفا Don Sancho de Leyva وفرقة لومبرد، تحت قيادة ضون لويس أوزوريو Don Luis Ozorio ثم الفرقة الاخرى الجديدة، التى كانت قد أوتي بها من اسبانيا، ولم يكن اصحابها قد مارسوا الحروب فيما قبل .

أما ضون سانتشو المذكور فقد قاد مقدمة الجيش، التى تقدمتها فرقة المعركة (القلب) مع العتاد، ثم تلتها فرقة الساقة، التى يتكون مغلبها من الالمان، مع ست مائة من الاسبان، الحاملين لبنادق هاكبوت .

ومعهم ستة مدافع للميدان، وقد كانت كل فرقة في احسن عدة ونظام، ومع الجناحين المجهزين ببنادق الهاكبوت المذكورة، وقد حصلت في هذا اليوم أعظم مناوشة مع الساقة اصيب فيها بعض الالمان، الا ان المغاربة لم يكن لهم فخر عظيم بذلك، ولم تستمر تلك المناوشة يوما كاملا، وانتهت بعدد من قتلى الطرفين، وقد وصلت المقدمة الى مرأى من بادس، فاكتشفت عددا مهما من الفرسان والرجالة، وحصلت مناوشة مع القوات التى كانت تظاهرنا فتركوا اماكنهم بعد دفاع قليل، وارتدوا بهم أسرى الى المدينة، ونفس الشيء حصل ايضا من الفرقة المعسكرة في الحصن، التى أقامت في معسكرها طاحونة، واستولوا على اربعة مدافع جدد، وقد استولى الالمان على الربوة، وحصنوا انفسهم فيها، أما الفرقتان الاسبانيتان الاخريان فقد استقرت بالوادى

وفي يوم الاثنين صباحا، ارسل ضون غرسيا مدمرة مع رجال عليها لاستدعاء (من كانوا في) الحصن، ولكنهم لم يدركوا اى اثر لهؤلاء الذين كانوا بداخله فيصغون الى خطابهم، وبذلك لم يحصلوا منهم على شيء الا على طلقات البنادق Arquebuzes المنبعثة منهم، فقدموا تقريرا حسب ما وجدوا ومن ثم صدرت الاوامر توا، الى إنزال بقية المدافع الكبرى .

وفي يوم الثلاثاء صباحا، شرعنا في القاء القذائف من ناحية البحر، مستمرين هكذا كل الصباح، وبعد الغذاء فعلنا نفس الشيء، ولكننا وقد

أدركنا ان مدفعيتنـا هذه، قد وضعت بحيث تبعد عنهم بعدا لا تستطيع به ان تصيب أحدا منهم، كما هو المطلوب، رؤى من الاحسن أن توضع ست قطع من المدفع الكبيرة قريبة من الحصن، وفوق قمة الرابية، وأخيرا كانت طيلة نهار الثلاثاء وليله تتقدم الطلائع مـع عـدد عظيـم من الجنود، لتمهيد المكان وجعله صالحا لتركيب القطع المذكورة به مع اضافة قطعتيـن اخريين اليها، فكان الجميع ثمان قطع مدفعية .

وبعد الساعة الثالثة من منتصف الليل، برز خارج الحصن تركيان، أسروهما، فالتمسا ان يوتا بهما الى الجنرال، ولما احضروا اليه، وصفا له حالة الاتراك، واخبـراه أن عددا عظيما من الكفار (يريد المسلمين) قد تركوا الحصن، وان هؤلاء الذين ظلوا به هم ايضا مستعدين لتسليم الحصن المذكور.

وفي يوم الاربعاء، كـان السيد جـان اندريا قد بعث للتفاوض معهم، وبعد مفاوضته معهم بوقـت قصير، تمكنوا من تسليم الحصن حيث بعثت توا الى جلالتكم خطاب الاعتماد، وأنا أشاهد لاول مرة، ما يزيد على ألف جندي من احسن جنودنا، قد استولوا على الحجر (بادس) وبالرغم من انه لم تكن هناك اية مهارة حربية في جميع الجيش، الا انه يتعجب من كون القلعة سلمت هكذا بيسر وفي هذا الوقت القصيـر، شيء لا يمكن ادراكه فيحكم فيه... ومن اجل اقامة حامية قوية (بالحصن)، وتزويده بكل ما يلزم من الضروريات، فقد اخذ ضون غرسيا هذا الامـر بكـل حكمـة وذكاء كما ينبغي، عازما في الحين على انقاذ خطـاب آخر الى جلالتكم، ليحيطكم بعلم اكثر تفصيلا، عن الكيفية التي تم بها انجاز كل شيء .

وبعدها تأتي رسالة أخرى كتبها الى الملكة اليزابث طوماس تشالوتار يقـول فيهـا :

وأخيرا فان السعي الذي ظل طويلا في طي الكتمان حول اعظم حشد للسفن، قد اسفر عن الوجهـة التـي كـان غالـب (الناس) يتحدثون عنها، بحرز وتخمين، فانه ما حل اليوم السابع من الشهر الحالي حتى تبين انهم وصلوا الى حجر بـادس بيـوم قبلـه فقـط، وحجر بادس عبارة عن صخرة عظيمة تبدو على مرمى البصـر من شاطيء بـلاد البربر، ولها اهمية عظيمة بالنسبة الى هذه البلاد، وهي واقعة غير بعيدة من جبل طارق .

وقد كان الجنـرال ضـون غرسيا دي طوليدو، أنزل جنوده الى البر وركب مدافعه، التـي استمـرت تقذف قذائفها في اليوم الاول، وفي اليوم التالي، كان التـرك والمغاربـة المتحصنـون داخل الحصن، قد فر قسم منهم

واسر، واستسلم منهم قسم آخر، وهكذا بعد مقاومة قليلة، كان النصارى قد تمكنوا من الحصن، وسرح الجيش، الذى كان غالب الناس هنا يظنون انه سيتقدم لاحتلال بعض الحصون الاخرى فى بلاد البربر، ولكنه على عكس ما كان يظن، قد سرح، كما رجعت القوات البرتغالية التى ساعدت فى الحملة الى بلادها، ولجات السفن الاسبانية الى اماكنها المعتادة، واتجهت السفن الايطالية بقطعها الخمسين كلها الى كورسيكا، تحت قيادة جون أندري دوريا، لمساعدة الجنويين على ابعاد جماعة سانت بيرو الكورسيكى عنها .

من مدريد فى السابع والعشرين من شتنبر سنة 1564

وهكذا تم احتلال حجر بادس سنة 1564، وهى نفس السنة التى حدث فيه الحادث الذى ننشر عنه وثيقة فيما يأتى :

كارثة مليلية

بعد ما كنا نشرنا بالعدد الماضى كتيبا عن سبتة، بعد سقوطها بيد البرتغال، ببضع سنوات، أحببنا ان نتبع ذلك بنشر وثيقة اسبانية تتصل بمليلية، بعد سقوطها بيد الاسبان، بنيف وستين سنة (13)

ومعلوم ان مليلية من مدن المغرب الفنيقية ثم الرومانية، كان اسمها فى القديم على عهد الفينيقيين ريساديرون Ryssadyron او روسادير Rusadir وكذلك فى عهد الرومان (14) ولما فتحها المسلمون على عهد موسى بن نصير، بنى بها قريبا منها او على ظاهرها، كما كان معهودا على العهد، الامير اليفرنى مليل، أحد القواد الذين كانوا مع ادريس بن صالح مدينة نسبت اليه، مليلية او مليلة، فعرفت المدينة باسمها الحالى، واختفى اسمها القديم .

وفى أوائل القرن الرابع، وقد بدأ الغزو العبيدى يهدد بنى امية، بعث عبد الرحمن الناصر باسطول عظيم احتل مدينة مليلية، ومنها صار يحتل بعض المراكز الحربية الاخرى، وبالرغم من ان مليلية كانت امارة بربرية، الا انها بحكم اتصالها بالامارة العربية بالنكور، امارة بنى صالح وبحكم تردد رجالها على الاندلس وتردد رجال الاندلس عليها، فقد ظهرت

---

13) سقطت بيدهم يوم 17 دجنبر سنة 1497

14) اختلف فى اشتقاق الكلمة والجمع على ان Rus بمعنى الراس اما دير فيقال بمعنى قدير وجمعها Dynor كما هو جمع السلامة فى قدير وقديرون، ويقال غير هذا.

بها ثقافة عربية مبكرة، كان من رجالها البارزين، خلف بن مسعود المليلي، واحمد بن فتح المليلي القاضي الاديب، كان من رجال القرن الثالث، معاصرا لبكر بن حماد بن سهل الزناتي التاهرتي، الشاعر العالم، وكان يقارن به علما ورواية وحفظ اخبار وشعرا ...

ظلت مليلية بعد ذلك والخمول يزحف اليها، حتى صرنا بعد القرن الرابع لا نجد لها ذكرا نابها في العلم والادب، بل صرنا نجد ذكرها عموما يختفي ولا يظهر الا في الفينة بعد الفينة، واحتلت مكانها من الشهرة والنشاط الثقافي، مدينتا سبتة وطنجة، بعد ما تعرضت النكور، التي كانت على صلة بها، الى سلسلة من الغزوات والفتن طيلة القرن الرابع، ثم لفظت هذه نفسها الاخير، اوائل القرن الخامس، على يد ازداجة جيرانها البرابر فخربوها وانطوت صفحتها البيضاء، فكان لهذا ولا شك اثره في خمول مليلية .

ومهما يكن، فقد استمرت مليلية جزءا من المغرب السياسي والعملي، الى أن كان عام 903 الذي توافقه سنة 1497 فسقطت مليلية بيد الاسبان، بعد سقوط غرناطة بخمس سنوات في يدهم، وسقوط سبتة بخمس وتسعين سنة، في يد البرتغال .

ومنذ ذلك التاريخ والمغرب حكومة وشعبا يحس بغصة خانقة، من جراء هذا الاغتصاب فتكررت المحاولات لاسترداد كلتا المدينتين، وكانت ابرز محاولة من قبل الملوك لاسترداد سبتة، محاولة المولى اسماعيل، ثم محاولة المولى اليزيد الذي الى عهد قريب كان له بسبتة تمثال رخامي موضوع على أحد أبواب مشافها الحربية، والى جانبه تمثال آخر لمدفعيه ـ وابرز محاولة لاسترداد مليلية، كانت من قبل المولى محمد بن عبد الله، ولكن كل ذلك لم يجد، لاسباب مختلفة، وما زال المغرب ولن يزال يطالب بالمدينتين .

اما الوثيقة التي أشرنا اليها، فهي احدى الوثائق التي صدرت كتقرير من حاكمها العسكري، واهميتها انها تطلعنا على ادوار خطيرة كان يقوم بها الاسبان بين المغاربة على ذلك العهد، كما تطلعنا على مدى روح التعصب الاعمى للكاثوليكية، ومدى الاجرام الذي كان يقوم بها رجالها في تلك المدينة، من اغتيال المتخلفين بها من المسلمين، والى جانب هذا كله، تطلعنا ايضا على مدى العقليات الخرفة التي كان يستغلها هؤلاء المتصوفون، واخيرا فان ذلك الزحف الشعبي ما هو الا مثل من مئات الامثلة التي ضربها المغاربة في سبيل استرداد جزء من بلادهم، غصب على حين غفلة من اهله،

كما غصبت سبتة من يد بنى الاحمر الذين اغتصبوها من المغرب. اما الاسبان فكان احتلالهم لمليلية امتدادا لحركة الاسترداد Reconquista كما يقولون ولهذا فمليلية تعد منهم حامية ظهر الجنوب الشرقى من اسبانيا، فالحقوها بمقاطعة مالقة، كما اعتبروا سبتة فيما بعد، وقد آلت اليهم، حامية ظهر الجنوب الغربى منها، فالحقوها بمقاطعة قادس، وهذه هى الوثيقة :

تقرير بيدرو فينيكاس القرطبى Pedro Benegas de Córdoba

بعد مرور خمسة عشر يوما من شهر ابريل المنصرم جاء قائد «بقوية» فى جمع قليل من الفرسان ليقتحم الميدان. وقد قلت ان عدد الفرسان كان قليلا بالقياس الى العدد الذى كان يصطحبه فى مناسبات اخرى. ولما خرجت الى الميدان فى ذلك الصباح أحسست فى نفسى وتوجست خيفة من الوقوع فى كمين فأصدرت الامر كما هى عادتى بأن يتجمع حملة التروس فى جهة معلومة وان لا يتفرقوا عند ما يهجم المغاربة ولو ظهر عددهم قليلا وان يفعل نفس الشىء اولئك الجنود الذين كان عددهم مائتين وكانوا مجتمعين فى خندق كما هى عادتهم اليومية عند ما توكل اليهم مهمة شق الطرق. وسرت مع خمسة من الفرسان الى موقع ارى منه مشارفنا حتى الاحظ ما اذا كان بعض الجنود قد أقدم على مخالفة نظام الجيش وكذلك اذا ما كان المسلمون قد قاموا بهجوم فاستطلع عددهم وعدتهم حتى اذا ما كانوا قليلى العدد كما يأتون فى بعض المناسبات بقصد قتل احد الخفر دون ان يتطاولوا لمناوشتنا، عندئذ نتمكن من التوغل فى الميدان ذلك اليوم للاحتطاب والتوفر على ما نحتاج اليه من المواد الضرورية. ومن الحق ان المسلمين المجاورين لهذه الحدود قد تعودوا حكمنا. فهم يقومون وان كان عددهم قليلا بأعمال يقوم بها عدد كبير من المسلمين الآخرين، ولذلك يصعب الوقوف على حقيقة نواياهم واعمالهم ما لم نتمكن من الاستخبار عليها بأحد الجواسيس. ولما كانت البقعة غير مستوية فان التوغل فى الميدان محفوف بالمخاطر ولذلك كان من المتعين علينا ان نسير فيه بروية وتوجس. وقد اعتدت ان اتراجع كلما احسست بأن الاعداء قادمون للبحث عنى فامسك عن مناوشتهم ولو كان ذلك داخل الميدان الواقع تحت سيطرة مدافعنا وبنادقنا. ولا اشذ عن هذه القاعدة الا قليلا، وعند ما تكون الفرصة مواتية . ثم انتى لا اقدم على هذه المجازفة الا مرغما لان المسلمين يخافوننا كلما

تقدمنا ويسرفون في التضييق علينا كلما تراجعنا كثيرا حتى انهم يحاولون الحيلولة بيننا والخروج من ابواب المدينة بغية الحصول على ما نحتاج اليه. وانه لمن الصعب العسير في هذه المدينة المكوث بها. فحماتنا مضطرون للخروج منها اكثر مما جرت به العادة للاحتطاب الذي هو ضرورة ملحة .

ولقد خرج قسم من المسلمين المختبئين في الكمين الواقع من خلفنا فرأيت وانا بصدد الاستطلاع ان احد الخفر بالمشارف قد تأخر لينتظر المسلمين في موقع متقدم عن الموقع الذي كنت اريد فخرجت لاغاثته واستطعت انقاذه بعد ان ارغمت المسلمين على التوقف بعض الوقت. ولقد كان القائد المسلم ضمن هذا الفوج من الفرسان، فلما رأى ان عدد رجالي قليل حمل علينا مع صحبه، ولقد تركناه يتقدم الينا والى بنادقنا وفرساننا المختفين فسقط هو وفرسه لما وصل الى مفازة ضيقة. وفي هذا الوقت خرج اصحابه من الكمين فرأيتهم عن بعد. فلما لاحظت انهم قليلو العدد ولم يخرج غيرهم من مكامن اخرى وكنا على مقربة من النهر ذي المجازات الضيقة اغتنمت الفرصة فحملت عليهم ورأيت القائد يفر راجلا. على حين ان الجنود لم يسمعوا امري باقتفاء الفار فتصل الوحدة اليه فيقتلوه او يأسروه ثم يقتفوا الفرسان الذين كانوا يحمونه. غير أن الحماس سرى في الفارين لما رأوا أن عدد فرساني خمسة لا أكثر فدار بيننا قتال أصيبت رجلي اليمنى خلاله برمح. ولما كان جنودنا منتظمين فقد انسحب المسلمون من الميدان دون ان يأتوا شيئا الا ما كان من اصابتي واصابة فرسي بجروح بالاضافة الى جرحهم لاحد الجنود. ومع ان اصابتي كانت غير بليغة فقد اردت اخبار سعادتكم بكيفية حدوثها لتكونوا على علم بحقيقتها اذا ما قيل لكم بأن المسلمين قد اصابوني بجروح اثناء القتال .

وبعد مرور اسبوع وكان اليوم يوم الجمعة 21 ابريل جاءنا جاسوس مسلم يخبرنا بانه قد وصل الى تلك القرى القريبة منذ ثلاثة او اربعة ايام رجل مقدس يصحبه عدد من الفقهاء، وانه قد اخبر الناس بانه جاء لاحتلال مليلية، فمن رغب في الانضمام اليه فليفعل، وان عدد الانصار كثير. ولما سئل الجاسوس عن الاعتبار الذي يجب ان يؤخذ به ذلك الشخص، وعما اذا كان احد السلاطين أو الامراء قد بعثه ليبلغ الناس أوامره في انتظار قدومه مصحوبا بجيش، اجاب بالنفي، وبانه مجرد ساحر، ويتعين اخذه بهذا الاعتبار. فهو يقول بأنه سيجعل نار اسلحتنا بردا، وسيجعلها غير قادرة

علـى زند البارود، وبـأن المدفعية والبنادق لن تمسه بسوء، وبانه سيبث الرغب والخـذلان والفتور فـي صفـوف النصارى فلا يملكون لانفسهم امرا. كما انه يقول انه سيفتح الابواب وينزل جسور القلعة. وهو يشترط ان يأتى اصحابـه راجليـن لا يحملـون سلاحا من الاسلحة النارية، وان الكلام محرم عليهم الا ان يقولوا «الله، الله، الله يستجيب لك يا عدى محمد بوبالك» الذى هـو اسم الرجـل المقدس. امـا أنا فقد بقيت اتعجب من هذا الاعلام الذى لم آخذه باهتمام كبير، الا اننى واصلت عرض الاسئلة على المخبر الذى استمر فى تاكيد ما قال. ولقد قـال انه سيقدم يوم السبت عند الظهيرة لان هـذا الوقت هو وقـت الاستجابة كما كان يقول «المجذوب». وقال المخبر ايضا ان هذا المجذوب كان ينفى رسالة محمد ويقول للمسلمين انه يتعين عليهم ان يؤمنـوا فقـط بالله الاحد وان ما عدا هذا كذب وبهتان. ولقد اجتمع الناس من حوله ووثقوا به، وبانه مرسل من الله، او انه المهدى المنتظر، او رسول منه. وبعد ما قال الجاسـوس المسلـم ما سبق ظل بصحبتى وهو يخاف ان يفتح المسلمون مليلية فيجدوه بداخلها .

ورغم انى كنت استخف بذلك القول لما اعرف عن المسلمين من سهولة الانقياد للايمـان بكـل الخـوارق، فقد آثرت توجيه الانذار على ان ينذرنى غيرى. فأمرت القادة المحاربين والمدنيين وشيوخ المدينة والضواحى بالتجمع لاشعارهم بما وصلنا من اخبار، فتم الاتفـاق على ان يوضع على باب المدينة من الخارج قفل يسده. ولقد كانت المدينة القديمة بمثابة قلعة للمدينة كلها قبـل ان يأمـر مولانا الامبراطـور، ذو الذكر المجيد، بتحصينها، فاصبحت خارجـة منفصلـة عـن الميدان بأخدود يغمره البحر، وبما ان ابوابها كانت خارجيـة وتقـع تحـت الابـراج وتصعب حمايتها بالليل فقد كان المسلمون يتسللون اليها ويستولون على الماشية وغيرها مما يوجد بها. ولهذا امرت على اثر قدومى باحاطتهـا بالسور «والطابية»، وبان يتركوا بعض المسلمين يدخلـون اليهـا، وان يكون الرماة والمدفعية على استعداد وان تعد النيران الصناعية فى الابراج وان يلتزم الجميع النظام. كما امرت بأن يبقى بداخلها بعض المقاتلين مختفيـن، ليقتلوا المسلمين المتخلفين بها، ولما كنت انا طريح الفراش بسبب جرحى وقد بلغت يومى السابع فقد استدعيت الضباط وكلفتهم بأن يعدوا كل شىء اعـدادا محكما. وحيث إن الوقت كان قصيرا فيظهر انهم لم يستطيعوا اعداد القفل الخارجى للباب الذى أسند بأعمدة خشبية. ولقد أصدرت الامر الى قائد المدفعية بأن يسد افواه وحداته المدفعية بحيث لا ينفذ

منها الا الدخان مستفيدا مما قاله المخبر عن المجذوب من انه سيجعل نارنا بردا، فأمرت ان يؤخذ بذلك حتى يقترب المسلمون من المدفعية. كما امرت بعدم ظهور حماة الابراج وبعدم رمى المسلمين وبفتح الباب الخارجي للمدينة القديمة عند ما يقترب المسلمون منها وذلك لكى يومن المسلمون بأنه انفتح بسحر مجذوبهم، فيدخلوا فى تلك الحظيرة المسورة ،

وأخذ المسلمون بعد بضعة ايام يظهرون فى جهات متعددة ويتكاثرون فتعجبت حقا كيف امكن لذلك العدد منهم ان يتجمع فى ايام معدودات . ولقد خرجت آنذاك وذهبت الى مركز يمكنني ان اشاهد منه كيفية تطبيق الاوامر الصادرة ثم نبهت الجميع الى التزام السكون إلى ان يدق الناقوس الاكبر. ولقد اجتمع المسلمون تحت انظارنا فى المكان الذى يسمونه «الغرسة الكبيرة»، وهناك أمرهم المجذوب بأن يبتعد عن الميدان كل من كان لا يحسن اقامة الصلاة وان يلتحق به من كان يحسنها. فابتعد ما يقارب خمسمائة رجل عن المجذوب، على ما قال المخبرون. ولما مضى الزوال انطلقوا بأعلامهم يدورون بنواحى مليلية، فلما اقتربوا منها ومروا بالاراضى الزراعية رأينا ضباطهم يحملون العصى وهم ينادون جنودهم بعدم اختراق الاراضى المزروعة وبعدم اقتطاف اى شيء او السطو على ما قد يكون بتلك المزارع. ولقد علمت ان ذلك كان بأمر المجذوب الذى لم يكن يريد ان يقترف احد من جنوده جرما. ولما توغلوا فى الوادى على بعد ألف خطوة أمرت رجال المدفعية باضرام النار الوهمية التى لا ينطلق معها البارود ولا الشظايا. ولما رأى المسلمون أن المدافع لا ترميهم حقا استعجلوا السير فلما وجدوا الابواب مفتوحة وقعوا فى حيلتنا. عند ذلك تقدمهم المجذوب فى جماعة من الفقهاء وهو يحمل راية حمراء كبيرة قال لاصحابه على ما روى لنا الجواسيس انها نزلت عليه من السماء وانها لم تكن من نسج الايدى. ولحق به آخرون، ثم أشرت بالناقوس فسدت عليهم الابواب من خلفهم وأخذت المدفعية والرماة يصبون عليهم النار كما بدأ رجال المدينة يرمونهم بالنيران الصناعية والحجارة ايضا. ولما كان المسلمون يسيرون متكاتفين وهم يتسابقون أثخنا فى قتلهم وبلغ مجموعهم عددا مرتفعا، لم آكد اصدقه، لما كنت اعرف من قلة عددنا، وكان المخبرون قد سعوا الى بتلك الانباء فلم اصدقها ايضا. غير اننى تحققت لما سرت بين جثث الصرعى والمحرقين. اما الناجون فقد فروا فى جلبة وفوضى. واما المجذوب فقد فر، وان كان قد اصيب بجرح بليغ فى ساعده. ولقد أفلت من بين الاعمدة التى أسندت بها الابواب. وما كان له ان يفعل لو كنا قد صنعنا قفلا آليا. وعلى كل فان خروجه كان نصرا ومعجزة الهية حقا. ولم

أو ان يظل رجالنا طيلة ذلك اليوم على مقربة من المسلمين مخافة من تجمهر منهم بالاماكن المرتفعة. وهنا أمسك عن ذكر بعض التفاصيل والجزئيات التى لا تتعلق بى حتى لا يطول الوصف .

وبعد ذلك ورد علينا اربعة من المسلمين يحملون الينا الاخبار ومعهم يهودى تكفل بتزويدنا باللحوم وغيرها من المواد الغذائية، بعد ان امسك المسلمون عن حملها الى مليلية منذ عام، عملا بأمر قائد سلطان فاس، الذى منع التردد الى مليلية فى بعض المناسبات، وخاصة عند خوفه من استغلال بعض من ياتى الى مليلية بدعوى افتكاك الاسارى، فيأتونا بالاخبار، وتحدثت مع اليهودى ومع المسلمين الاربعة فى شأن المجذوب فعلمت منهم بكيفية نجاته، رغم ما كان به من جروح، وان المسلمين حقدوا عليه لانه غرر بهم وساقهم الى المذبحة، وكيف انه كان يعتذر اليهم مدعيا انهم كانوا سبب الهزيمة وان سحره كان مجديا، فالابواب قد انفتحت ودخلوا المدينة وساروا فيها. كما أنه أمرهم بأن لا يذكرو الا الله وان لا يصيبوا النصارى بأذى وان يسيروا خلفه راجلين لا راكبين على الافراس، ففعلوا عكس ذلك، اذ لما دخلوا الباب رأوا بعض النصارى فحملوا عليهم برماحهم مطالبين اياهم بالاستسلام. وكان عدم الامتثال هو الذى جعل المدفعية تلقى نيرانها بعد ان كانت عاجزة من قبل عن القائها. أما القائد ابو بكر فانه قدم راجلا غير انه كان يقبض بيده اليمنى على فرسه، كما قدم فرسان مسلمون من بعده. كما قال لهم ان النار قد انطلقت من الحجارة والصفائح التى وطأتها الخيول فأصابت البارود الذى كان موجودا فى أسلحتنا. ولو انهم لم يخافوا اوامره لما كان فى الامكان ان يحدث ما حدث. وكان المجذوب يؤكد لهم قوله بكيفية نجاته من الموت الذى أهلك العدد العديد منهم وأن النصارى لم يستطيعوا ان يصيبوه بنار بنادقهم التى صوبوها اليه. ولقد اظهر انصاره على الضربات التى أصيب بها فى جسمه والجروح التى اصابت رأسه ووجهه فاستطاع ان يخرج سالما. وكان يقول لهم ان تلك الجروح هى من فعل رصاص البنادق الذى مسه فلم يؤثر فيه مطلقا. ولقد كان القائد ابو بكر يعيش فى قصر كان اهم شىء فى اقاليم المسلمين الواقعة على الحدود فاقتبل به المجذوب وجعله يقيم فيه .

ولما سمعت ما سبق ذكره كنت احس بميل الى الضحك والسخرية مع اليهودى والمسلمين الاربعة من سذاجة المجذوب وصحبه، غير انى لم أفعل ذلك الا خلسة حتى لا يشعروا بأنى كنت على علم بمقدمهم وهجومهم ولقد قلت لهم لما رأيت كثرة المسلمين فى ذلك اليوم اننى حسبت ان

الشريف سلطان فاس او سلطان آخر هو الذي يكون قدم في طليعة الجيش ليقاتل قوتنا الى ان رأيت الناس مسحورين والابواب تفتح فلا نتمكن من اقفالها والطلقات لا تخرج من بنادقنا ومدفعيتنا فحسبت اننا هالكون الى أن نجانا الله الذي احيا كل شيء وبعثه. ولقد سالتهم ان يظهروني على اسم الرجل الذي قدم في مثل ذلك الجيش العرمرم .

وقد ظنوا حقا كل ما قلته لهم من تاثير السحر فينا فاشاعوا ذلك في جميع انحاء الاقليم وزاد تعظيمهم للمجذوب فاقتبلوه بالتشريف والطاعة كما يستقبل الملوك. ولقد اعتز المجذوب بغروره واشاعه فيهم وازداد يقينا ببأس سحره. وحكيت هذا لجميع المسلمين الذين قدموا علينا فيما بعد حتى يشيعوه في مختلف الاطراف ففعلوا اذ شملت سمعته معظم أطراف بلاد البربر، وجاء مجذوبون وفقهاء آخرون عديدون فانضموا اليه ودانوا له بالطاعة، وكانوا يقولون انهم يجدون في اقواله وتنبؤاته كيفية فتح مليلية ووهران والعبور الى اسبانيا فيما بعد. أما المدينة التي يجب فتحها اولا فهي مدينة مالقة، وكانت اقوال الغرور عديدة جدا وكان المجذوب يحاول بها اثبات تنبؤاته. فلقد اراد بعض المسلمين ان يفتكوا أبناءهم وأقرباءهم فمنعهم قائلا لهم انه سيصبح في مستطاعهم ان يفتكوا جميع الاسرى المسلمين بدون مقابل بما فيهم المعتقلون في اسبانيا نفسها. وكان يضيف الى هذا انه كان عالما بخصائص بعض النباتات فكان يستعملها في معالجة بعض امراض المسلمين . ولقد شرع هؤلاء يتحدثون عن معجزاته فبالغوا في تقديمه وطاعته حتى انهم اقاموا الحراسة على بيته الذي كان يقصده الناس كل يوم من مختلف الاطراف، للاعراب عن طاعتهم. ولقد اخذ يرتقي سلم الملك شيئا فشيئا، بل قال بعض المسلمين ان الملك لابد ان يسلم اليه لان نفس البداية كانت للشريف مولاي محمد الشيخ الذي كان «ياورا» لابناء السلطان، فاذا به يصبح ملكا على فاس وعلى غيرها من الممالك الكبرى. ولقد أصر على نكران رسالة محمد ودعوة الناس الى عدم الايمان بها والايمان بالله الاحد لا غير، واستطاع بسهولة ان يصرفهم عن تلك العقيدة، وسمعت مسلما وهو ينكر محمدا مع انه كان على بينة من دينه. ولقد جاءني القائد ابو بكر ومسلمون من جهات اخرى وهم يتظاهرون بالرغبة في التحادث معي حول قضايا اخرى مع ان مرادهم كان هو ان يسمعوا كيفية سريان سحر المجذوب فينا .

وكان هذا القائد ومن جاء معه مصدقا لما روينا لهم فزادوا في تعظيم المجذوب وجمع الناس حوله وتقديم الهدايا له. وكثر عدد هؤلاء حتى ان

سلطان فاس امر بجمع جيشه ودعاه للدفاع عن العقيدة المحمدية، فأرسله عليهم، والقى القبض على خمسمائة مجذوب وفقيه فضربت رؤوسهم او رؤوس معظمهم الا ان ما حدث كان سببا فى اهتياج سكان المملكة فأمر السلطان بايقاف الحملة. ولقد قيل للسلطان ان هذا المجذوب انما ثار على النصارى وانه اذا كان ينكر رسالة محمد فهو يؤمن بالله. ونصح بعضهم السلطان بالانتظار ليرى اذا ما كان المجذوب سيفتح مليلية فتتأكد اقواله ويبعث اليه بالطاعة فى هذه الحال. اما اذا لم يفتحها فسيرسل عليه جيشه. وهكذا ظل السلطان ينتظر ...

وفى هذه الاثناء وصلت سفينة من اسبانيا محملة بمواد الغذاء، ولقد قال لى المخبرون انه قيل للمجذوب ان السفينة ربما جاءت محملة بالجنود والمدفعية. وقال المجذوب لاصحابه انه اشعرنى بوجوب الاستعداد وترميم ما يتعين اصلاحه لانه سيحتل كل شيء. كما قال لهم انه سيحكم على تلك السفينة وعلى كل تلك السفن التى تأتى من اسبانيا فى المستقبل بالعجز عن مغادرة هذا المرفأ. ولقد ارسل لهذا الغرض مسلما يحمل قارورة من طين مذهب وبقعرها مسمار وامره بدفن تلك القارورة فى الرمل المجاور للميناء، لان من شأن ذلك ان يحول دون تحرك السفن وخروجها من الميناء. ولما كنت قد علمت من الجواسيس بما سبق فقد اصدرت الامر حتى للقوارب الصغيرة بعدم مغادرة المرسى. وكنت اقول للمسلمين كلما جاءوا للكلام ان السفن لا تستطيع مغادرة الميناء فاعتقدوا ان ذلك حق. ولما سمعت بخبر تحرك السلطان من فاس ضد المجذوب (ثم عدوله عن ذلك) بعثت الجواسيس الى جهات مختلفة ليشيعوا فى الناس ان الغاء «الحركة» ناتج عن مفعول السحر لا عن غيره، واننى انتظر الابلال من الجرح الذى أصاب ساعدي، لاننى فى حاجة الى قوة اكثر ما دمت ملزما بالذهاب راجلا. وهكذا كان لى مجال اصدار الامر باتيان بعض الاعمال فالحق بهم اعظم الاضرار. فلقد أمرت بالزيادة فى ارتفاع اسوار حظيرة الماشية والمدينة القديمة التى تقع خارج القلعة المحصنة كما قلت من قبل. واشتغل جميع الناس بحماس فرفعوا الاسوار حتى لا يتمكن من الخروج من قد يستطيع دخول المدينة. ووضعت على ابواب المدينة اثقالا لا يستطيعون حملها، وهكذا أمرت باتيان جميع الاعمال التى اعتبرتها مناسبة لمهام الدفاع.

---

45) صحيح ان محمد الشيخ تنبه لخطر هؤلاء المتصوفة وصار يشتد فى امتهانهم ولكن لا نعلم لهذه الحادثة اثرا مذكورا فى التاريخ على عهد عبد الله الغالب

ولقد كان المجذوب المذكور قد تجرأ علـى ان يقول لى ما سبق ذكره مع احد المسلمين من عدم جدوى الاستعداد بالمدفعية والرجال، ولو جندنا لذلك قوة اسبانيـا كلهـا لان الفتح سيكتب له دون ان يقاتلنا. كما قال انه سمع عنى ذكرا طيبا وانه يعتزم حسن معاملتى وارسالى الى اسبانيا فى سفينة محملة بمتاعـى مصحوبا بستين من اصدقائى الذين اصطفيهم للنجاة واكون قد اعتزلت معهم مقيما بأحد الابراج، وبأنه سيفى بكل ما يعد. ولقد تظاهرت فى جوابى بالخـوف والتمست من المسلم ومن القائد ابى بكر لما لهما من صداقـة مع المجـذوب ان يصرفـاه عن رغبته فى احتلال مليلية ويرغباه فى وهران * وغيرها ليتركنا فى سلم وامان، مع وعدى بأن اقدم له كل ما يكون فى مستطاعى. ولقد نصحنى المسلم بـأن ادفع له الاسرى المسلمين والعلم الاكبر الذى اخذته منه فى ذلك اليوم لان شرفه رهين باسترجاع ذلك العلم. كما نصحنـى بأن أعيـد اليه ابنه. وكان على ان اذكر بأن ولده قد قتل فى تلك المعركة، غير انى اشعرته بأنه وقـع فى الاسر. ولقد أجبت بأننى على استعداد لدفع كـل ما يطلب منى بالاضافة الى مائة أوقية من الفضة. وكان كل هـذا مما اثار العجرفة فى نفس المجذوب وجعل كل المسلمين يعتقدون بأننى إذ كنت اعد بذلك فاننـى فـى طريق الاستسلام، فسارعوا بالقدوم. وكلما اقترب الاجل جعلت اشعرهم بأن الاغماء يصيب جنودى الذين ينتظرون الخروج من المدينة للاعتصام بالسفن وان كانوا على يقين بأنها لن تستطيع مغادرة الميناء، غير انهم يحرصون على ذلـك املا فى ان يبقى المجذوب على أرواحهم. ولقد قلت هذا عن الجنود الذين كنت أفكر فى انزالهم من البحر لانـى لم أكـن استطيع ادخالهم من الابواب فى ذلك اليوم لرغبتى فى عدم فتحها. وهكذا نظمت حشد 115 رجلا فى القوارب حتى اذا ما قدم المسلمون فى ذلك اليوم اسرعوا الى ركوبها متظاهريـن بالفرار. وهذا ما فعلوا فظن المسلمون انهم قد ركبوها هاربين. كما كنت قد حشدت ثلاثين فرسا فى مكان يستطيعون منه الخروج الى الميدان دون أن يمروا بالابواب على أن يجتمعوا بصحبة المدفعية عند الابراج لتفادى اقدام بعض المسلمين الذين قد تشتتهم طلقات المدافع ـ على اعتـلاء اسـوار المدينة القديمة، وهـذا ما حدث فعلا.

واذا ما تركت وصـف بعـض الجزئيات الاخرى التى لا تلزمنى اطلاع سعادتكم عليها فقد حدث يوم الاثنين وهو اليوم التاسع عشر من شهر يونيه

---

*) كانت وهران حتى ذلك الحين ما تزال واقعة تحت الاحتلال الاسبانى، وفى السنة التالية كانت هناك تعبئة مشتركة من الاتـراك والمغاربـة لاستنقاذها من يد الاسبان، كما نجد فى وثائق اخرى.

ان جاء المجذوب المذكور في جمع من المسلمين لان المعركة السابقة التي انهزم فيها كانت قد جرت يوم السبت. ويمكنني ان اغلط في تقدير ذلك الجمع لان المسلمين يسيرون متزاحمين وبدون نظام بينما نسير نحن ضمن فئات ذات صفوف منتظمة. ولما اشرف على المدينة فعل كما فعل في المرة السابقة اي انه أبعد المسلمين الذين لم يكونوا يعرفون اقامة الصلاة وظل معه الذين كانوا يعرفون اقامتها على اهبة القتال. ولقد جاء المجذوب وهو يسير محاذيا الشاطىء مصحوبا بجمعه ولكن في غير نظام. وكنت انا بداخل المدينة حيث اصدرت اوامر مخالفة لتلك التي أصدرتها في المرة السابقة لكي تتراءى له ظواهرنا مطابقة لغروره. كما أمرت بأن تحجب المدفعية الموجودة فوق الاسوار التي حرمت على الجنود ان يشرفوا منها بل امرتهم أن يتستروا بالويتهم وأسلحتهم وأن يمسك الناس عن ايقاد النار حتى لا يلاحظ دخانها فيظن المجذوب وصحبه ان السكان قد جلوا عنها حقا. وأمرت النساء والاطفال بالخروج في ذلك اليوم حاملين الاعلام وبالظهور فوق الاسوار عند الاشعار الاول باطلاق النار. ولقد اخرج النساء عدد كبيرا من الاعلام والرايات الحريرية المزخرفة في ذلك اليوم بحيث اعتقدت بأن عدد تلك الاعلام كان بحق من عوامل اشاعة الذعر في صفوف المسلمين وحملهم على الفرار فيما بعد .

ولما رأيت شدة غرور المسلمين بما لاحظت في رؤسائهم من الثقة بأحد السحرة وسهولة انقيادهم له وربطهم لمصير ارواحهم مرة واخرى بأقوال وجنون ذلك الرجل الوضيع ايقنت ان ذلك معجزة من الله وان مولانا أراد ان تكون تلك المعجزة لديانته الكاثوليكية المقدسة لكي يدخل فيها المشركون والكفار عندما يرون انعدام الجدوى فيما يسعى اليه سحرتهم وليعلموا ان مجرد ذكر اسم يسوع المسيح كاف لابطال اكاذيبهم. وقررت اقتبالهم بصليب طائفة «سانطا فيرا كروث» الذي نتوفر عليه هنا. ولقد رتبت الامور احسن ترتيب قبل ان اذهب الى مكان يشرف على الجرف وعلى القنطرة المرفوعة امام الباب الاول. وكان بصحبتي الترجمان العارف بالخطاب الذي يجب ان يوجه باللغة العربية الى المجذوب وكافة مرافقيه. ولقد كنت اريد عندما يصلون الى ذلك المكان أن أظهرهم على جميع الاسرى الذين وقعوا في قبضتي اذا ما تجاوزوا ابواب المدينة القديمة ودخلوها، ولاظهرهم كذلك على بطلان السحر الذي كان مخيما عليهم واكشفه لهم كشفا بأن اقول لهم ان المدافع لا ترميهم لان ذلك كان عن قصد وبأنني مستعد لابرهن على مثل

ذلك من جديد اذا لم يكونوا يريدون الايمان بعقيدتها المقدسة، وانصحهم بالاستسلام والجثو امام ذلك الصليب المقدس الذى هو صورة الله خالقنا. فاذا استسلموا نجوا جميعا، اما اذا لم يستسلموا فهم هالكون لانى على اتم استعداد لهم اذا اعرضوا .

ولما وصل المسلمون الى جانب الوادى القريب من ابواب هذه المدينة توقفوا، ويظهر ان توقفهم راجع فيما علمت الى الخوف الذى استبد بأبى بكر وغيره من القواد الرئيسيين لما أخذوا يقتربون فوقعت بعض الحيرة فى صفوفهم. ولقد قال ابو بكر المذكور ان القدوم لم يكن خطة محكمة، ولعله كان يعتقد من غير شك اننى اعددت لهم حيلا كثيرة وبانى لم اكن صادقا فيما قلته لهم وبانه يعرف حق المعرفة النصارى، لانه اقام بينهم. ولما كان جمع المجذوب وكبار صحبه عازمين تقريبا على الرجوع ارتفع صوت وصياح من الجمعين اللذين كانا من جهة الشرق نحو تلمسان. فقد ظن هذان الجمعان ان المجذوب والقائد ابا بكر وصحبهما كانوا يريدون استغفالهما ليفتحوا مليلية ويستأثروا بمغانمها. وكان اليهودى الترجمان هو الذى اشعرهما بذلك. غير ان اليهودى كان طوعا فهلك معهم. وقد تحركت الفئتان بسرعة واحاطتا بالاسوار التى وجدتاها مفتوحة فدخلتا من غير ان تتوقفا حتى وصلتا امام القنطرة المرفوعة بالممر الضيق حيث كنت فى انتظارهما. ولما لم يكن فى مستطاعهما المرور فقد توقفتا بضجيج وصخب عظيمين. فاشرفت على الرجال وحاولت عدة مرات بواسطة ترجمان اللغة ان يسمعوا. ولما كانوا اشخاصا متوحشين لا عقل لهم فانهم لم يسمعوا لقولى ولم يعترفوا بأنهم مشرفون على الهلاك. ولما رأيت ان افراد الفئة الثانية الذين يمكن ان يجدوا لانفسهم مكانا بها قد دخلوها ايضا لانها مدينة تسع 5.000 رجل متزاحمين كما يقدم المسلمون على عادتهم فقد أخذت فى كشف مدفع كان على مقربة منى. ولما رأوا المدفع سرى بينهم بعض الذعر فأخذوا يتراجعون .

ولما كنت عازما على الحيلولة بينهم وبين الخروج ورأيت ما سبق ذكره فقد اشرت باطلاق عيار من سلاحى اشارة اقفال الباب الاول، كما كان ذلك اشارة الى استعمال كل الوسائل الحربية الاخرى وبصعود الرجال والنساء والاطفال الى الاسوار مبرزين اعلامهم. وقد حدث كل ذلك بكيفية لم ينج معها ولو مسلم واحد من الفئة الاولى التى دخلت المدينة القديمة، اما من القتل وأما من الوقوع فى الاسر. أما غيرهم الذين مكثوا خارج المدينة فقد فروا واصيبوا بخسائر جسيمة على ايدى ثلاثمائة فارس ومائة من المشاة

الذين نزلوا من البحر واستعملوا المدافع ضدهم. وكما سبق لم ينج ولو مسلم واحد، اما الآخرون فقد وهن عزمهم وانصرفوا جميعا دون ان تكون لهم بقية من قوة حتى على إلهاب حماس اخوانهم الذين ظلوا محاصرين وأصبحوا في حكم الهالكين. ولقد حاول هؤلاء المحاصرون داخل المدينة القديمة ان يقاتلوا قتال الابطال. ولما كنت قد اصدرت الامر بعدم خروج احد من رجالنا لمنازلتهم وباستعمال المدافع التي كان شواظها يحدث الاصابات في صفوف المسلمين دون أن يمس الاسوار بضرر، بالاضافة الى تفجير بعض الالغام فقد آمنوا بهلاكهم وراحوا ينتقلون من جانب لآخر بحثا لانفسهم عن مخرج عند ذلك خرجت وحيدا على فرسي لانصحهم بواسطة الترجمان بالاستسلام اذا لم يكونوا يريدون الموت، ولما كانوا مصرين على القتال أمرت باستعمال مدافع أخرى ثم أمسكت الصليب المقدس وعدت للخروج اليهم. ولقد كان الكثير منهم آنذاك قد هلك فأراد سيدنا المسيح ان يستسلم من تبقى منهم. فلينر الله قلوبهم وليهد جميع الكفار الى الايمان بحقيقة ديانته الكاثوليكية المقدسة الواضحة البينة فيدخلوا في خدمتها. فأنا جازم بأنهم عند ما يعرفون الحقيقة ويعلمون بأني تظاهرت بالوقوع في سحرهم للتغرير بهم فانهم سينصرفون عن غلط ديانتهم المقيتة ليؤمنوا بالحقيقة (16).

واعود الى القول بان هذين الحادثين معجزتان خاصتان من معجزات الله الذي اراد ان يمكن لنا من التغلب على رجال كان عددهم يضاعف عددنا فنحدث في صفوفهم خسائر عديدة دون ان يصاب أحد منا. فأنا أؤكد لسعادتكم ما ستعلمون انه الحق وهو ان الكفار لم يقتلوا ولو واحدا من النصارى. لذلك لم يكن من الصواب أن نعزي ذلك النصر الى أسلحتنا والى خيلنا ولا الى اشخاصنا (17) رغم انني على علم بجميع فنون الحرب فقد كان النصر من معونة الله لنا. ولما كان قتالنا للكفار فقد عظم تقديري لهذه الظواهر التي لم تحدث لغيرنا في شؤون الحرب. فلقد شاهدنا المعارك والحصارات

16) يحكي «كولاسوس» ان المسلمين الذين دخلوا مليلية كانوا ثلاثة آلاف فلم ينج واحد منهم اذ قتلوا جميعا باستثناء اربعمائة وقعوا في الاسر. ولقد ارسل ضون فرسيا دي طوليدو يبحث عن الاسرى الاربعمائة ويطلبهم لاستعمالهم في التجذيف بأسطوله المتصدر لدى التوجه الى قلعة بادس لانه لم يكن يتوفر على امثالهم

17) يضيف «كابريرا» في نهاية وصفه ان «فيتيغاس» قد اخبر الملك بنصره دون ان يراق دم احد جنوده، ولما ظن بعض اعضاء الحكومة ان ذلك مبالغة كبيرة لم يحمدوا عمله بل تقولوا عليه. الا ان سمعته كانت قوية فظهرت على تلك التقولات وظل يحظى بثقة الملك وتقديره حتى مات .» (دي كاستري)

تجرى كل يوم فيكون لنا النصر او تكتب لنا فيها الهزيمة. اما محاولة اقتحام قلعة محصنة بالاقتصار على مفعول السحر ودخولها من ابوابها دخول العمى المتوحشين فذلك ما لم أره ولم اسمع به مطلقا، وان كان قد قيل فى وهران وبجاية بأن احد المجاذيب قد أتى ليفشى سحره فى المدافع. الا أن ذلك قد وقع بين الفرسان المتقابلين فى الميدان. اما هؤلاء فقد قدموا راجلين بعد ان تركوا خيولهم بعيدة عنهم على النحو الذى أسلفت شرحه لسعادتكم .

وليشأ الله أن يكون كل عملنا لخدمتكم وأن يمن علي بفضله حتى يكتب لى التوفيق دائما فى خدمة سعادتكم .

مليلية 23 ينيه سنة 1564

احمـد مختـار العبـادى

دراسـة حـول كتـاب الحلل الموشية فى ذكـر الاخبار المراكشية واهميته فـى تاريـخ المرابطيـن والموحديـن

مؤلف هذا الكتاب لم يذكر اسمه على كتابه، ولكنه يشير الى انه فرغ من تأليفه فى يـوم الخميس 12 ربيـع الاول سنة 872 هـ (1381 م)، اى فى عهد كل من السلطانين محمد الخامس النصرى ـ الغنى بالله ـ ملك غرناطة، وابى زيد بن عبد الرحمن بـن ابى الحسن المرينـى ملك المغرب. ولقد نسب بعض المؤرخين المغاربة المحدثين تأليف هذا الكتاب الى اديـب مالقى اسمه ابو عبد الله محمد بن ابى المعالـى بن السماك العامرى، كان حيا فى اواخر القرن الثامن الهجرى. غير ان هؤلاء المؤرخين للاسف، لم يذكروا لنا الدليل الذى اعتمدوا عليـه لاثبـات صحة هذه النسبة (1) .

ويقع كتاب الحلل الموشية فـى جـزء واحد، وقد طبع اولا فى تونس فى سنة 1910 م. ونسبه النـاشر خطأ الـى الوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب الذى توفى قبل تاريخ انتهاء هذا الكتاب بنحو سبع سنوات .!! وقـد اعاد طبـع هذا الكتـاب الاستاذ ى. س. علـوش ضمن مطبوعات معهد الدراسات العليـا المغربيـة بالربـاط سنة 1936، وان كانـت هذه الطبعة لم تسلم هى الاخرى من التحريف لدرجة اننـا اضطـررنا فى كثير من الاحيان الـى الرجـوع الـى الاصـول الخطية لهذا الكتاب لتصحيح بعض الاسماء والعبارات (2) ولقد ترجم كتاب الحلل الموشية الى اللغة الاسبانية المستشرق

---

1) راجـع على سبيل المثـال (سليمان الحوات : البدور الضاوية فى مناقب الزاوية الدلائيـة، مخطـوط بخزانـة الربـاط رقم D. 261 ورقـة 18 محمد بـن عبد الله بن الموقت المسفيوى المراكشى : السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج 2 ص 177 ـ 179 (مطبوع على الحجر بفاس فى جزئين) . عباس بن ابراهيم المراكشى : الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعـلام ج 1 ص 23 (فاس 1936) . عبـد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص 55 ـ 56 (معهد مولاى الحسن بتطوان ـ الطبعة الاولى)

راجع كذلك : E. Lévi Provençal: Les Historiens des Chorfa p. 385-386 note 4 (Paris 1922).

2) اعتمدنا على النسختين الخطيتين رقم J. 2300 ، D. 1428 بالخزانة العامة بالرباط

الاسبانى A. Huici Miranda هويسى ميرندا، وطبعت الترجمة بمعهد مولاى الحسن بتطوان .

ويبدأ كتاب الحلل الموشية بتأسيس مدينة مراكش على يد امير المرابطين ابى بكر بن عمر اللمتونى فى سنة 462 هـ (1069 م) ويتناول عصر المرابطين والموحدين فى شىء من التفصيل، ثم يستعرض بايجاز الحوادث التاريخية التى وقعت فى عصر بنى عبد الحق او بنى مرين الى سنة 783 هـ (1281 م) من عهد السلطان عبد الرحمن بن ابى الحسن.

ولقد استمد المؤلف مادته التاريخية من كتب اصيلة معاصرة نص على اصحابها صراحة. مثال ذلك ابو زكرياء يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى الغرناطى الذى يكنى بأبى بكر ويعرف بابن الصيرفى (3) . وكان هذا المؤرخ كاتبا للامير ابى محمد تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين بغرناطة (4) وألف فى تاريخ المرابطين كتاب : «الانوار الجلية فى اخبار الدولة المرابطية»، وهو فى حكم المفقود الآن (5)، وقد مدحه صاحب كتاب مفاخر البربر بقوله : «ومن أراد الوقوف على اخبارهم وسيرهم (أى المرابطين) فليطالع كتاب ابن الصيرفى الذى الفه فى دولتهم وسماه الانوار الجلية... لخ. وهو كتاب ممتع مفيد (6)» كذلك مدحه ابو جعفر بن الزبير بقوله «وهو كتاب فى تاريخ الاندلس وامرائها ضمنه عجائب واجاد فيه كل الاجادة، وقد بلغ فيه الى سنة 530 هـ. ثم وصله الى قريب وفاته» (7) وتوفى ابن الصيرفى حول سنة 570 هـ (1174 م).

كذلك اعتمد صاحب الحلل الموشية على كتاب «نظم الجمان فى اخبار الزمان» لابى الحسن على الكتانى المعروف بابن القطان (8) وكان

---

3) الحلل الموشية ورقة 32 ، 43 (مخطوط رقم 2300 J. – خزانة الرباط)

4) راجع ترجمة ابن الصيرفى فى (ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة «نشر كوديراء رقم 2045 . ابو جعفر احمد بن الزبير : كتاب صلة الصلة رقم 261 ص 183 «نشر ليفى بروفنصال» . لسان الدين ابن الخطيب : كتاب الاحاطة فى اخبار غرناطة ورقة 416 «نسخة الاسكوريال» . عبد السلام ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص 151) انظر كذلك.
F. Pons Boigues: Historiadores y Geógrafos Arábigo-españoles p. 240 núm. 193. (Madrid 1898).

5) يشير العالم الاسبانى بونس بويجس السالف الذكر بأن هذا الكتاب كان بتونس وان كلا من دوزى، وكوديرا قد اطلع عليه واستفاد منه، راجع (Pons Boigues. Op. cit. p. 240).

6) راجع كتاب (نبذ تاريخية فى اخبار البربر فى القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الاسم ص 59 نشر ليفى بروفنسال – الرباط 1943)

7) ابن الزبير : صلة الصلة ص 182 (نشر ليفى بروفنسال، الرباط 1928)

8) راجع كتاب الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 65 ، 84 – 85 . ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص 184

كاتما لاسرار الخليفة المرتضى الموحدي. ولم يبق من كتابه سوى قطعة صغيرة تتناول أحداث سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين. وقد أمدنا المستشرق الاسباني هويسي ميراندا – الذى استحوذ على هذه القطعة – ببعض المعلومات عن تاريخ ابن القطان، وذلك فى المقال القيم الذى كتبه عن السلطان على بن يوسف بن تاشفين (9).

كذلك اعتمد صاحب الحلل الموشية على الجغرافى الاندلسى أبى عبيد الله البكرى (10) المتوفى سنة 487 هـ (1004 م). وكان البكرى معاصرا لقيام الدولة المرابطية، وقد خص بلاد المغرب بجزء هام من كتابه المسالك والممالك، وقد عرف هذا الجزء بعنوان : «كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب» (11) .

كذلك اعتمد صاحب الحلل الموشية على الاخبار التى اوردها ابو بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق (12)، عن امامه المهدى بن تومرت إمام الموحدين (13) كما اخذ كذلك عن ابى مروان عبد الملك بن محمد بن احمد بن ابراهيم الباجى الشهير بابن صاحب الصلاة (14) ، (15) المتوفى سنة 578 هـ (1182 م)، وقد عرف كتابه بعنوانه الكبير : «المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين وظهور المهدى بالموحدين» وهو يتضمن معلومات هامة عن تاريخ الموحدين وانظمتهم ومنشئاتهم (16) .

---

9) انظر Ambrosio Huici Miranda: Alí B. Yusuf y sus Empresas en el Andalus: Tamuda año VII, 1959, Tetuán, Semestres I-II.
وقد ترجم هذا المقال الى العربية تحت عنوان على بن يوسف واعماله فى الاندلس، (مجلة تطوان العددان الثالث والرابع 1958 – 1959)

10) الحلل الموشية ص 11 (طبعة علوش)

11) نشره المستشرق الفرنسى البارون دى سلان (الجزائر 1911)

12) الحلل الموشية ص 114

13) نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال تحت عنوان «اخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين» مع ترجمة فرنسية بعنوان Documents inedits D'Histoire Almohade (París 1928).

14) الحلل الموشية ص 84 – 85 ، 95

15) راجع ترجمة ابن صاحب الصلاة فى (ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ص 620 رقم 1726، نشر كوديرا) انظر كذلك (Pons Boigues: Opt. cit. p. 245, núm. 199). محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 72 (تطوان 1950)

16) مخطوط بالاسكوريال وتوجد منه صورة شمسية بخزانة القرويين رقم 2649 D·

هذا وقد نص صاحب الحلل الموشية على مؤرخين آخرين اخذ عنهم مثل محمد بن الخلف (17)، وابن بجير (18)، وعبد الله ابن احمد الزهرى (19) وابويحيى بن اليسع (20) وغيرهم.

وكتاب الحلل الموشية كتاب قيم ومفيد جدا لانه تضمن حقائق تاريخية ثابتة صححت لنا الكثير من الاخطاء التى وردت فى الكتب الاخرى ولا سيما كتاب روض القرطاس الذى كثيرا ما استسلم صاحبه لخياله باعتراف معاصريه (21) .

---

17) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 68

18) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 82 ، 90.

19) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 91 ، 122

20) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 49 ، 87 ـ 107

21) عنوان هذا الكتاب هو «الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» ويتناول تاريخ المغرب الاقصى من سنة 145 هـ الى سنة 726 هـ اى انه يشمل تاريخ الدول الخمس التى تداولت حكم المغرب فى هذه الفترة وهى دولة الادارسة ودولة زناتة (المغراويين واليفرانيين) ثم دولتا المرابطين والموحدين واخيرا دولة بنى عبد الحق أو بنى مرين التى انهى المؤلف فى عهدها كتابه واهداه الى السلطان الخامس من ملوكها وهو ابو سعيد عثمان المرينى (719 ـ 731 هـ) . ولقد اختلف المؤرخون حول مؤلف هذا الكتاب، فالبعض ينسبه الى صالح بن عبد الحليم الغرناطى والبعض الاخر ينسبه الى ابى العباس أحمد بن ابى زرع، وكلا المؤرخين عاشا وماتا بالمغرب فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى.

ولقد طبع هذا الكتاب على الحجر بفاس مرارا أولها سنة 1885 ثم طبع طبعة حديثة بالرباط سنة 1936 ولكنها للاسف غير كاملة اذ تنتهى عند عصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى. كذلك اهتم المستشرقون الاوربيون بنشر هذا الكتاب وترجمته، فهناك طبعة فى جزئين للعالم السويدى تورنبرغ Tornberg مع ترجمة لاتينية (ابالا 1842 ـ 1846) وهناك ترجمة المانية لدومباى Dombav سنة 1794 وترجمة الى البرتغالية للاب Moura بلشبونة سنة 1828، وترجمة فرنسية للمستشرق Béaumier باريس 1960 على انه يلاحظ ان بعض المستشرقين ترجموا كلمة القرطاس بمعناها اللفظى وهو الورق Papier ، مع انه فى الواقع اسم لحديقة بضواحى فاس غرسها الزعيم المغربى زيرى بن عطية المغراوى الذى حكم المغرب فى اواخر القرن الرابع الهجرى كان يعرف باسم القرطاس أيضا (مفاخر البربر ص 37) وعلى هذا الاساس نجد ان كلمة القرطاس ينبغى ان تبقى كما هى عند نقلها الى لغة اجنبية اخرى باعتبارها اسم علم جغرافى. والكتاب فى مجموعه ملئ بالاخطاء التاريخية والجغرافية مما جعل المؤرخين القدماء والمحدثين ينتقدون صاحبه ويتهمونه بالكذب والاختلاق. ويكفى ان نشير الى تعليق الكاتب المعاصر له وهو الخطيب ابو عبد الله بن مرزوق، اذ يقول فى كتابه المسند الصحيح الحسن فى مآثر ابى الحسن فى آخر ورقة 19 (مخطوط رقم 111 ق بخزانة الرباط) : فبنو مرين اعزهم الله اعلام زناتة ورؤساؤها وكبار قبائلها وعظماؤها، وقد وقفت قديما على رفع نسبهم الى زناتة وقرأت بين يدى المولى المرحوم (ابو الحسن المرينى) ما كتبه ابن ابى زرع فى ذلك، ومنهم سمعت قدس الله روحهم ان كثيرا من اخبار ابن ابى زرع انكرها والدهم المرحوم المولى ابو سعيد عثمان، واكذبه فيما ادركه مما حكاه على خلاف ما وقع عليه. كذلك لم يسلم صاحب القرطاس من نقد المؤرخين المحدثين من امثال دوزى وبونس بريجس وهويسى وغيرهم، راجع على سبيل المثال : Pons Boigues: Op. cit. p. 421,
A. Huici Miranda : La salida de los Almorávides, Op. cit., p. 159.

تاسيس مدينة مراكش

من امثلة الحقائق التاريخية التى آثارها صاحب الحلل الموشية، مسالة بناء مدينة مراكش. فمن المعروف ان صاحب روض القرطاس ومن جاء بعده من المؤرخين من امثال ابن خلدون، ينسبون هذا الى يوسف بن تاشفين، ويحددون تاريخه بسنة 454 هـ (1061 م)، وفى ذلك يقول صاحب القرطاس.

«ودخلت سنة اربع وخمسين واربعمائة، وفيها تقوى امر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان بملكه من المصامدة، فسكن الموضع بخيام الشعر، وبنى فيه مسجدا للصلاة، وقصبة صغيرة لاختزان امواله وسلاحه، ولم يبن على ذلك سورا، وكان رحمه الله، لما شرع فى بناء المسجد يعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه وتورعا، غفر الله له ونفعه بقصده (22) ».

اذا قابلنا هذا النص بما اورده صاحب الحلل الموشية فى هذ الصدد، فاننا نجد ان هذا الاخير ينسب بناء مراكش الى امير المرابطين ابى بكر بن عمر اللمتونى وليس ابن عمه يوسف بن تاشفين. كما انه يحدد تاريخ بناء المدينة بسنة 462 هـ (1070 م) اى بعد التاريخ الذى حدده القرطاس بنحو ثمان سنوات (23) .

ولا شك ان رواية الحلل الموشية هى الاصح ويظهر انها مستمدة من اوثق المصادر المعاصرة للمرابطين، وقد يؤيد ذلك ان ابن عذارى المراكشى صاحب البيان المغرب قد اورد نفس هذا النص مع زيادات اخرى قيمة (24) فمن كلام هذين المؤرخين [ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية]، نفهم ان الامير ابا بكر بن عمر اللمتونى استقر فى بادىء الامر بمدينة اغمات التى كانت عبارة عن مدينتين متقابلتين، هما اغمات هيلانه او ايلانه، واغمات

22) القرطاس ج 2 ص 39 ـ 40 (الرباط سنة 1936) انظر كذلك (السلاوى الناصرى: الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ج 2 ص 22 ـ 28)

23) الحلل الموشية ص 5 ـ 6 (الرباط 1936)

24) القسم الاخير من البيان المغرب الذى لم ينشر بعد ورقة 7 ، 8 وقد اشار اليه المستشرق الاسبانى هويسى ميراندا فى المقال القيم الذى كتبه حول خروج المرابطين من الصحراء . انظر: A. Huici Miranda: La Salida de los Almorávides del desierto, 3-4 Trimestres, Hesperis 1959. كذلك اشار الى اهمية هذا النص المأسوف عليه المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فى آخر مقال كتبه حول هذا الموضوع، وقد نشر بعد وفاته، انظر: Lévi Provençal : La Fondation de Marrakech (462-1070); Mélanges d'Histoire et d'Archeologie de l'Occidental Musulman, tome II p. 117; Hommage a Georges Marçais; Alger 1957.

وريكه (*) وهناك توالت على الامير الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت اغمات بالوافدين وضج اهلها بالشكوى، فقال لهم الامير ابو بكر : «عينوا لنا موضعا نبنى فيه مدينة ان شاء الله» فأشاروا عليه اول الامر بمكان على نهر تانسيفت (25) فلم يعجبه هذا المكان خوفا من تعرض هذا النهر للفيضان وقال اننا قوم صحراويون لا نستطيع العيش بجوار الانهار، واخيرا اشاروا عليه بفحص مراكش وقالوا له : «قد نظرنا لك ايها الامير موضعا صحراء رحب الساحة يليق بمقصدك، يكون وادى نفيس جنانها، وبلاد دكالة فدانها، وزمام جبل درنة (اطلس) بيد أميرها». فعند ذلك ركب الامير فى جيوشه حتى بلغ سهل مراكش وهو خلاء لا انيس به الا الغزلان والنعام، ولا ينبت الا السدر والحنظل، وكان ذلك سنة 462 هـ (1070 م) فانتقلوا الى تلك الرحبة، فوجدوا فحصها من المسرح الخصيب للجمال والدواب ما اثار غبطتهم، وافتتح الامير ابو بكر عملية الانشاء والتعمير ببناء قصر الحجر او دار الحجر وتبعه الناس فى بناء الدور من غير اسوار، واستمر العمل قائما نحوا من سنة أى الى سنة 463 هـ (1071 م).

هذا ويضيف ابن عذارى فى موضع آخر عند ما يتكلم عن عودة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور من غزوة الارك Alarcos فيقول ان الخليفة المنصور حينما نزل جبل جليز خارج مدينة مراكش، استدعى زعماء مصمودة وسألهم عن اصحاب هذا المكان الذى قامت عليه مراكش، فأجابوه بأن نصفه لهيلانة والنصف الآخر لهزميرة، فأمر بالبحث عن اصحابها، فلما مثلوا بين يديه، اعطاهم ثمن الارض ثم دخل المدينة، وهذه النصوص ان

---

* كانت اغمات هيلانة او ايلان تقع فى شرق اغمات وريكة، وبينهما عدة اميال، وكانت اغمات هيلانة مدينة صغيرة يسكنها يهود تلك النواحى ولا سيما بعد بناء مدينة مراكش، فمن المعروف أن المرابطين منعوا اليهود من سكنى مراكش فكانوا لا يدخلونها الا نهارا وينصرفون عنها عشية. راجع الادريسى : نفس المرجع ص 69 — 70

25) نهر عظيم من انهار المغرب يسقى مياهه حوز مراكش فى طريقه الى مصبه بالمحيط الاطلسى بين اسفى والصويرة ويبلغ طوله نحو 250 ك. م. راجع (الصديق بن العربى كتاب المغرب ص 50)

ويصف الادريسى هذا النهر بالعبارة الآتية : «وعلى ثلاثة اميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت، وليس بالكبير ولكنه دائم الجرى، واذا كان زمن الشتاء، حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذره . راجع (الشريف الادريسى : المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ص 69 — نشره وترجمه الى الفرنسية دوزى ودى خويه «ليدن 1866»)

صحت فـى مجموعهـا، فانها تـدل على ان تأسيس مراكش لم يتم على يد يوسف بن تاشفين (26) .

بقى ان نعلم فى هذا الصدد رأى المؤرخ والجغرافي المعاصر ابى عبيد الله البكرى الذى تعـرض فـي كتابه (27) لاحداث قيام دولة المرابطين حتى سنة 460 هـ (1067 م)، وهـى السنـة التـى اتم فيها كتابه المذكور. فالذى نلاحظه ان البكرى لم يذكر شيئا على الاطلاق عن مدينة مراكش او عن يوسف ابن تاشفين، وصمـت البكـرى هنـا يعتبر تأييدا لرواية كل من ابن عذارى والحلل الموشية التى تقول بأن بناء مراكش لم يبدأ الا فى سنة 462 هـ. اى بعد ان فرغ البكرى مـن كتابـه بسنتين. فلو ان رواية القرطاس صحيحة، وهى التى تقـول بان بنـاء مراكـش كان سنـة 404 وعلى يد يوسف بن تاشفين، لما فات البكـرى ان يشير الى ذلك. كل ما اورده البكرى فى هذا الصدد لا يعدو تلـك العبـارة المختصرة : وامير المرابطين الى اليوم، وذلك سنة ستين واربعمائة، ابو بكر بن عمر (28)» ومن الطريف ان البارون دى سلان الذى قام على نشر كتاب البكرى الخاص بالمغرب، قد انساق ـ فيما يبدو ـ وراء رواية القرطاس، اذ انه بنى على عبارة البكـرى السالفة الذكر عدة افتراضـات واستنتاجـات، نذكر منها اتهامه للبكرى وللاندلسيين عامة بأنهم كانوا يجهلـون احـداث المغـرب فى هذه الفترة واثر الثورة المرابطية التى قامت فيه، اذ كيف يجهل البكرى اسم يوسف بن تاشفين الذى حكم المغرب منذ سنة 452 هـ. واسس مدينة مراكش فى سنة 454 هـ واحتل فاس فى السنة التالية ! !

والواقع اننا بعد قراءة ما ورد فى كل من الحلل الموشية والبيان المغرب نستطيع ان نقول ان البكرى قد أصاب فيما قاله، وان هذه الاحداث كلها قد وقعت بعد ان فرغ من وضـع كتابـه، وان دى سلان قد اخذ برأى صاحب القـرطـاس !

فيوسف بن تاشفين لم يبدأ اسمه فى الظهور الا بعد ان قلده ابن عمه الامير ابو بكر نيابة حكم المغرب فى سنة 462 هـ. وانه لم يستقل بحكم هذه

26) راجع A. Huici Miranda: La Salida de los Almorávides del desierto, Hesperis 1959. Lévi Provençal: La Fondation de Marrakech (462-1070), Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman, tome II, 1957 (Alger).

27) كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ـ نشر البارون دى سلان ـ الجزائر 1911

28) البكرى : نفس المرجع السابق ص 170

29) راجع مقدمة الناشر ص 14 ـ 15

البلاد ويعلن نفسه اميرا للمسلمين الا فى سنة 466 هـ. ولم يحتل فاس الا فى سنة 467 هـ. بل انه لم يجرؤ على نقش اسمه على السكة الا منذ سنة 480 هـ (1087 م) اى منذ وفاة الامير ابى بكر الحاكم الشرعى على البلاد (30).

اما اتهام دى سلان للاندلسيين بانهم لم يكونوا على علم باحداث المغرب وبثورة المرابطين فيه، فهو حكم باطل من اساسه، وقد يكفى لتفنيده قول صاحب المعجب : «... وكان المعتضد بن عباد فى كل وقت يستطلع اخبار العدوة : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمة كانت عنده ان هؤلاء القوم خالعوه او خالعوا ولده، ومخرجوه من ملكه، فلما بلغه نزولهم، جمع ولده وجعل ينظر اليهم مصعدا ومصوبا ويقول : يا ليت شعرى من تناله معرة هؤلاء القوم، انا او انتم ؟ فقال ابو القاسم (المعتمد بن عباد) من بينهم : جعلنى الله فداك وانزل بى كل مكروه يريد ان ينزله بك ! فكانت دعوة وافقت المقدار» (31) ، ويضيف المقرى ان المعتضد بن عباد لما علم بزحف المرابطين امر بتحصين الجزيرة الخضراء وجبل طارق (32) .

فمثل هذه النصوص، وان كان بعضها يتسم بطابع قصصى تدل على ان الاندلسيين كانوا يتتبعون اخبار المرابطين منذ بدأت طلائعهم تخرج من الصحراء وتتدفق شطر المغرب .

اصل تسمية المرابطين :

حقيقة تاريخية اخرى اثارها صاحب الحلل الموشية وهى : لماذا سمى المرابطون بالمرابطين ؟ وقد كفانا هذا المؤلف نفسه الاجابة على هذا السؤال فى هذه العبارة فقال :

«وكان يلى لمتونة جبل فيه قبائل من البربر على غير دين الاسلام، فدعاهم الشيخ عبد الله بن ياسين الى الدين فامتنعوا عليه، فأشار على الامير ابى زكريا (هكذا وردت فى الاصل) بن عمر اللمتونى بغزوهم، فغزاهم بلمتونة، وكانوا حينئذ ازيد من ألف فارس فهزموهم وسبوهم وقسموا أموالهم، وخمسوا سبيهم، فيقال انه اول من خمس قسمة اللمتونيين فى صحرائهم، وفقد منهم فى هذه المعركة كثير، وعند ذلك سماهم الشيخ ابو

30) راجع كتاب الحلل الموشية ص 14 – 20 (طبعة علوش)

31) عبد الواحد بن على التميمى المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 100 (نشر : محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى 1939)

32) احمد المقرى : نفح الطيب ج 2 ص 1175 ، دكتور حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص 265

محمد عبد الله بن ياسين بالمرابطين لما رأى من شدة صبرهم وحسن بلائهم على المشركين» (33) .

من هذا النص نستطيع ان نصل الى الحقائق التاريخية اللآتية :

اولا — ان لقب المرابطين قد أطلقه عبد الله بن ياسين على قبيلة لمتونة فقط دون غيرها من القبائل الصنهاجية الاخرى، وذلك بعد معركة عنيفة خاضتها لمتونة ضد المشركين بقيادة اميرها ابى زكرياء يحيى بن عمر اللمتونى عند جبل بشمال الصحراء ، وان عدد المجاهدين اللمتونيين فى هذه المعركة كان يزيد على الف فارس .

ثانيا : ان كلمة المرابطين هنا لا تعطى المعنى الخاص بلزوم الرابطة او الرباط، وانما تعطى المعنى المجازى لها وهو «المجاهدون الصابرون فى سبيل الله» دون التقيد برباط يرابطون فيه .

ثالثا : ان هذه التسمية جاءت متأخرة نسبيا من الناحية الزمنية اى بعد ان قطع عبد الله بن ياسين شوطا كبيرا فى نشر دعوته .

ولقد امدنا اخيرا المستشرق الاسبانى هويسى ميراندا بنص مطابق لنص الحلل الموشية السالف الذكر، استمده من قطعة خطية من كتاب البيان المغرب لابن عذارى قد وقعت فى حوزته (34) ومن المعروف ان المؤرخ المشهور ابن عذارى عاش قبل صاحب الحلل الموشية بنحو نصف قرن، الا انه يبدو لنا ان كلا من هذين المؤرخين قد استمد مادته من مؤرخ معاصر لدولة المرابطين كابن الصيرفى مثلا، وهذا مما يزيد فى قيمة هذا النص الذى اورداه .

واذا قابلنا هذا النص بالرواية المعروفة التى اوردها صاحب روض القرطاس ومن جاء بعده من المؤرخين، فاننا نرى انه يتعارض معها تماما، فرواية هؤلاء المؤرخين تنص على ان عبد الله بن ياسين، قد بدأ دعوته فى الصحراء بدعوة من امير قبيلة جدالة، وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى، فذهب الى ديارهم التى تلي ديار لمتونة جنوبا وتجاوز ساحل المحيط حتى مصب نهر السنغال، وهناك فى احدى جزر هذا البحر (35) او ذاك النهر (36)، بنى عبد الله بن ياسين رابطته ابتغاء العزلة والعبادة، وصحبه

33) راجع الحلل الموشية (طبعة علوش) ص ١١

34) راجع A. Huici Miranda: La Salida de los Almorávides del desierto y el reinado de Yusuf Ibn Tāšfīn. Hespéris, tome XLVII, 1959, 3ᵉʳ et 4ᵉ Trimestres.

35) القرطاس ج 2 ص 13

36) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 18، السلاوى الناصرى : كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ج 2 ص 7 — 8 (دار الكتاب — الدار البيضاء 1954)

محمد عبد الله بن ياسين بالمرابطين لما رأى مـن شدة صبرهم وحسن بلائهم على المشركين» (33) .

من هذا النص نستطيع ان نصل الى الحقائق التاريخية اللآتية :

اولا – ان لقب المرابطين قد أطلقه عبد الله بن ياسين على قبيلة لمتونة فقط دون غيرها من القبائل الصنهاجية الاخرى، وذلك بعد معركة عنيفة خاضتها لمتونة ضد المشركين بقيادة اميرها ابى زكرياء يحيى بن عمر اللمتونى عند جبل بشمال الصحراء ، وان عدد المجاهدين اللمتونيين فى هذه المعركة كان يزيد على الف فارس .

ثانيا : ان كلمة المرابطين هنا لا تعطى المعنى الخاص بلزوم الرابطة او الرباط، وانما تعطى المعنى المجازى لها وهو «المجاهدون الصابرون فى سبيل الله» دون التقيد برباط يرابطون فيه .

ثالثا : ان هـذه التسمية جاءت متأخرة نسبيا من الناحية الزمنية اى بعد ان قطع عبد الله بن ياسين شوطا كبيرا فى نشر دعوته .

ولقد امدنا اخيرا المستشرق الاسبانى هويسى ميراندا بنص مطابق لنص الحلل الموشية السالف الذكر، استمده من قطعة خطية من كتاب البيان المغرب لابن عذارى قد وقعت فى حوزته (34) ومن المعروف ان المؤرخ المشهور ابن عذارى عاش قبل صاحب الحلل الموشية بنحو نصف قرن، الا انه يبدو لنا ان كلا من هذين المؤرخين قد استمد مادته من مؤرخ معاصر لدولة المرابطين كابن الصيرفى مثلا، وهذا مما يزيد فى قيمة هذا النص الذى اورداه .

واذا قابلنا هذا النص بالرواية المعروفة التى اوردها صاحب روض القرطاس ومـن جاء بعـده من المؤرخين، فاننا نرى انه يتعارض معها تماما، فرواية هؤلاء المؤرخين تنص على ان عبـد الله بن ياسين، قد بدأ دعوته فى الصحراء بدعـوة مـن امير قبيلة جدالة، وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى، فذهب الى ديارهم التـى تلى ديار لمتونة جنوبا وتجاوز ساحل المحيط حتى مصب نهـر السنغـال، وهنـاك فـى احـدى جـزر هذا البحر (35) او ذاك النهر (36)، بنـى عبد الله بن ياسين رابطته ابتغاء العزلة والعبادة، وصحبه

33) راجع الحلل الموشية (طبعة علوش) ص ١٤

34) راجع A. Huici Miranda: La Salida de los Almorávides del desierto y el reinado de Yusuf Ibn Tāšfīn. Hespéris, tome XLVII, 1959, 3^me et 4^e Trimestres.

35) القرطاس ج 2 ص ١٤

36) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 183، السلاوى الناصرى : كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ج 2 ص 7 – 8 (دار الكتاب – الدار البيضاء 1954)

فى هذا المكان زعيم جداله وبعض رجالها، فلم تمر عليهم ايام حتى اجتمع له نحو ألف رجل سماهم المرابطين لمزومهم رابطته.

من هذه الرواية نستطيع ان نصل الى الحقائق التاريخية التالية :

اولا : ان لقب المرابطين قد اطلقه عبد الله بن ياسين على قبيلة صنهاجية أخرى جنوبى لمتونة وهى قبيلة جدالة، وكان عدد الجداليين الذين انضموا اليه فى بادىء الامر، ألف رجل بقيادة اميرهم يحيى بن ابراهيم الجدالى .

ثانيا : ان كلمة المرابطين هنا تعطى المعنى الحقيقى المادى لهذه الكلمة اى الذين رابطوا معه فى رباطه بقصد العبادة والانقطاع لله.

ثالثا : ان هذه التسمية جاءت مبكرة من الناحية الزمنية اى عند ابتداء دعوة عبد الله بن ياسين .

ورواية القرطاس قد تبدو معقولة فى شقها الاول الذى يدل على ان عبد الله بن ياسين قد بنى رباطا بأرض جدالة للاعتزال فيه، فهذا امر عادى شائع من قديم فى العالم الاسلامى عامة وفى بلاد المغرب خاصة، فليس بغريب مطلقا ان يتخذ عبد الله بن ياسين رباطا كرباطات المنستير وماسة والمرية وغيرها من الرباطات القديمة (37) .

وانما الشىء الذى يشك فيه فى رواية القرطاس ان تنسب دولة المرابطين دون غيرها من دول العالم الاسلامى الى هذا الرباط. وقد يؤيد هذا الشك ان الروايات التاريخية المعاصرة مثل رواية البكرى، لم تذكر مطلقا ان اسم المرابطين يرجع الى هذا الرباط او انه قد أطلق على الجداليين الذين رابطوا فيه كما يقرر ذلك مؤلف القرطاس. وقد يؤيد هذا الشك ايضا اننا اذا تصفحنا تاريخ قبيلة جدالة فى هذه الفترة، فاننا نجد انها، وان كانت قد ايدت دعوة عبد الله بن ياسين فى بادىء الامر، لم تثبت منذ وفاة زعيمها يحيى بن ابراهيم الجدالى، على طاعة عبد الله بن ياسين، بل انها صارت حربا عليه الى حد انها اعتبرت خارجة عن جماعة المرابطين (38).

ولكن على الرغم من كل هذا، اذا نحن حاولنا ان نتجاهل هذا الشك، وافترضنا جدلا صحة رواية القرطاس، وحاولنا ايضا ان نوفق بينهما وبين رواية الحلل الموشية وابن عذارى، فاننا نستطيع ان نقول ان لقب المرابطين قد اطلق فى مناسبتين مختلفتين :

الاولى : انه اطلق فى بادىء الامر على الجداليين الذين احتضنوا دعوة عبد الله بن ياسين ولازموا رباطه حتى وفاة زعيمهم يحيى بن ابراهيم الجدالى.

37) راجع كتاب رياض النفوس لابى بكر عبد الله المالكى ص 25 ـ 28 نشر الدكتور حسين مؤنس (القاهرة 1951)

38) راجع (البكرى، نفس المرجع ص 167 ـ 168)

ثانيا : انه اطلق بعد ذلك على اللمتونيين الذين نشروا دعوته وصبروا وصابروا فى سبيلها حتى عمت على ايديهم جميع انحاء المغرب والاندلس .

وهذا التحول المفاجىء فى سياسة عبد الله بن ياسين من جدالة الى لمتونة، لم يأت عفوا، وانما جاء نتيجة لمنافسة قديمة قامت بين هاتين القبيلتين حول زعامة صنهاجة .

فالذى يبدو من كلام المؤرخين انه بعد وفاة الزعيم الجدالى يحيى بن ابراهيم (39)، ارادت قبيلة جدالة ان تعرض على قبائل صنهاجة اميرا آخر من جدالة خلفا له، الا ان عبد الله بن ياسين ابى ان يخضع لمثل هذه النزعة القبلية الضيقة، كما ان الجداليين بدورهم عمدوا الى اهانته وهدم داره وطرده من ديارهم (40). عندئذ رأى عبد الله بن ياسين، بثاقب بصره، ان المستقبل للمتونة بحكم موقعها الجغرافى المتحكم فى الطرق الشمالية المؤدية الى المغرب، وبحكم شجاعتها وشدة مراستها فى القتال، ولانها كانت اكثر قبائل صنهاجة انقيادا له واشدها طاعة لله تعالى (41) .

لهذا كله، نقل عبد الله بن ياسين القيادة من جدالة الى لمتونة، وقلد الامير اللمتونى ابا زكريا يحيى بن عمر قيادة صنهاجة، ويبدو ان هذا التحول الخطير فى سياسة عبد الله بن ياسين قد جلب عليه حقد قبيلة جدالة وادى الى خروجها عن طاعته، يدل على صحة هذا الراى هذه العبارة التى تنقلها عن البكرى : «فابوا عليه وخالف عليه بنو جدالة، وذهبوا الى ساحل البحر (42)» اى الى مقر ديارهم. واضطر عبد الله بن ياسين نتيجة لذلك، ان يعتمد على قوة لمتونة وحدها فى نشر دعوته، وعانت لمتونة شدائد كثيرة فى هذا السبيل، واستشهد عدد كبير من رجالها ولا سيما فى المدينة الحربية التى اشرنا اليها من قبل، والتى كان من نتائجها ان اعلن عبد الله ابن ياسين ان المرابطين هم اللمتونيون لشدة صبرهم وحسن بلائهم (43) ، وكأنما اراد بهذا الاعلان ان يجرد جدالة من هذا اللقب، لتقاعسها عن نجدته،

39) اختلف المؤرخون حول وفاة هذا الامير، فبعض يرى انه مات قبل اعتزال عبد الله بن ياسين واصحابه فى الجزيرة (السلاوى : الاستقصا ج 2 ص 10) وبعض آخر يرى ان وفاته كانت بعد ذلك فى حدود سنة 440 ، راجع (حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 127)

40) البكرى ص 165 — 166

41) الحلل الموشية ص 10 ، القرطاس ج 2 ص 16

42) البكرى ص 167

43) الحلل الموشية ص 11

وان الاحداث التاريخية التى تلت ذلك لتؤيد هذا الرأى اذا علمنا ان قبيلة لمتونة هى التى تزعمت مهمة الغزو والجهاد فى بلاد المغرب والاندلس، وصار اسمها مرادفا لكلمة المرابطين (44)، كما صار زعماؤها ملوكا لهذه الدولة المرابطية العظيمة، اما قبيلة جدالة فقد ظلت تعارض زعامة لمتونة وتحاربها بالقوة المسلحة مدة من الزمان.

وقد وصف لنا البكرى ذلك الهجوم العنيف الذى شنته قبيلة جدالة على جبل لمتونة فى سنة 448 هـ. وما اسفر عنه هذا الجهوم من استشهاد الزعيم اللمتونى ابى زكريا يحيى بن عمر وعدد كبير من رجاله حتى قيل بأن اصوات المؤذنين كانت تسمع فى هذا الموضع فى اوقات الصلاة، ثم يضيف البكرى عبارة اخرى لها مغزاها اذ يقول : «ولم تكن للمرابطين بعد كرة الى بنى جدالة» (45). ويفهم من هذه العبارة كما يفهم من النص فى مجموعه ان قبيلة جدالة كانت خارجة على جماعة المرابطين بل انها قد تكون قد خرجت على الاسلام ايضا.

ولقد ايد صاحب الحلل الموشية وابن عذارى نبأ استشهاد هذا الزعيم اللمتونى على يد جدالة (46)، اما صاحب القرطاس، فيبدو أنه قد استسلم لخياله مرة اخرى اذ قال انه قتل فى السودان (47) .

ولما تولى الامير ابو بكر بن عمر اللمتونى قيادة المرابطين خلفا لاخيه الشهيد ابى زكريا يحيى بن عمر، ظلت جدالة على عدائها له. فعلى الرغم من الانتصارات الباهرة التى احرزها هذا الامير الجديد فى المغرب على الشيعه الرافضة فى تارودانت وعلى الزناتيين فى سجلماسة ودرعة واغمات وعلى البرغواطيين الكفرة فى تامسنا (الشاوية) (48) على الرغم من ذلك لم يسلم من مناوأة خصومه الجداليين، وفى ذلك يقول صاحب الحلل الموشية

«وبينما كان الامير ابو بكر بن عمر قد نزل بمراكش، وأخذ فى بناء الديار، وفد عليه رسل من قبل لمتونة بالصحراء يعلمونه أن جدالة اغارت

---

44) راجع على سبيل المثال كتاب الحلل الموشية ص 152 حيث يقول : والمرابطون هم لمتونة .

45) البكرى ص 167 ـ 168

46) الحلل الموشية ص 12

47) القرطاس ج 2 ص 20

48) من المعروف ان الامام عبد الله بن ياسين قد استشهد فى احدى هذه المعارك التى دارت مع البرغواطيين فى سنة 451 هـ (1059 م) ودفن فى مكان قريب من الرباط يسمى كريفلة

عليهم، وكانت بينهم فتنة عظيمة ذائعة، فاستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين على المغرب، ودخل الصحراء لاصراخهم والاخذ بثارهم من عدوهم (49)

وفي عهد السلطان يوسف بن تاشفين توطدت اركان دولة المرابطين في جميع انحاء المغرب، واخذت انظارهم تتطلع الى الجهاد في الاندلس، ولقد حرص هذا السلطان على اصطناع قبائل الصحراء والمغرب لتعبئة القوى المغربية نحو هذا الهدف الجديد، وهنا تدخل دعوة المرابطين لاول مرة في دور جديد، هو دور الجهاد ضد الاسبان المسيحيين.

ولعل هذه المرحلة الجديدة في الجهاد قد حدت بيوسف بن تاشفين وابنائه من بعده، ان يؤكدوا من جديد سنة اسلافهم اللمتونيين، بتلقيب انفسهم واتباعهم المجاهدين بلقب المرابطين، وقد يؤيد هذا الرأى قول صاحب المعجب .

«وحين ملك يوسف بن تاشفين امير المسلمين جزيرة الاندلس، تسمى هو واصحابه بالمرابطين (50) كما يؤيد هذا الرأى قول المؤلف نفسه في ترجمة ابنه على : «وقام بامره من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين، وتلقب بلقب ابيه أمير المسلمين، وسمى اصحابه بالمرابطين، فجرى على سنن ابيه في ايثار الجهاد واخافة العدو وحماية البلاد» (51).

من كل ما تقدم نرى – في شيء من التحفظ – ان التفسير الحقيقي لكلمة المرابطين، يبدأ منذ ان تولت لمتونة زعامة صنهاجة، اى منذ ان صار هذا اللفظ لقبا يمنحه الزعيم لاتباعه بمعناه المجازى اى المجاهدين الصابرين في سبيل الله، اما التفسير الخاص بالرباط الذى بناه عبد الله بن ياسين في ارض جدالة، فيبدو انه قد فقد مدلوله بخروج جدالة عن طاعة ابن ياسين وجماعة المرابطين .

النظام الحربي المغربي على عهد المرابطين والموحدين :

انفرد كتاب الحلل الموشية بأهمية تاريخية اخرى تتعلق بالمعلومات التي اوردها عن اساليب الحرب والقتال التي اتبعها المرابطون والموحدون، فهو في هذا الصدد يكمل كتاب سراج الملوك، لابي بكر الطرطوشي

49) راجع (الحلل الموشية، مخطوط رقم 2300 ل ورقة 3، ومخطوط رقم 1428 د ، ورقة 193، بالخزانة العامة بالرباط)

50) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص 163

51) عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص 171

الاندلسى (52) الذى وصف لنا تلك النظم الحربية على عهد اسلافهم الامويين فى الاندلس.

فهناك مثلا ذلك الوصف الذى اورده صاحب الحلل الموشية عن النظام الحربى الذى اتبعته لمتونة – اى المرابطون – فى قتالها، فيقول : «وكان للمتونة فى قتالهم شدة وباس ليس لغيرهم، وبذلك ملكوا الارض، وكان قتالهم على النجب اكثر من الخيل، وكان معظم قتالهم مرتجلين، يقفون على اقدامهم صفا بعد صف، يكون بايدي الصف الاول منهم القنا الطوال. وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف (53)»

كذلك اشار صاحب الحلل الموشية الى الخناجر المقوسة التى استخدمها المرابطون فى حروبهم وهى المعروفة فى لغة البربر باسم الاطاس (54) او الطاس (55). وهذا السلاح الجديد لم يعرفه الاسبان من قبل بدليل ان الملك الاسبانى الفونسو السادس قد طنه منجلا عند ما طعنه به فى فخذه احد عبيد يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة (56).

---

52) ابو بكر الطرطوشى من مؤرخى القرن الخامس الهجرى. ولد بمدينة طرطوشة فى شمالي شرق الاندلس 451 هـ (1059 م) وتلقى العلم بسرقسطة على ابى الوليد الباجى وباشبيلية على ابن حزم ورحل الى المشرق 1083 واختلف الى العراق والشام ومصر ثم استقر اخيرا بمدينة الاسكندرية فى عهد الفاطميين ومات بها سنة 520 هـ (1135 م) ولا يزال قبره يزار بالاسكندرية فى شارع الباب الاخضر . راجع ترجمة حياته فى المقال الذى كتبه عنه الدكتور جمال الدين الشيال فى مجلة المستمع العربى) وقد ترك لنا الطرطوشى كتاب سراج الملوك وهو كتاب فى الآداب السلطانية يتناول الصفات التى يجب ان يتحلى بها الملوك والاعمال التى ينبغى ان يلوموا بها فى اوقات السلم والحرب، ويتعرض الطرطوشى فى معرض كلامه الى النظم الحربية والخطط العسكرية التى اتبعتها الجيوش الاندلسية ايام الخلافة الاموية، ومن هنا تظهر اهمية هذا الكتاب. وقد طبع الكتاب فى القاهرة مرارا 1289 ، 1354 واستغل المستشرقون مادته فى ابحاثهم وكتبهم ونذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ الهولندى دوزى فى كتابه: Recherches sur l'Histoire des Arabes d'Espagne 2 vols. (ليدن 1881) والمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فى كتابه l'Espagne Musulmane au X^me siècle (Taris 1932) وهناك ايضا العالم الاسبانى Alarcon الذى ترجم الكتاب برمته الى الاسبانية تحت عنوان Lámparas de los Príncipes (Madrid 1930)

53) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 11 وقد نص المؤلف على انه نقل هذا الوصف من البكرى، وبالرجوع الى هذا الكتاب ص 166 وجدنا هذه الزيادة الهامة : « .. وما يليه من الصفوف بايديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منها عدة، يزرقها فلا يكاد يخطئ، ولا يشوى، (اشوى السهم اى اخطاء)، ولهم رجل قدموه امام الصف بيده الراية. فهم يقفون ما وقفت منتصبة وان امالها الى الارض جلسوا جميعا، فكانوا اثبت من الهضاب، ومن فر امامهم لم يتبعوه»

54) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 48

55) الحلل الموشية مخطوط رقم 2300 ورقة 21 (خزانة الرباط)

56) الحلل الموشية (طبعة علوش) ص 48

وفى موضع آخر من هــذا الكتاب، يصف صاحب الحلل الموشية الحلم المفزع الذى رآه الملك الاسبانى الفونسو السادس قبل موقعة الزلاقة، فيقول انه رأى فى نومه انه يركب فيلا والى جانبه طبل معلق وهو يضربه، فاستيقظ مذعورا وقــال ان الفيل ليس فــى بلادنا ولا عايناه قط فمن اين لنا به ؟ ثم ان الطبل ما هو فى شكلنــا ولا من زينــا فمن اين لنا به ؟ (57) ونستنتج من هــذا النص ان الاسبان لم يستخدموا آلات الطبل فى حروبهم على حين استخدمها المرابطون بكثرة لارهاب العدو واثارة خيوله، ويبدو ان هذه العادة قد اخذوها عن زنوج افريقيا.

وقد ايد ابن خلــدون هــذه الظاهــرة فى مقدمته اذ قال بأن الاسبان استعملوا فى مواطن الحروب الآلات الموسيقيــة... لا طبلا ولا بوقا (58)». وفى هذا الصدد ايضا يقول المؤرخ الالمانى يوسف اشباخ فى وصف احدى معارك المرابطين : «واجتمع النصارى للقتال على نفخ القرون والمزمار، واجتمع المسلمون على قرع الطبول» (59)

كذلك اورد صاحب الحلل الموشية قصيدة شعرية تضمنت ألوانا من فنون الحرب وحيلها علــى عهد المرابطين. وقد أهديت الى الامير تاشفين بن على بــن يوسف بــن تاشفين، ومن نظم كاتبه المؤرخ ابى زكريا يحيى بن الصيرفى الغرناطى (60). وهذه القصيدة انشدت عقب محنة اصابت الامير تاشفين خلال معركة خاضها مع الاسبان ليلا، وانفض فيها اتباعه من حوله، ولولا ثبات الامير وشجاعته لكانت الهزيمة والفضيحة محققة، وتبدأ القصيدة بتهنئة الامير تاشفين بسلامته، ثم توجه له نصائح حربية لمراعاتها فى القتال ثم تنتهى بعتاب صنهاجة علــى تركها لقائدها فى ميدان القتال وحده (61). ولقد اورد لسان الدين ابــن الخطيب نفس هــذه القصيــدة فى كتابه اعلام الاعلام ونسبها ايضا لابن الصيرفى، الا اننا لاحظنا بعض الاختلاف فى كثير

---

57) الحلل الموشية ص 41

58) مقدمة ابن خلدون ص 258 (طبعة مصطفى محمد)

59) اشباخ: تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ص 103 ترجمة محمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية)

60) نقل الاستاذ علوش هذا الاسم خطا فكتبه «ابو زكريا بن العربى» (الحلل الموشية ص 102) وبالرجوع الى الاصول الخطية لهذا الكتاب (مخطوط رقم 2300 .أ ورقة 43 الرباط) وجدنا ان الاسم الصحيــح هو ابــو زكريا يحيى بن الصيرفى الغرناطى صاحب كتاب الانوار الجلية فى اخبار الدولة المرابطية الذى اعتمد عليه صاحب الحلل الموشية . راجع ترجمته فى الصفحات الاولى من هذا المقــال

61) علوش : الحلل الموشية ص 102 وما بعدها

من كلماتها (62). والقصيدة طويلة ولا يتسع المجال لذكرها كاملة، ولهذا نكتفى بذكر بعض ابياتها على سبيل المثال معتمدين فى ذلك على النسخة الخطية (63) لكتاب الحلل الموشية :

يا أيها الملأ (64) الذى يتقنع من منكم البطل الهمام الاورع
ومن الذى غدر العدو به دجى فانفض (65) كل وهو لا يتزعزع
تثبت والاقدام تزلق والردى حول السرادق والاسنة تقرع
لا يعظمن على الامير فانها خدع الحروب وكل حرب تخدع
يا أشجع الابطال ليلة أمسه اليوم انت مع التجارب اشجع
أهديك من ادب الوغى حكما بها كانت ملوك الحرب مثلك تولع
لا انني ادرى بها لكنها ذكرى تخص المومنين وتنفع
خندق عليك اذا ضربت محلة سيان تتبع ظاهرا او تتبع
وتوق من كذب الطلائع انه لا رأى للكذاب فيما يصنع
حارب بمن يخشى عقابك بالذى يخشى وهو فى جود كفك يطمع
قبل التهارش عب جيشك مفسحا حيث التمكن والمجال الاوسع
إياك تعبئة الجيوش مضيقا والخيل تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيها وكن فى قلبها واجعل أمامك منهم من يشجع
والبس لبوسا لا يكون مشهرا فيكون نحوك للعدو تطلع
واحذر كمين الروم عند لقائها وامض كمينك خلفها اذ تدفع
لا تبقين النهر خلفك عند ما تلقى العدو فشره متوقع
واصدمه اول وهلة لا ترتدع بدءا (66) تقدم فالنكوص يضعضع
واذا تكاتفت الرجال بمعرك ضنك فاطراف الرماح توسع
ونراك تعتب ان تولت عصبة كانت توفى للوعاد وتدفع
من معشر إعراض وجهك عنهم انكى عقاب فى القلوب واوجع

62) ابن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام فيمن بويع من ملوك الاسلام قبل الاحتلام الجزء الثالث الخاص بتاريخ المغرب وهو مخطوط بخزانة الرباط رقم 1552 .D ورقة 274 وما بعدها .

63) النسخة رقم 2300 .J بخزانة الرباط، وهى اصح واكمل من النسخ الاخرى المودعة بالخزانة. راجع كذلك طبعة علوش ص 102 واما بعدها

64) فى طبعة علوش : الملك

65) فى طبعة علوش : فانفض

66) بعد التقدم

وهم الكرام فأين يذهب عنهم !. … فعل الجميل وسخطك المتوقع
تكبو الجياد وكل حبر عالم … يهفو وتنبو المرهفات القطع
أنى فزعتم يا بنى صنهاجة … وإليكم فى الروع كان المفزع
ما بال سيدكم تورط لم يكن … لكم التفات نحوه وتجمع
تلك التى جرت عليكم خطة … شنعاء وهى على رجال أشنع
أو ما ليوسف جده من على … كل وفضل سابق لا يدفع
أو ما لوالده علي نعمة … وبكل جيد ربقة لا تخلع
أبطاتم عن تاشفين ولم يزل … إحسانه لجميعكم يتسرع
ومن العجائب انه مع سنه … أدرى وأشهم فى الخطوب واضلع
ولقد عفا والعفو منه سجية … ولسطوه لو شاء فيكم موضع
يا تاشفين لهم بجيشك غدرة … بالليل والقدر الذى لا يدفع
كم وقعة لك فى ديارهم اثنت … عنها اعزتها تذل وتخضع
النعمة العظمى سلامتك التى … فيها من الظفر الرضى والمقنع
لا ضيع الرحمن سعيك انه … سعى به الاسلام ليس يضيع

هذا، وتظهر لنا اهمية كتاب الحلل الموشية ايضا عند ما يتكلم عن الموحدين وعن أنظمتهم الحربية، من ذلك وصفه مناعة مدينة تينملل (67) التى اختارها المهدى بن تومرت مركزا لدعوته، وهى تقع على بعد 101 ك. م. في الطريق من مراكش الى تارودانت (قاعدة سوس) عبر الاطلس الكبير :

«...وتوجه المهدى الى تينمال لما رأى من منعتها وحسن موضعها، فقسم أرضها وديارها على أصحابه فى خبر يطول شرحه، وأدار على المدينة سورا احاط بوهداتها، وبنى على رأس الجبل (أطلس اودرن) سورا، وأفرد فى

67) تكتب احيانا تينمل وتينمال وتينملل
يصف الادريسي هذا الحصن بقوله :

«، وفى اعلا جبل درن الاعظم (الاطلس الكبير) جمل من قلاع وحصون تشف على نيف وسبعين حصنا، ومنها الحصن المنيع القليل مثله فى حصون الارض بنية وتحصينا ومنعة، وهو فى اعلا الجبل، ومن حصانته ان اربعة رجال يمسكونه ويمنعون الصعود اليه، لان الصعود اليه على مكان ضيق وعر المرتقى لانه يشبه الدرج الحرج ، ولا ترتقى اليه دابة البتة الا بعد جهد ومشقة. واسم هذا الحصن تانمللت، وهو كان عمدة المصمودى محمد ابن تومرت حين ظهر بالمغرب، وهو الذى زاد فى تشييده، ونظر فى تحصينه، وجعله مدخرا لامواله، وبه الآن قبره .

راجع الادريسي : المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ص 64، لنشره وترجمه للفرنسية دوزى ودى خويه تحت العنوان التالي : Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi (R. Dozy et de Goeje Leyde 1866)

قمته حصنا يكشف على ما وراء الجبل، ولا يعلم مدينة احصن من تينمال، لا يدخلها الفارس الا من شرقها او من غربها. فأما غربها، وهو الطريق اليها من مراكش فطريق أوسع ما فيه ان يمشى عليه الفارس وحده، وأضيقه ان ينزل عن فرسه خوفا من سقوطه. وكذلك شرقها، لان الطريق مصنوعة فى نفس الجبل، تحت راكبها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب اذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها احد، ومسافتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم ...» (68) .

اما عن طريقة الموحدين فى القتال، فقد اوردها ايضا صاحب كتاب الحلل الموشية نقلا عن مؤرخ معاصر للموحدين، فيقول : «قال بن اليسع، حدثنى غير واحد من الموحدين قال لما نزلنا من جبل تلمسان نريد بلاد زناتة، أتبعنا المرابطون، فتلاقينا معهم، قال فصنعنا دائرة مربعة فى البسيط جعلنا فيها من جهاتها الاربع صفا من الرجال بايديهم القنا الطوال، وورائهم أصحاب الدروق والحراب صفا ثانيا، ومن ورائهم اصحاب المخالى فيها الحجارة، وورائهم الرماة. وفي وسط المربعة الخيل. فكانت خيل المرابطين اذا دفعت اليهم، لا تجد الا الرماح الطوال الشارعة، والحراب والحجارة والسهام الناشرة، فاذا ماتوا من الدفع وادبروا، تخرج خيل الموحدين من طرق تركوها، وفرج اعدوها، فتصيب من اصابت، فاذا كرت عليهم دخلوا فى غاب القنا (69)» .

وقد غالى الموحدون فى استعمال الطبول الكبيرة الضخمة التى يخيل لسامعها ان الدنيا تهتز من حوله؛ وقد وصف صاحب الحلل الموشية احد هذه الطبول فى هذه العبارة : «وكانت عادته فى أسفاره (اى الخليفة عبد المؤمن) ان يرحل بعد صلاة الصبح بعد ان يضرب طبل كبير مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعا، منشأ من خشب أخضر اللون مذهب، فاذا ضربت فيه ثلاث ضربات، علم انه طبل الرحيل فيرحل الناس، وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع فى يوم لا ريح فيه» (70) ويؤيد هذا قول صاحب المعجب ان جيش عبد المؤمن كان يحتوى على اكثر من مائتى طبل فى نهاية الكبر وغاية الضخامة، يخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز، ويحس ان قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها (71) .

68) الحلل الموشية ص 92
69) الحلل الموشية ص 108
70) الحلل الموشية ص 126
71) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 232

وقد حرص خلفاء الموحدين على تربية الشبيبة المغربية تربية عسكرية اسلامية واعدادها لتولى مناصب الادارة والقيادة والحكم فى الدولة. يدل على ذلك هذه العبارة التى نقلها صاحب الحلل الموشية :

«وربى ـ عبد المؤمن ـ الحفاظ (صغار الطلبة) بحفظ كتاب الموطأ، وهو كتاب أعز ما يطلب، (72) وغير ذلك من تآليف المهدى (73)، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة، من المصامدة وغيرهم قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب، ويوما بالرمى بالقوس، ويوما بالعوم فى بحيرة صنعها خارج بستانه، ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم فى تلك البحيرة، فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء وتارة بالادب، وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده، وخيلهم وعددهم كذلك. ولما كمل هذا المراد فيهم، عزل بهم اشياخ المصامدة عن ولاية الاعمال والرياسة وقال العلماء اولى منكم، فسلموا لهم الامر، وابقاهم معهم فى المشورة» (74).

---

72 ـ 73) يفهم من عبارة الحلل الموشية ان الموطأ واعز ما يطلب، كتاب واحد للمهدى ابن تومرت، والواقع انهما كتابان منفصلان، فكتاب الموطأ الذى صنفه ابن تومرت، عبارة عن الاحاديث النبوية التى وردت فى موطأ مالك بن انس برواية الفقيه ابى زكريا يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومى وذلك بعد حذف معظم الاسناد منها للاختصار

وقد نشرت موطأ المهدى بن تومرت مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر سنة 1907، وبالخزانة العامة بالرباط نسختان من هذا الكتاب على رق الغزال رقمى 840 ج ـ 1222 ج والنسخة الاولى من املاء الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على نفسه، اذ ورد فى مقدمتها ص 4 العبارة الآتية: «حدثنا سيدنا ومولانا الخليفة الامام المنصور الناصر لدين الله أمير المومنين ابو محمد عبد المؤمن بن على، اعلى الله امره واعز نصره، بحضرة مراكش يوم الاثنين الثالث من ذى الحجة سنة اربع واربعين وخمس مائة، قال الامام المعصوم المهدى المعلوم أبو عبد الله محمد بن عبد الله رضى الله عنه غرة شهر رمضان المعظم عام خمسة عشر وخمسمائة برباط صرغة ببلد السوس الخ» وفى آخر هذه النسخة (ورقة 134) اسماء المؤلفات والتعليقات التى كتبها المهدى بن تومرت، وهى كثيرة جدا نذكر منها كتاب اعز ما يطلب وكتاب القواعد وكتاب الامامة. والكتاب الاول (اعز ما يطلب) موجود، وهو ايضا من املاء الخليفة عبد المومن بن على نقلا عن المهدى، ويتضمن فصولا فى التوحيد وفى التشبيه بين الخالق والمخلوق وفى الاصل والفرع وفى الصلاة وتحريم الخمر. الخ وقد نشره ايضا العالم الالمانى جولدزيهر بالجزائر 1903. اما عن مؤلفات المهدى الاخرى كالامامة والقواعد فهى فى حكم المفقودة وقد أشار اليها صاحب الحلل الموشية (ص 89 ـ 90) فى هذه العبارة :

«وألف لهم كتابا سماه بالقواعد وآخر سماه بالامامة (نقلها علوش الامانة، راجع النسخة الخطية للحلل الموشية (رقم ل 2300 لوحة 37 ب ـ خزانة الرباط) هما موجودان بأيدى الناس الى هذا العهد ودونهما بالعربى والبربرى»

74) الحلل الموشية ص 125 انظر كذلك (محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 98 (تطوان 1950)

ومما يـدل على استمرار هذه العادة بعد ذلك، ما رواه صاحب المعجب من ان الخليفة يوسـف بـن عبـد المؤمن، امر العلماء بالقاء المحاضرات فى الجهاد على الموحدين ليدرسوها، وانه شارك فى القائها، فكان يمليها عليهم بنفسه، وكان كل احد مـن هـؤلاء الطلبـة يحمـل لوحا يكتب فيه ما يملى عليـه (75) .

من كـل ما تقدم نـرى ان كتـاب الحلـل الموشية قد امدنا بمعلومات تاريخية قيمة عن تاريخ المرابطين والموحدين، وانه قد اضاف الى العلم حقائق تاريخية نجد صداها فـى روايات غيره من المؤرخين الذين افادوا منها وقدموا بذلك اضافات تستحق التقدير .

75) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 254 – 255

محمد الفاسي

المؤرخان ابن ابي زرع وابن عبد الحليم
تحقيق عن مؤلف كتاب القرطاس

الحمد لله

سادتي

هذا نص حديث كنت القيته من مذياع الرباط منذ قريب من عشرين سنة (1) ضمن سلسلة تاريخ الادب العربي بالمغرب الاقصى التي كنت وصلت فيها الى اواسط العصر المريني – وقد اطلعت اخيرا على بحث للاستاذ السيد عبد الله كنون حول مؤلف «الذخيرة السنية» نشره في العدد الثاني من هذه المجلة تحت عنوان : «مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس»، وقد كنت حققت في هذا البحث الذي انشره اليوم ان مؤلف القرطاس المطبوع ليس هو ابن ابي زرع الفاسي بل هو صالح بن عبد الحليم، وعليه فبما ان الاستاذ كنون استند على كتاب القرطاس المطبوع في البرهنة على ان مؤلفه هو نفس مؤلف الذخيرة السنية فيكون صالح بن عبد الحليم هو مؤلف الذخيرة كذلك – وهذا نص الحديث :

كنا بدأنا الكلام على هذا العصر المريني الاول بدراسة اثر المؤرخ الجليل ابن عذاري المراكشي صاحب كتاب البيان المغرب وهو اول مؤلف جمع اخبار افريقيا الشمالية والبلاد الاندلسية منذ الفتح الاسلامي الى ايام أبي يعقوب المنصور المريني وفي آخر هذا العصر ألف ايضا اول كتاب خاص بتاريخ المغرب الاقصى وهذا يؤيد ما كنا ذكرناه في كلامنا على مميزات هذا العصر من ازدهار الابحاث التاريخية فيه لاهتمام ملوك بني مرين بها.

وهذا المؤلف التاريخي الذي نشير اليه الآن والذي اريد ان احدثكم عنه الليلة هو اشهر كتاب عند المغاربة وهو كتاب القرطاس كما يسمى عادة وسنرى بعد اسمه الحقيقي .

وكما اننا لم نتوصل الى معرفة تفاصيل حياة ابن عذارى فكذلك لا نعرف الا اقل القليل عن مؤلف القرطاس بل يحيط شخصه واسمه من الابهام والغموض والالتباس ما يجعلنا نزيد تعجبا في اهمال اهل المغرب لرجالهم .

---

1) كان ذلك بالضبط يوم الاحد 29 جمادى الاولى سنة 1361 (الموافق 14 يونيه 1942)

واول ما نلاحظ انه لم ترد ترجمة مؤلف القرطاس فى كتاب من الكتب التـى بأيدينا وقد ورد اسمه فى جذوة الاقتباس فى نسخة مخطوطة اوسع من المطبوعة هكذا: «على بن ابى زرع صاحب كتاب الانيس المطرب كان حيا بعد العشرين وسبعمائة وهو من اهل مدينة فاس» وهذا كل ما يوجد من ترجمته فى الكتاب الخاص بأعيان فاس وعظمائها والحالة انـه اشهـر من نوه باسم هذه المدينة وجمع اخبارها بتفصيل وذكر كثيرا من مشاهيرها .

ثـم انه يوجد اختلاف كبير فى تعيين اسمه فقد رأينا ان ابن القاضى يسميه عليا بن ابى زرع وقد ورد اسمه فى كتاب ذكر بيوتات فاس فى القديم وهو كتاب مخطوط ينسب للامير ابى الوليد اسماعيل بن الاحمر وفيه فوائد جليلة قلما نجدها فى غيره وهو الذى سنعتمد عليه فـى حل المشكل المتعلق بمؤلف كتاب القرطاس هذا، وهو يسميه ابا العباس احمد بن ابى زرع، وفى ظاهر النسخة المطبوعة بفاس يسمى ابا عبد الله محمد بن عبد الحكيم عرف بابن ابى زرع .

ثم اننا نرى صاحب كتاب الذخيرة السنية فى تاريـخ الدولة المرينية يذكر بعد كلامه على تاسيس المسجد الجامع بفاس الجديد سنة 677 ما يلى (1) «واول خطيب خطب به الفقيه المحدث ابو عبـد الله محمـد بن ابى زرع، كما ان ابن القاضى يذكر فى «درة الحجال» فى ترجمة محمد بن احمد ابن جزى ما يلى بعد ان ذكر ان ابن جـزى توفى سنة احدى واربعين وسبعمائة بواقعة طريف «وتوفـى بالواقعـة المذكـورة ايضـا الكاتـب ابو عبد الله محمد بن ابى زرع» (2).

اذا كان اسم مؤلف القرطاس ؟ فهل كان عليا ام احمد ام محمدا، وهل هو ابن عبـد الحكيـم ام ابـن ابـى زرع ؟ وهل توفى قريبا مـن العشرين وسبعمائة ام سنة احدى واربعين وسبعمائة ؟

يظهر لنا ان كل هذا الخلط وقع بسبب وجود شخصين الفا فى زمان متقارب، بل كانا متعاصرين. كتابا فى تاريخ المغرب اطلقا عليه اسما متحدا ولا ندرى أكان ذلـك عفوا أم قلد احدهمـا الآخـر .

ونجد هذا الحـل عنـد مؤلـف ذكر بيوتات فاس فى القديم، قال عند كلامه استطرادا على الوزير لسان الدين بن الخطيب وقتله بفـاس «واما ما زعمه عوام مدينـة فـاس مـن ان باب الشريعة سميت باب المحروق من اجل

1) ص 188
2) ج 1 ص 211 عدد 553

احراق ابن الخطيب بها ليس كذلك وانما سميت باب المحروق من اجل ثائر من العبيديين ملوك مصر ثار بجبل غمارة بعد انقراض دولتهم فى ايام بنى عبد المومن بن على فقبضوا عليه وقتلوه واحرقوه بباب الشريعة فسميت الباب به من اجل احراقه بها وقد ذكر ذلك صالح بن عبد الحليم فى الانيس المطرب بروض القرطوس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس وكان انتهاؤه لتاليفه هذا عند وفاته فى سنة ست وعشرين وسبعمائة فكان بن الخطيب ذلك الوقت شابا بالاندلس بلوشة فى المكتب، وقد ألف صالح ابن عبدالحليم كتابا آخر سماه «زهر البستان فى اخبار الزمان» اكبر من الانيس والانيس اثنان الصغير وهو تاليف صالح بن عبد الحليم المذكور، والكبير وهو تاليف الشيخ الكبير الامام الخطيب البليغ الواعظ الورع الزاهد الولى الصالح العلامة المدرس المفتى ابى العباس أحمد بن ابى زرع تولى الامامة والخطبة بجامع القرويين بطلب العوام منه ذلك ولحظه الناس وطلبوا منه سنة الاستسقاء فصلى بهم خارج باب الفتوح وقدم بين يديه «اله صلى الله عليه وسلم كما فعل عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنهما فسقى الناس وحمدوا الله على اجابة دعائهم وكانت وفاة ابن ابى زرع فى بضعة عشر وسبعمائة وكثيرا ما يتفقان فى الاخبار بالمسائل» (1)

وقد اوردت هذا النص باكمله لما يحتوى عليه من الفوائد ولانه يرفع كل لبس فى ما يتعلق بمؤلف القرطاس، ويستفاد منه اولا انه يوجد كتابان فى تاريخ المغرب اسم كل واحد منهما الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، وان احدهما كبير وهو تاليف ابى العباس احمد بن ابى زرع والثانى صغير وهو تاليف صالح بن عبد الحليم، وان ابن عبد الحليم هذا ألف كتابا آخر فى التاريخ سماه زهر البستان فى اخبار الزمان وانه اكبر من تاليفه الآخر .

وان هذا الاتفاق الغريب هو الذى كان سبب الالتباس الذى حصل بين ابن ابى زرع وابن عبد الحليم واننا نرجح ان اسم ابن ابى زرع كان احمد لا عليا ولا محمدا وذلك لان صاحب ذكر بيوتات فاس فى القديم قريب من عصر ابن ابى زرع وهو يظهر تدقيقات وتحقيقات فى ما يذكره من المسائل قلما نجد لها مثيلا فى غيره من المؤلفات من نوعه، كما ان التحلية التى حلى بها ابن ابى زرع تدل على انه كان يعرف اخباره، ثم ان هذا الاسم هو الذى

1) فى باب بنى أبى مدين

ورد داخل كتاب القرطاس نفسه عند كلام المؤلف على خطباء مسجد القرويين حيث قال : «فقدم فقهاء المدينة واشياخها الشيخ الفقيه الصالح المبارك قارىء الكتاب بالجامع المذكور ابا العباس احمد بن ابى زرع اماما» (1)

وهذا ما يجعلنا نتساءل الآن كيف ورد اسم ابن ابى زرع بهذه التحلية فى الكتاب الذى ينسب له ؟ والجواب على هذا الاشكال سهل بعد ما رأينا ما ذكره صاحب كتاب ذكر بيوتات فاس فى القديم من ان القرطاس قرطاسان ـ وعليه فلا شك ان القرطاس المطبوع بفاس هو لصالح ابن عبد الحليم وقد وضع الناشرون له فى اوله الاسمين معا كما رأينا جاعلين من ابن عبد الحليم وابن ابى زرع شخصا واحدا واما قرطاس ابن ابى زرع فهو اكبر من هذا وهو يعتبر ضائعا وقد كان ذكر لى الفقيه العلامة المؤرخ القاضى سيدى عبد الحفيظ الفاسى انه كان عند احد ابناء ابن الحاج احدى عائلات فاس المجيدة نسخة مخطوطة من القرطاس اكبر من النسخة المطبوعة ولا شك ان هذه النسخة هى من تاليف ابن ابى زرع .

ومما يؤيد ما نذهب اليه من ان القرطاس المطبوع هو لصالح بن عبد الحكيم ما نراه فيه من احالته على كتاب آخر له يسمى زهر البستان فى اخبار الزمان وقد رأينا صاحب ذكر بيوتات فاس فى القديم يقول ان لابن عبد الحكيم كتابا آخر فى التاريخ وسماه بهذا الاسم .

ويظهر مما حلى به ابن ابى زرع انه كان من الورع والتقى بمكان جعله معظما عند اهل فاس وأنه كان له زيادة على اطلاعه الواسع فى علم التاريخ تضلع فى العلوم الاخرى خصوصا فى الفقه حيث كان من المدرسين المفتين .

اما تاريخ وفاته فلا نعرفه بالضبط وما يذكر من انه توفى سنة ست وعشرين وسبعمائة لا شك هو تاريخ وفاة صالح بن عبد الحليم اما هو فتوفى فى بضعة عشر وسبعمائة كما نص على ذلك صاحب ذكر بيوتات فاس فى القديم، وهذا ايضا مما يؤيد ان القرطاس المطبوع الذى تنتهى اخباره الى سنة ست وعشرين هو ليس له بل لابن عبد الحليم، واما اسمه فهو الانيس المطرب بروض القرطاس ويظهر ان روض القرطاس كان متنزها لاحد الامراء بفاس ولعله زيرى بن عطية المغراوى وكان خارج فاس من جهة باب المسافرين يسمى زيتون ابن عطية ونرى فى كتاب مفاخر البربر نقلا عن كتاب المقياس فى اخبار المغرب وفاس لابى مروان عبد الملك بن موسى

1) القرطاس طبعة فاس سنة 1303 ص 49

الـوراق ان زيرى كـان يلقـب بالقرطاس (1) وربما صحف هذا اللقب فى مخطـوط المفاخـر عن القرطـاس فكـان يقال لزيتون ابن عطية ايضا روض القرطاس وكيـف ما كـان الامر فلا شك انه كان بفاس روض يسمى هكذا كان يتتابه اهل فاس للتنزهة وترييض الفكر فسمى عليه ابن ابى زرع وابن عبد الحليم كتابيهما فقالا كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس واختصرت هذه التسمية فأسقـط الانيس المطـرب خصوصـا بعد ما الف العلمى كتابه المسمى هكذا ليلا يقع التباس بينهما، وصار لا يعرف هذا الكتاب الا بكتاب القرطاس حتى ظن المؤرخ أكنسوس مع مكانته فى الادب والتاريخ ان القرطاس اسم المؤلـف (2) وكتـاب القرطـاس فـى غنى عن التعريف به فهو متداول منتشر يعرفـه الخـاص والعام الا اننا ننبه الى أنه لاقى مثل هذا الاقبال من علمـاء الاستشـراق وكـان من اول الكتب التى اهتموا بنشرها ونقلها الى لغاتهم واول ترجمة له كانت التى قام بها بيتيس دى لاكروا الفرنسى وذلك سنة ثـلاث وتسعين وست مائة والف ثم ترجم قرنا بعد ذلك الى الالمانية حيث ترجمـه دومبـى Dombay ثم ترجم الى البرتغالية سنة اربع وعشرين وثمانمائة والف بقلم الراهـب دي سانطومورا واول نشرة عربية لهذا الكتاب ظهرت بأبســالا احـدى عواصم العلم بالسويد سنة ثلاث واربعين وثمانمائة وألف اى منذ اكثر من مائة سنة مع ترجمة لاتينية بقلم المستشرق طورنبرك Trnbey. وفى سنة ستين وثمانمائة والف ظهـرت ترجمة فرنسية نشرها بوميى، واما بالمغرب فانه طبع اربع مرات بفاس على الحجر وقد كان بدىء العمل فى نشـره اخيـرا نشرة متقنة قامت بها شركة النشر المغربية التى كان أسسها المأسوف عليه فقيـد المغرب الشاب سعيد حجي رحمه الله وقام بتصحيحها وتحلية حواشيها بتعاليق مفيدة الاستاذ محمد الهاشمى الفيلالى الا انه عاقت الظروف عن تكميله فلـم يظهـر منه الا نحو النصف وعسى ان يوفق الى تتميمه لتعميم الفائدة به .

امـا صالـح بـن عبد الحليم ولا تنس انه هـو مؤلف كتاب القرطاس المطبوع الذى تكلمنـا عنه كما تبين من البحث السابق فان ترجمته وان كنا لا نعرف تفاصيلها فانهـا معروفـة اكثر من ترجمة ابن ابى زرع وقد ذكره

1) مفاخر البربر ص 37

2) انظر الجيش العرمرم ج 1 ص 39 حيث قال : «قال القرطاس فى كتابه» ولم يكتف بهذا الخطأ الفادح بل تعدى ذلك الى تخطئة كل من يعتقد خلاف ذلك فقال : «والقرطاس لقب لمؤلف الكتاب المعلوم نبهنا عليه لانه يظن انه اسم ووصف للكتاب : » !

صاحب مفاخر البربر وابن القاضي في درة الحجال وصاحب ذكر بيوتات فاس في القديم.

وهو ابو على صالح بن ابى صالح عبد الحليم كان بربرى الاصل ايلانى النسب وايلان من مصمودة ولا تدرى اين ولا متى ولد الا انه لا شك عاش بفاس مدة طويلة وبها درس ولولا ذلك لما امكنه ان يكتب ما كتب عن مدينة فاس اذ القرطاس هو في آن واحد تاريخ المغرب عموما وتاريخ مدينة فاس بالخصوص وقد فرغ من تاليف كتابه هذا سنة ست وعشرين وسبعمائة كما يقول صاحب ذكر بيوتات فاس القديم، الا انه فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة كان مقيما بمدينة نفيس المندثرة اليوم ولعل اصله منها لانها كانت في بلاد مصمودة وربما انتقل بعد تلك السنة الى فاس واربع عشرة سنة كافية ليطلع على احوال فاس ويدرس تاريخها ولا شك انه كان مولعا بالتاريخ قبل ذلك وطالع كتبه وتضلع منه، وصاحب مفاخر البربر يصفه ايضا بالورع والزهد ويقول : «قد جمع الله له بين العلم والعبادة وخصه بالفضل والديانة اشتهر بالعفاف واقتصر من الدنيا على الكفاف مع الانقباض عن اهل الدنيا والحلول من الورع فى الدرجة العليا» (1) وقد نقل ابن القاضي ترجمته عن كتاب مفاخر البربر بالحرف ولم ينسب ذلك لمؤلفه على عادته (2) .

وقد كان لصالح بن عبد الحليم اطلاع واسع على انساب البربر واخبارهم ولا شك انه توسع فيها فى كتابه الكبير المسمى زهر البستان ويؤسف على ضياعه ويوجد بالخزانة العامة بالرباط مخطوط مبتور الاول – والآخر وهو فى ذكر البرابرة واصلهم وذكر اول من نزل المغرب منهم وفى آخر بلغ علمنا فى أنساب سكان المغرب الاوسط وسنذكر ان شاء الله تعالى ما وجدنا لذكره سبيلا فى انساب اهل المغرب الاقصى» فلا شك ان هذا طرف من من كتابه المذكور زهر البستان لان ما يوجد منه فيه ايضا الكلام على اول الفتح الاسلامى .

وتوفى صالح بن عبد الحليم كما قدمنا سنة ست وعشرين وسبعمائة وهى السنة التى فرغ فيها من تاليف كتابه الانيس المطرب بروض القرطاس والى هذه السنة ايضا تنتهى اخبار الدولة المرينية فى كتاب القرطاس المطبوع .

1) ص 75
2) انظر ج 2 ص 329 عدد 908

نـفـل بـربـر

سفـارة جـون ملـك انجلتـرا الـى محمد الناصر ملك المغرب

ترجمة محمد بن تـاويت

ان المدونة الكبرى التاريخية the Chronica Majora التى ألفها باللاتينية ماثيو الباريسى «Matthew of Paris» كمدونة القرن الثالث عشر للتاريخ الانجليزى تعطي تفاصيل عـن سفـارة كـان قد بعـث بها جون ملك انجلترا الى أمير مسلم (1) وقد ذكر هذا الامير بـاسم «Admiralius Murmelius» وأنه أعظم ملك لافريقيـا والمغـرب الاقصـى واسبانيا، ويعرف بين الاوساط العامة باسم «Miramumelius» كما يذكر ايضا باسم «Miramolin»

وهذه الالقاب الغريبة الجرس ما هى فى الواقع الا مجرد أسماء أوربية، تناسلت فى العصور الوسطى من اللقب العربى «أمير المومنين» الذى اتخذه الموحدون لقبا لملوكهـم .

وتضع المدونة المذكورة هذه السفارة بيـن حوادث سنة 1214، وبما انها تقـص علينـا ان هذه السفـارة حدثت قبيل وقعة العقاب Las Navas de Tolosa فان التاريخ الصحيح لها لا يمكن ان يكون متأخرا عن سنة 1212 .

ثم ان اسبـاب هـذه السفارة مذكورة فى عبارات متماثلة تماما، مثبتة فـى قـرارات رؤسـاء الرهبـان لديـر القـديس البان St. Alban's Monastery حيث كـان ماثيـو البـاريسى قد التحق كراهب سنة 1217، فمن هذه يوخذ بالاستنتـاج الدقيـق، ان هـذه السفـارة كانت من حوادث سنة 1212 (2)، والامير فى هذه القضية لابد ان يكون الملك الموحدى محمد الناصر .

ويذكر لنا ماثيو انـه سمع تفاصيل السفـارة من رجل اسمه «روبرت أوف لـنـدن Robert of London كان هو نفسه مشاركا فى تلك السفارة،

1) Matthaei Parisiensis. Chronica Majora. Rolls Series. London 1874. Vol. 2. p. 559.

2) Gesta Abbatum Monasterii Sancti Albani. Rolls Series, London 1867. Vol. 1. p. 324.

ولهذه الخدمة وخدمات أخرى له قد كوفيء من قبل الملك جون بأن أسند اليه وظيفة القيم على الدير المذكور، الامر الذى اثار امتعاض الرهبان الذين لم يرضوا عن وجود هذا الدخيل بينهم .

كان روبرت هذا فى سفارته مصحوبا بفارسين، هما «توماس» أوف هيردينتون Thomas of Herdinton و «رودلف بن نيكولاس Rudolfson of Nicolas وهؤلاء الرجال الثلاثة معروفون جميعا كأفراد عاملين بالديوان الملكى (3).

وقد اسرعت هذه السفارة قليلا من انتباه المؤرخين الانجليز، ومهما يكن فان الدكتور لينكرد Dr. Lingard يشير فى تاريخه لانجلترا History of England الى ان بعث السفارة لا يمكن ان يكون موضوع شك كثير فى الرواية التى تتضمن قصة ان الملك جون عرض ولاءه على الملك الموحدى، وانه ايضا عرض اعتناقه للعقيدة الاسلامية، الا ان هذه يمكن ان تكون مجرد اتهام معزى الى تحامل المؤلف ومبالغاته، يعنى ـ حدسيا ـ روبرت أوف لندن (4)

والبحوث التى قمت بها تثبت حقيقة هذه السفارة، ولكنى ارى ان المستحيلات فى رواية روبرت ترد الى رغبته فى التملص من الملك جون واعماله، بينما الاخير كان قد مات ولم يستطع ان يحميه بعد (من ذلك الامتعاض)، وهى ايضا تمكننى من ان اضع الحادث فى اطاره اللائق به، من حيث علاقات ملوك العائلة البلنتجنية (5) Plantagenet مع المسلمين، بقصد انشاء وسائط استعملت، وفى النهاية أشير الى مصدر عربى يثبت ارسال هذه البعثة .

واول ملك بلنتجنى حكم من سنة 1154 الى سنة 1189، وهذا الملك هو هنرى الثانى، وقد تزوج قبل ان يعتلى العرش بسنتين «الينور الاكويتينية» «Eleanor of Aquitaine» وكمهر منها فقد حملت هذه الاميرة الى التاج الانجليزى جميع غربى فرنسا الجنوبى، ويعرف بأسماء مختلفة، مثل اكويتين Aquitaine وكين Guyenne وكاسكونى Gascony وبهذا كان الملوك الانجليز قد اقحموا فى سياسة الامراء البرينيين المسيحيين، وبدأوا

3) معلومات زودنا بها من «the Public Records Office» مكتب الوثائق العامة بلندن
4) Lingard, History of England, London 1849, Vol. 2, p. 324.

5) عائلة البلانتاجينيت حكمت من سنة 1154 الى سنة 1699، اولها هنرى الثانى يليه ريتشرد الاول، فجون، فهنرى الثالث، فادوارد الاول، فادوارد الثانى، فريتشرد الثانى وهذا آخرها والكلمة مشتقة من بلانتا جينيستا اى نبات الجنسيط وهو ضرب من الوزال ينمو غربى اوربا وتصنع من هذا النبات المكانس (المعرب)

يتزاوجون معهم، وفي سنة 1159، خطب هنري الثاني لابنه الطفل، ريتشرد Richard ابنة رامون الرابع Ramón IV كندي برشلونة (6) وقد فشلت الخطوبة على الاثر غالبا، ولكنه كان في الامكان ان تكون السبب لماذا ارسل حليف لرامون الرابع، ملك بلنسيا المسلم ابو عبد الله محمد بن أحمد، المعروف عند المسيحيين باسم لوبوس Lupus او لوب Lope ، وعند المسلمين بابن مردنيش ـ هدايا فاخرة، من الذهب والحرير والخيول والجمال الى الملك هنري الثاني، كما ذكر في سنة 1162، وفي سنة 1170 زوجت احدى بنات هنري الثاني، آلينور Eleanor الى الفونسو ملك قشتالة وفي سنة 1177 كان ملك قشتالة وملك نبرة يدعوان الملك هنري ليحكم بينهما (7 أ) وفي سنة 1191 تزوج ابن هنري ووارثه على العرش، ريتشرد قلب الاسد Richard Cocur de Lion بريتكريا Berengaria او بريتكيلا Berenguela اخت الامير النبري سانتشو Sancho الذي كان سيصبح ملكا بعد، وعرف باسم سانتشو القوي (Sancho Fuerte)

وهذا الزواج له اهمية خاصة في موضوعنا من حيث ان سانتشو القوي كان سيعقد علاقات مع الموحدين بنفس الوسيلة التي عقدها مع العائلة المالكة الانجليزية، ففي سنة 1189 بعد اربع سنوات من تملكه، يعني في نفس السنة التي جلس فيها الملك جون على العرش الانجليزي، غادر الملك سانتشو مملكته ليقوم بزيارة طويلة للمملكة الاسلامية، ولم يعد للظهور الا في سنة 1201، ويقرر المؤرخون لعصره من الاسبان، بدون تردد وعلى طول الخط، ان هدفه في هذه الرحلة كان هو الحصول على حلف مع الموحدين يستغله ضد جاره الجاد في عدائه، ملك قشتالة .

ومهما كان فان مؤرخا معاصرا انجليزيا، يذكر ان رحلة سانتشو كان سببها الاول متصلا بشؤون غرامية رومنسية (7 ب) على حين كتب روكر Roger في القصر الذي كانت اخت سانتشو قد ملكت فيه، انه ممكن جدا أن القصة مهما تكن مشوهة، لا يكون لها بعض الاسس من الواقع، ويقص علينا روكر ان ملكا موحديا يسميه بويك Boyac ولا يمكن ان يكون الا يعقوب المنصور ابن يوسف، وليس اباه ابا يعقوب بن يوسف ـ كانت له ابنة وقعت في حبها لسانتشو لما شاع عنه، يعني لما سمعته عن بسالته، فأزعجت اباها لان بعث بسفارة الى نبرة، عارضا ابنته على سانتشو ليتزوجها وكمهر لها، جعل له كل الاراضي الواقعة بين حدود ملك البرتغال وجبل مونسيان Munsian

---

6) The Chronicle of Robert of Torigni. Rolls Series, London 1889, p. 200.

7) Chronica Rogeri de Hovedend. Rolls Series. Vol. 3 (a) p. 90 (b) p. 113.

الذى يقال أنه يفصل أراضى ملوك اراغون Aragon عن الاراضــى الاسلامية (8) والتحديد الجغرافى لهذا غيــر واضــح، ومــن الممكن ان تكون الاشارة الى بعض الجهات الواقعة على الحدود التى كان النزاع واقعا عليها بين المسلمين والمسيحيين .

وبناء على القصة فان سانتشو وصل الى افريقية فوجد الملك قد مات وخلفه ابنه الناصر، الذى كانت امه جارية مسيحية (9) وكان آنذاك لما يتزل طفلا، فوافق هذا او مستشاروه على هذا الزواج، بشرط ان الملك سانتشو يقبل اولا ان يقاتل معه ثلاثة اعوام لمساعدة الملك الجديد ونصرته على الذين ثاروا عليه (10) وهكذا فقد وفى سانتشو بما تضمنه هذا الشرط، ولا يذكر المؤرخ لعصره المطران رودريكو دى خيمينث Rodrigo Jimenez شيئـا عــن هذا الزواج، وانمــا يذكــر حينما يتكلــم عن مكــوث سانتشو بين ظهرانى المسلمين، أنه انتظر فى اسبانيا المسلمة الى أن عاد اليه السفراء الذين كان قد بعثهم الى افريقيا بهدايا (11) ومن ناحية اخرى فان تاريخا لاتينيا مجهول المؤلف للعصر يثبــت ما ذكــره روجر من ان الملك ذهب الى افريقية، قائلا بنوع خــاص انــه ذهب الى مراكش (12) ويعترف المطران نفسه بانه لما عاد السفراء انفق سانتشو عدة شهور زائرا فيها مختلف المدن العربية للاستنتاج وحسب قاموس لاتينية العصور الوسطــى لمؤلفه دوكنج Ducange فان هذا فى معناه انه من اجل البحث عن التسلية (13) واخيرا فانه يقال انه كان قد عاد الى نبــرة محملا بالهدايا، ولكنه مهينا وبدون عون حربى كان قد طلبه للدفاع عن نفسه ضد خصمه القشتالى، بينما يبدو فى الحقيقة انه قد عومل

---

8) القصة مذكورة فى عــدة مصــادر اجنبية خصوصا منها الاسبانية، ولا ذكر لها فيما بين ايدينا مــن المصــادر العربية، وقد تعرض لتضعيفها الاستاذ عنان فى تعليق له عليها حين ذكرها يوسف اشباخ فى تاريخــه للانــدلس، واجاز رواية من قال ان المنصور شرط الاسلام على سانتشو، وبصرف النظر عن جميع الظروف والاعتبارات الدينية وغيرها، فاننا نلاحظ على القصة كثيرا من الاضطــراب، مــن ذلــك ان يعقوب منح لسانتشو أراضى كمهر الابنته، وهذا عرف مسيحى وليس اسلاميا، فالمهر من البعل وليس من الزوج، وبينما تذكر القصة ان يعقوب هو الراغب، تذكر ان ابنه يشترط على سانتشو شروطا . (المعرب)

9) يذكر المؤرخون وعلى رأسهم ابن ابى زرع ان امه كانت حرة . (المعرب)

10) كأبى اسحاق بن عبد المومن، هكذا تذكر الروايات المسيحية وتعين الثورة بانها قامت فى جبال غمارة، ولا تذكــر المــراجع العربيــة قدوم سانتشو على الناصر بمراكش بالمــرة (المعــرب)

11) Rodrigo de Jiménez in pp. Tolet. opera ed. Lorenzana y Buitron. Madrid 1793. Vol. 3. p. 181.

12) كما يستفاد من هويسى ميراندة فى كتابه Las Grandes Batallas de la Reconquista. Madrid 1936 pp. 305.317

13) لا شك فى المطابقة التامــة انــه فى قانــون جستنيان تعنى كلمة ديدوكسيون 'deductio' اصطلاحا فنيا هو زفاف العروس الى بيت زوجها

باحترام عظيـم، وان كلمـة «مهين» ما هى ـ كما يظن ـ الا تعبير لاستهجان المطران لعقده علاقات مع المسلمين

ومن الصعب ان يعتقد ان مشـروع الزواج، ان كان هناك زواج، أتى من جانب الاميرة المسلمة، ومع هذا فان هناك اشارات الى انه كان هناك شيء مربـك للمؤرخيـن المسيحييـن، حـول زواج سانتشو، هم يذكرون زوجة، ويذكـرون انـه كـان له ابن يدعى فرنندو، وان هذا الاخير كان يلقب بلقب غريب لا تفسير لـه، مشتق من كلابثا Calabaza او القرعة، وقد توفي وهو شاب، نتيجة سقطـة سقطهـا من على ظهر فرسه عند الصيد (14) وهم على كل حال يختلفون فى الملكـة زوجته، فبعضهم يقول انها كانت ابنة الكونت لمدينة تولوز Count of Toulouse وآخرون يقولون انها ابنة الامبراطور فريديريك Emperor Frederick كما انهم يختلفون فى اسمها، الذى اعطى باختلاف كسنتشا Sancha مؤنث سانتشو، او كليمينتيا Clementia وهذا العوز فى الاخبار لا يعنى تماما ان زوجة سانتشو الملكة كانت مسلمة الاصل، ولكن الغفلة الحقيقية او المدعاة من المؤرخين يمكن ان توضح بمثل هذه الحال، واسم كليمنتيا نفسه يمكن ان يكون ترجمة لاسم عربى الاصل هو رحيمة.

وفيما يخـص التـزاوج المسيحى المسلم فى هذا العصر، فاننا نعلم أن الملك رتشارد قلب الاسد، صهر سانتشو (زوج اخته) واخ الملك جون، وسلفه اقترح نفسه ان تزوج اخته جوانا Joanna ارملة ملك صقلية، من أخى صلاح الدين، الملك العادل (15) ويبدو ان فكرة ريتشارد فى مثل هذا الزواج كانت كحل مسعف للمشكلة الفلسطينية آنذاك، وذلك لانشاء نوع من الحكم المشترك بين المسلمين والمسيحيين، وقد رحب صلاح الدين بالاقتراح، ولكنه على كل حال رفض من جانب جوانا، التى كانـت تشعـر بالحنق على المسلمين ذلك الحنق البلنتجنى التقليدى الذى جعلها ترفض تماما ان تتزوج بمسلم، وفى حيرة وارتباك كتب ريتشرد مرة اخرى الـى صلاح الدين يقول له ان جوانا كانت ملكة وارملة، ومن الحتمى عليها ان تحصل على اذن من البابا بالزواج، وهذا لا محالة انه يستغرق وقتا طويلا، ولهذا فهو يقترح ان يزف اليه احدى

14) José de Moret. Annales del Reyno de Navarra. Pamplona 1695. Vol. 2 pp. 357, 360.

15) هو بهاء الديـن بن شداد كما فى Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux vol. 3.

بنات اخيه، بدلا منها، وبما ان هذه عذراء فان امرها سيكون بيد عائلتها (16) فأجاب باقتضاب على كل حال، ان لم تستطع ان تبعث جوانا فلا لزوم لان تكلف نفسك بارسال امرأة اخرى

وسواء كان سانتشو تزوج مسلمة ام لم يكن، فان هناك كثيرا من الشواهد على علاقاته بالموحدين، وفى سنة 1201 ابرم اتفاقين مع الملك جون، وقد وقع هذان فى مدينة شينون Chinon الواقعة على نهر لوار Loire احدهما يتعلق بالمبالغ التى على الملك جون ان يؤديها لاخت سانتشو الملكة الارملة، وثانيهما ان سانتشو عليه ان يدافع عن جون جميع الناس، سوى ملك المغاربة فقط (17)، وعليه فلا دليل اوضح من هذا يمكن ان يعطى على علاقات سانتشو الخاصة بالموحدين .

ومن هذا كله فانه واضح ان الوسيط المتبادر الى الاذهان لابد ان يكون سانتشو، اذا كان جون نفسه يرغب دائما فى التقرب الى الموحدين، والآن فى سنة 1212 فان جون الذى كان منذ مدة طويلة فى عراك مع نبلائه، قد وضع تحت الحرمان البابا الذى اوعز الى ملك فرنسا بأن يخلعه، على حين انه فى نفس السنة 1212 كان قد ذاع عن محمد الناصر انه ينظم تعبئة هائلة ضد ملك قشتالة، وكان هذا الاخير عدوا لكل من الملك سانتشو، أحد الذين ضم اليهم أراضيهم، والملك جون ايضا الذى حاول أن يضم اليه مدينة بيون Bayonne فان كان محمد الناصر قد هزم ملك قشتالة، كما كان يبدو ممكنا جدا، ووصلت قواته الى البرينيه، فان سانتشو وجون معا كانا ــ بلا ريب ــ سنتحقق كل الدواعى فى ان يصرفا رجاله عن ممتلكاتهما وان يوجهاهم الى الاشتباك مع قوات فرنسا.

وفوق هذا فان جون كان بعيدا عن ان يكون مسيحيا ورعا، وقد اعتيد منه ان يقسم بحق «أسنان الله وارجله» (18) وعلى إثر ارسال عجل سمين سمع يلاحظ : «كيف انه قد عاش جيدا بالرغم من انه ما ذهب ابدا الى

16) حسب النظام الاجتماعى للاقطاعية ان النساء لسن حرات التصرف، فتزويج الابكار متوقف على راى آبائهن، والنساء المتزوجات امرهن موكول الى بعولتهن واليتيمات والارامل موكول امرهن الى اولياء آبائهن وازواجهن بالنسبة الى كل منهن ولان جوانا كانت ارملة ملك صقلية، فانها كانت تحت رعاية البابا، اما ابنة اخ ريتشرد، لكونها ابنة دوق بريطانيا المتوفى، فانها كانت تحت رعاية ملك انجلترا الذى اعلن سيادته على دوق بطريطانيا المذكور، كما نقل عن (Communicated by Mr.John Appleby, of The American Historial Review).

17) T. Rymer. Poedera. London 1714, Vol. I pp. 126, 127.

18) فاعتبر هذا القسم منه كفرا بالله او استهزاء بالدين

القداس» (19) وبالضبط فان جون كان سيحصل على ترضية هزيلة حينما يستعمل المساعدة الاسلامية ليحبط نوايا البابا.

وتاريخ السفارة يمكن ان يكون تماما، كما اعتقد، محددا بواسطة الرجوع الى مؤرخ عربي، ففي تاريخ ابن ابي زرع، المعروف بروض القرطاس والمؤلف ببضع مائة سنة بعد موقعة العقاب، والاحداث التي نحن بصددها، يقص علينا ان سفارتين من امير مسيحي وصلتا الى محمد الناصر في اشبيلية، خلال الاسابيع التي قضاها هناك، اوائل يونيه سنة 1212، وفي المخطوطات الاربع عشرة التي استعملها تورنبرك Tornberg في نشره لروض القرطاس، فان الوصف المعطى لهذا الامير هو انه ملك بيون Bayonne ومهما يكن فان مؤرخا مغربيا من رجال القرن التاسع عشر، وهو السلاوي مؤرخ كتاب الاستقصا، يصفه بأنه ملك بنبلونة Pamplona (20). والمؤرخون النفريون وهويسى ميراندة الذي قد بحث المسألة من ناحية متنها، يدعون ان ملك نبرة التي كانت عاصمتها بنبلونة هو الذي يجب ان يكون مقصودا في النص، ويستظهر جميعهم ان كلمة بيون Bayonne ما هي الا غلط نسخي نشأ عن مشابهة مجردة فيما تبدو به كلمة بيون وبنبلونة، او بيون ونبرة في المصدر العربي الاصلي، وهكذا بالتوالي فان مؤرخا متحمسا في وطنيته لمدينة بيون، يزعم ان بحارة بيون كانوا من الشهرة في تلك الايام لدرجة ان الكاتب العربي وصف نبرة بأنها تابعة لبيون، وبالرغم من كون كلتا البقعتين كانت تتكلم البشكنسية Basque فانه في الواقع لم تكن بيون جزءا من مملكة نبرا، ويذهب هويسى ميراندة الى ابعد من هذا فيفترض ان التباسا حصل في زيارة سانتشو المبكرة (21) وطبعا فان بيون في الواقع كانت المدينة الرئيسية في الممتلكات الانجليزية بفرنسا، وبيدنا الرسائل التي كان فيها ملوك العائلة البلنتجنية يخاطبون شعب بيون كرعاياهم كما ان بيدنا رسائل اخرى يخاطب فيها رؤساء بيون الدينيون ملوك انجلترا بمولانا الملك.

وقد انعم جون على المدينة بدستور بلدي، ولهذا فمن السهل والغالب ان يكون المؤرخ العربي قد سمى ملك انجلترا بملك بيون، واذا نظرنا الى

---

19) Matthaei Parisiensis Vol. 2 p. 565. يريد بذلك ان يثبت ان الذين يوجدون بانجلترا مسيحيين انما هم القسس لانهم يمضون اوقاتهم في اقامة طقوس القداس يعني القيام بالارشاد الديني ثم يذهبون الى منازلهم لتناول الطعام الكثير المعد بالاموال التي اعطاها المومنون الصادقون

20) الكلمة في نص «الاستقصا» سواء الطبعة القديمة والحديثة هكذا (بنبلونة) المعرب

21) مقتبس من Huici Miranda في كتابه المطبوع بمدريد Crónicas Arabes de la Reconquista 233.234

مؤرخ انجليزي لذلك العصر، وهو مستقل تماما عن المؤرخ العربي، فاننا نجده يقص علينا ان السفارة الانجليزية مثلت بين يدى ملك المغرب فى تلك البرهة بالذات، فمستحيل اذن ان يشك فى ان وصف ملك بيون فى هذا النص، يعنى فى الواقع ملك انجلترا (22) .

ويبقى بعد ذلك عدة صعوبات، فروض القرطاس يتحدث عن بعثتين، الاولى كانت لسفير، والثانية كانت للملك نفسه، وهذا الاخير لم يكن مطلقا الملك جون، وهذا الالتباس على كل حال يمكن أن يوضح حالا، اذا نحن افترضنا أن سفارة من الملك جون دبرت تماما بواسطة مساعى الملك سانتشو وانها وصلت اولا، وسرعان ما شفعت بالملك سانتشو نفسه، وهكذا فنحن فى مكنتنا ايضا ان نجد الحل المرضى للمباينات التى توجد فى النص، فان كانت السفارة الاولى قد وصفت بأنها من ملك بيون، فانه سيكون من السهل على الناسخ، ان يكرر كلمة بيون بدلا من ان يذكر بنبلونا بعدها، وفى الحالة الثانية ايضا، فان قارىء بنبلونا كذلك وجهها الى السفارة الثانية، فابتدأت تختفى من النص، وانه لمما يبلبل الفكر ايضا، ان يظن ان الملكة التى قيل عنها انها كانت سترافق زوجها الى اشبيلية، كانت الاميرة الموحدية السالفة الذكر مجددة العهد بزيارة أقاربها، بعد غياب عشر سنوات او اكثر عنهم .

اذ لسفارة من سانتشو فى هذه المدة مشكوك فى امكانها، لاسباب ان سانتشو قاتل فعلا ضد الموحدين فى موقعة العقاب، وانه اتضح على كل حال ان تصميمه على الالتحاق بملك قشتالة، كان قد اتخذ فى اللحظة الاخيرة شكرا فى بعضه على التسليم المبكر للبلاد الذى قام به له السلطان القشتالى وانصاتا فى بعضه الى اعتراضات البابا عليه، وهذا ما نقرؤه لمؤرخ نبرى (23) والاخبار اللاتينية حول الموضوع تذكر لنا انه وصل مع قلة من الفرسان جدا (24) وان محمدا الناصر نفسه نعت تمرد سانتشو بأنه احد الاسباب التى ادت الى هزيمته، وترجمة البيان المغرب التى قام بها هويسى ميراندة من النص العربى الذى لما ينشر حتى الآن (25) تتضمن رسالة كتبها الامير، ليخبر

22) يشير يوسف اشباخ فى كتابه السالف، الى رواية المؤرخ الانجليزي، وما حصل من خلط الروايات العربية بين سفارة جون ورحلة سانتشو، ولكن عنان يعلق على سفارة جون بقوله «لم نجد فى سيرته ما يفيد انه اوفد سفارة الى ملك الموحدين» المعرب.

23) نفس الصفحة والمصدر الذى سبق تحت رقم 14

24) هويسى ميراندا فى كتابه الذى اشير اليه فى رقم 12 ورقم 21 والصفحة هنا هى 322 .

25) بل انه نشر منذ عشر سنوات بتطوان (المطبعة الحسنية) المعرب

قصره ورجاله بهذه الهزيمة فيقول : «كان صاحب نبرة متعلقا بالموحدين بذمام، ومنقادا اليهم في اسمح زمام، فسخط عليه صاحب رومة، ان لم يكن لقومه معسكرا، ولسواد اهل ملته مكثرا فلحق بتلك الجموع مهرجا، وتوسط بحرهم المزبد ملججا» (26) وهذه اللهجة تبدو لتقرر ان علاقات كانت بين الناصر وسانتشو من نوع هو موجود الآن بين بريطانيا وشرق الاردن، وان تلك العلاقات لابد انها كانت قوية جدا بفضل وجود الارتباط الزوجي.

ولا يسمح لنا الوقت المخصص لهذه الاقوال، الى ان نذهب في عدة مشاكل خلابة قد اثيرت بواسطة ما ذكره متيو أوف باريس، وابن ابي زرع، وبينما يبدو جليا انهما يشرحان سفارات متباينة، ففي رأيي ان الانجليز والنبريين يتفقون على ذكر كلتا الاهميتين لاستعمال الناصر للتظاهر العسكري ليؤثر على زائريه، وتدبيره الحذر، في الجلسات التي كان قد استقبلهم فيها (27) .

والذي آمل ان اكون فعلته هو اني عرضت اولا ما نعرفه عن ان المعاملات البلنتجنية كانت متصلة تماما بارسال السفارات، ثانيا، ان الظروف الزمنية التي اجريت فيها تلك السفارة، اضفت على هذه صفة ان تكون مثل مشروع. ثالثا، انه ان كان جون راغبا في ارسال سفارة كهذه، فانه كان عليه لا محالة ان يستغل بلاط نفرا كوسيلة له في ذلك. رابعا، اذا كنا نميل الى الناحية الرمنسية، فان علينا ان نختار ـ حقيقة ـ الاعتقاد بأن الملك سانتشو القوي، قد تزوج اميرة موحدية، أو أنه على كل حال قد تزوج من البلاط الموحدي جارية او وصيفة (28) .

وسواء كان ذلك ام لم يكن، فكون الملك جون عهد الى سفرائه بأن يعرضوا اعتناقه للعقيدة الاسلامية لا يمكن ان يكون قائما على براهين ثابتة، ومهما يكن فانه في الامكان ان يكون مدفوعا في ذلك بفضل ذلك الفرض الذي من الصعب ان يرى ما هو الباعث الذي جعل ملك انجلترا يعرض على الامير الموحدي ان يحمي الولايات الانجليزية في غرب فرنسا الجنوبي، وان يوجه الهجوم الاسلامي نحو الملك لويس.

26) الرسالة من انشاء ابن عياش، وهي منشورة فيما طبع من البيان المغرب (على انه الجزء الرابع ـ صفحة 242، وقد آثرنا ان تأتي بالنص الاصلي على ان نترجم الترجمة الانجليزية للاسبانية وكلتاهما تختلف بعض الشيء عن سياق النص العربي الاصيل (المعرب) وقد اشار صاحب المقال الى هويسي في كتابه المطبوع بتطوان الجزء 2 ص 271

27) يشير بهاته الفقرات الى ما قصله ابن ابي زرع في هذه الزيارة في صفحتي 155 ـ 156 نشر كارل يوحن تورنبرغ (المعرب)

28) تذكر دائرة المعارف الاسبانية العالمية Encyclopedia Universal Ilustrada في مادة سانتشو القوي Sancho el Fuerte, بصفة قاطعة ان سانتشو تزوج اميرة مسلمة ولكنها لا تذكر مستندا لهذه القضية

ماريانو أرياس پالاو

مبايعة مولاى مسلمة بطنجة عقب وفاة مولاى اليزيد

خلف السلطان مولاى اليزيد اباه مولاى محمد بن عبد الله فى عرش المغرب خلال شهر ابريل سنة 1790 وتوفى بعد عامين اى فى شهر فبراير سنة 1792 نتيجة للجروح التى اصيب بها بالقرب من مراكش اثناء القتال الذى دار بين قواته وقوات اخيه مولاى هشام الذى ثار عليه (1)

ولما توفى مولاى اليزيد طمع فى خلافته اخوته مولاى هشام ومولاى مسلمة ومولاى سليمان. اما الاول الذى ثار عليه وقاتله فقد اعترف سكان الجنوب الغربى من المغرب بسلطته عليهم (2). وكان مولاى مسلمة قد التجأ بضريح مولاى عبد السلام بن مشيش فى جبل العلم بشمال المغرب فبويع سلطانا بطنجة (3). اما مولاى سليمان الذى اعترف به القطر كله فيما بعد فقد بويع بضريح المولى ادريس بفاس (4) .

وسنمسك الآن عن الحديث حول بيعة مولاى هشام ومولاى سليمان لنفرغ الى عرض الظروف التى تمت فيها بيعة مولاى مسلمة .

---

1) انظر كتاب (الاستقصا) لصاحبه احمد بن خالد الناصرى السلاوى وترجمة (اوجين فومى) بعنوان (اخبار الدولة العلوية بالمغرب) فى (المحافظ المغربية) الجزء التاسع 1906 صفحة 379 – انظر كذلك «تاريخ المغرب» لصاحبه (هنرى طيراس) طبعة 1949 – 1950 الجزء الثانى صفحة 306 – انظر كتاب «الترجمان» لصاحبه أبى القاسم بن احمد الزيانى فى الشذرات التى ترجمها «هوداس» ونشرها بعنوان «المغرب من سنة 1631 الى 1812» باريس 1886 صفحة 91 من الاصل العربى وصفحة 167 من الترجمة

2) انظر كتاب «الاستقصاء» المذكور لصاحبه احمد بن خالد الناصرى السلاوى صفحة 383 والكتاب المذكور لصاحبه ابى القاسم بن احمد الزيانى ص 92 من الاصل العربى وص 170 من الترجمة وكتاب هنرى طيراس المذكور فى الجزء الثانى ص 307

3) انظر كتاب «الاستقصاء» المذكور لصاحبه احمد بن خالد الناصرى السلاوى صفحة 383 وكتاب ابى القاسم احمد الزيانى ص 92 من الاصل العربى و 169 من الترجمة وكتاب طيراس فى الجزء الثانى ص 307 ورسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى «الكوندى دى فلوريدا بلانكا» رقم 28 والنسخ الملحقة فى «السجل الوطنى التاريخى» للدولة بمدريد، الرزمة رقم 4327 والرزمة رقم 4328

4) انظر كتاب «الاستقصاء» المذكور لصاحبه احمد بن خالد الناصرى السلاوى صفحة 384 – 385 والكتاب المذكور لصاحبه ابى القاسم أحمد الزيانى ص 92 من الاصل العربى وص 168 – 169 من الترجمة والكتاب المذكور لصاحبه «هنرى طيراس» ص 307 من الجزء الثانى.

فالاخبار الاولى حول وفاة مولاى اليزيد قد وردت على اسبانيا من طنجة، فمن جهة اخبر بها عامل المدينة السيد الطاهر بن عبد الحق فنيش قنصل اسبانيا بها السنيور «خوان مانويل غونثالث سالمون» المقيم آنذاك بمدينة قالص. وقال عامل طنجة لدى الاخبار للقنصل بوفاة مولاى اليزيد بأن مولاى هشام قد توفى ايضا. كما اخبر فى نفس هذا الكتاب ببيعة مولاى مسلمة (5) .

ولم يكن عامل طنجة هو وحده الذى ابلغ «سالمون» هذه الاخبار. فقد اخبره بها ايضا «خورخى كولاصو» قنصل البرتغال بطنجة الذى أنبأ ايضا بأن الشريف مولاى جعفر هو الذى حمل خبر وفاة مولاى اليزيد الى طنجة واثبت ان بيعة مولاى مسلمة قد تم الاعلان عنها بواسطة المنادين فى الشوارع وبطلقات المدفعية وانها لم تتوفر فيها المطالب المعتادة (6). والشريف مولاى جعفر هو الابن الثانى لمولاى مسلمة .

وانبأ كذلك باخبار مماثلة السنيور «خوان مانويل غوميث» امين سر قنصل البرتغال الذى اضاف القول بان الناس لم يشكوا فى وفاة مولاى اليزيد غير انهم شكوا فى صحة الخبر بوفاة مولاى هشام، فلم يجرأوا اول الامر على المناداة علنا بمولاى مسلمة حتى يتاكد كتابة خبر موت مولاى هشام الذى كان يتلقى المعونة من اسبانيا. ذلك لان طنجة قد تصبح عرضة لهجوم اسبانيا من البحر وهجوم مولاى هشام من البر اذا لم يتم الاتفاق بين هذا الامير وشقيقه مولاى مسلمة. وقد قيل فيما بعد ان عامل المدينة كان واثقا من صحة الخبر بمصرع مولاى هشام فى ميدان المعركة وان يقينه بصحة النبأ هو الذى حمله على مبايعة مولاى مسلمة بعد الاخذ بالمراسيم المطلوبة لتمام البيعة وصحتها .

واجتمع مجلس القناصل المعتمدين بطنجة بعد اجراء البيعة فذهب لتهنئة الشريف مولاى جعفر الابن الثانى لمولاى مسلمة فاقتبلهم الشريف بمزيد الابتهاج واخبرهم باسم والده بانه يعتبر نفسه على عهد الصداقة

5) انظر النص الاسبانى لهذه الرسالة المؤرخة بيوم 28 فبراير 1792 (الملحق الاول برسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 28 المؤرخة بثانى مارس 1792 المحفوظة فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327 والرزمة رقم 4328

6) رسالة «خورخى كولاسو» الى خوان مانويل غونثالث سالمون المؤرخة بطنجة يوم 27 فبراير الملحق رقم 2 برسالة غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 28 وتاريخ 2 مارس 1792 المحفوظة فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4328

والسلم مع جميع الدول التى يمثلونها كما كان عليه الامر فى عهد مولاى محمد بن عبد الله (7) .

وبعد ذلك بقليل تلقى حاكم قالص «خواكين دى فونسدبيلا» هذه الاخبار التى انباه بها السيد الطاهر بن عبد الحق فنيش عامل طنجة والسنيور «خيروتيمو كيابى» قنصل البندقية فى طنجة. وتتضمن رسالتا فنيش و «كيابى» الاخبار التى سبق ذكرها والاعلام بأن مولاى جعفر قد كلفهما بأخبار اسبانيا بما حدث مع الترخيص للبواخر الاسبانية بشحن البضائع فى الموانىء المغربية (8) .

اما كتاب «كيابى» فهو اغزر مادة من كتاب الطاهر فنيش. ولهذا آثرت الاخذ بالنص الذى كتبه قنصل البندقية حيث يقول :

«سيدى صاحب السعادة

كتبت لسعادتكم رسالة اخرى غادرت هذا الثغر بتاريخ 3 من الجارى مع الباخرة السويدية. والغرض من هذه الرسالة هى اشعار سعادتكم بوصول الابن الثانى للامير مولاى مسلمة الى هذه المدينة ليلة الخامس والعشرين موفدا من طرف والده الموجود آنذاك بضريح مولاى عبد السلام لاخبارنا بمبايعته سلطانا بعد اعلامنا بوفاة السلطان مولاى اليزيد وموت الامير مولاى هشام اللذين اصيبا بجروح فى المعركة التى دارت يوم 12 بالقرب من مراكش. وان الامير مولاى جعفر السابق الذكر قد اخبر القناصل بعزم والده السلطان الجديد على المحافظة على السلم والصداقة مع دولهم كما كان عليه الحال فى عهد والده الراحل. وطلب من كل قنصل ان يخبر دولته مؤكدا لى بمحضرهم انه باق على السلم والصداقة مع اسبانيا طبق ما جرى الاتفاق عليه. ولقد كلفنى باخبار الدول بضرورة عدم الاقتصار على ارسال اساطيلهم على وجه الاستعجال لشحن البضائع بالموانىء المغربية . كما كلفنى العامل باسم صاحب الجلالة المغربية بالكتابة فكاتبت سعادة الكوندى دى فلوريدا بلانكا طالبا منه رأيه. ولقد كان كتابى المختصر مصحوبا برسالة محررة بالعربية من طرف العامل تجدونها ضمن هذا الكتاب. فالمرجو من سعادتكم بعثها الى القصر لاشعاره بما جد فى اقرب وقت ممكن كما هى رغبة

7) رسالة خوان مانويل غوميث الى خوان مانويل غونثالث سالمون المؤرخة بطنجة يوم 27 فبراير 1792 والملحقة برسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 30 وتاريخ 4 مارس فى« السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327

8) توجد الرسالتان ملحقتين برقم 1 ورقم 2 برسالة «خواكين دى فونسدبيلا» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا بتاريخ 4 مارس 1792 المحفوظتان فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4329

السلطان الجديد الصديق. واستطيع ان اؤكد لسعادتكم انه في مقدوري ان ابعث البواخر بكل حرية ان شئتم. فانا ساظل في مساعدة البواخر الاسبانية كما كنت افعل من قبل الى ان تتخذ الدولة قرارات جديدة. وارجو ان يكون هذا الحدث السعيد مناسبة لسعادتكم للوقوف على خدماتي السابقة انني مستعد وسابقى على اتم استعداد للتعاون كلما كان ذلك ممكنا لصالح الدولة وللقيام بما تريدون في المستقبل الى ان تقرر الحكومة تدابير جديدة. ولكم ان تظلوا مطمئنين وان تأمروا بما تشاءون لاقدم لكم البراهين على ذلك. ولرفيقي «سالمون» ان يخبركم بأحوالي التي لا تجدون اخبارا عنها في هذا الكتاب اذ هو على اتم الاستعداد في الظروف الراهنة. وانا شريف بخدمة سعادتكم ملىء بتقديركم .

طنجة 28 فبراير 1792

استدراك – تبعث اليكم هذه الرسالة معجلة من جانب حاكم طريف. وألتمس منكم ابلاغ الظرف والملحقات طيه الى قنصلنا. اليكم تحيات اخي. الخادم المخلص المطيع **جيرولامو كيابي** – الى صاحب السعادة ضون خواكين دي فونسدبييلا» .

وجرى بعث عدة رسائل الى حاكم قالص ليبلغها الى اصحابها منها رسالتان موجهتان الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» بعثهما عامل طنجة و «كيابي» قنصل البندقية (9) .

اما رسالة الطاهر فنيش فكانت تتضمن ما سبق لنا علمه من الاخبار دون اضافة اى شىء جديد بينما اضاف السنيور «كيابي» في كتابه ان مولاى مسلمة متوجه الى طنجة وانه يأمل ان تبعث اليه اسبانيا معونة من المال الذى هو فى حاجة اليه ليؤدى اجور الجند والحاشية (10) .

ويمكن لنا ان ندرك مما سبق لنا العلم به ان بيعة مولاى مسلمة بطنجة قد استندت على الخبر الخاطىء والقائل بموت مولاى هشام فى المعركة التى دارت بينه وبين اخيه مولاى اليزيد بأحواز مراكش. غير ان اهل طنجة ادركوا لما علموا الحقيقة انهم قد تسرعوا فيما صنعوا فكان

9) توجد نسخة من الرسالتين ملحقة برسالة «سالمون» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 31 وتاريخ 4 مارس 1792 فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة الرزمة رقم 4327 اما من رسالة الطاهر بن عبد الحق فنيش فتوجد نسخة ايضا فى الرزمة رقم 4328

10) نسخة رسالة «خيرونيمو كيابي» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» الملحقة برسالة «سالمون» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 31 وتاريخ 4 مارس 1792 فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327

استعجالهم مما اثار الشكوك فى نفوس الناس. وقد اخبر «خورخي كولاسو» قنصل البرتغال فـى قالـص بما سبق مضيفا ان مولاى مسلمة يبرهن على ضعف ثقته بمتانة موقفه وقوته وان كـان يحـاول اقنـاع الناس بأنه يعمل بالاتفاق مع مولاى هشام. برهان ذلك انه كـان يشك فـى عزم اسبانيا على تأييده تأييدا مطلقا فأخذ يسعى للحظوة بمعونة الانجليزيين. ويقول «كولاسو» فى كتابه ايضا انه تروج شائعة مفادها ان مولاى مسلمة يعتـزم الذهاب الى مكناس وفاس قبل التوجه الى طنجة لان المدينتين المذكورتين لم تبايعاه على النحو المعهود. ويـرى «كـولاسو» ان التأخر فى مبايعة مولاى مسلمة هناك امارة على عدم وجـود وحدة الرأى وان المغاربة ربما يفضلون مبايعة مولاى هشام الذى تزعم الثـورة علـى مبايعـة مولاى مسلمة الذى قضى كل وقته ملتجئا بضريح مولاى عبد السلام بن مشيش (11) .

وكتـب «خـوان مانويـل غوميث» امين سر قنصل البرتغال بطنجة رسالة الى «سالمون» تتضمن معلومـات مماثلة ويضيف مخبرا بأنه قد تقرر ايفاد مغربيين الى اسبانيا مبعوثين من قبل مولاى مسلمة. وتم الاتفاق على ان تأتى بارجة انجليزية الى طنجة لتحملهما الى جبل طارق فى طريقهما الى اسبانيا. غير انه علم فيما بعد ان اسبانيا لن تقبلهما اذا قدما على هذه الكيفية وان الامور التى قدما من اجلها ستبقى معطلة. ولهذا جرى التفكير فى ان تأتى بارجة اسبانية لتحملهما. غير انه لم يباشر اى مسعى لتحقيق هذه البغية (12)

ويـرى «سالمون» بالنظر الى هذه الاخبار انه من الافضل ان لا يبعث اى رسول من المغرب لان اسبانيا تستطيع بهذه الوسيلة ان تظل على هامش الصراع القائم بيـن الاميريـن مولاى هشام ومولاى مسلمة من أجل العرش لان كلا منهما صديق لاسبانيا (13) .

---

11) نسخة رسالة «خورخي كولاسو» قنصل البرتغـال بطنجة الى «اتريكي ريفيرو نيفيس» قنصل البرتغال بقالص بتاريخ 6 مارس 1792 الملحقة برسالة «خوان مانويل غونثالث سالمون» الى «الكوندى دى اراندا» رقم 36 وتاريـخ 13 مارس المحفوظة فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمـة رقم 4328

12) النسخة المكشوفـة اللغز مـن رسـالـة «خوان مانويل غوميث» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» المؤرخة بـ 6 مارس 1792 والملحقة برسالة «سالمون» الى الكوندى دى اراندا رقم 36 وتاريخ 13 مارس وبرسالة اخرى لصاحبها «غوميث» الى «سالمون» بتاريخ 8 مارس. وتوجد هذه ملحقة برسالة سالمون الى الكوندى دى اراندا رقم 37 وتاريخ 16 مارس. وكل هذه الرسائل فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4328

13) رسالة «خوان مانويل غونثالث سالمون» الى «الكوندى دى اراندا» رقم 36 وتاريخ 13 مارس 1792 فى «السجـل الوطنـى التاريخـى للدولة» الرزمة رقم 4328 ورسالة الكوندى اراندا الى سالمون المؤرخة بمدينة «ارانخويث» يوم 6 مارس 1792 «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327 والرزمة رقم 4328

وفـي الوقت الذى علم فيه بواسطة قالص بخبر مبايعة مولاى مسلمة فى طنجة استقى حاكم سبتة «خوسى دى اوروتيا» عدة اخبار وبعثها وهى تثبت مبايعة مولاى مسلمة بتطوان (14). وبعد بضعة ايام توصل حاكم سبتة بكتاب من مـولاى مسلمـة يخبره فيه بايفاد سفير له الى اسبانيا. ولقد فكر اول الامر فى ايفـاد السفير بطريق جبل طارق ثم عدل عن هذه الفكرة وآثر إيفاده بطريـق سبتـة (15). وتلقى «خوسى دى أوروتيا» بهذه المناسبة كتابا لعامل طنجة الى «لويس دى اوربينا» القائد الاعلى لسبتة حيث يقول السيد الطاهر بن عبد الحـق فنيش ان مولاى مسلمة قد عينه وسيطا له مع اسبانيا التى يريد ان يحافظ على السلم والصداقة معها. وهو يكرر القول بترخيص السلطان الجديد للاسبانيين بشحن البضائع فى الموانىء المغربية ويشير الى الكيفية التى يمكن ان يجرى التفاوض عليها فى سبتة والى استعداده لاعادة حدود المدينة المحصنة الى ما كانت عليه فى عهد مولاى محمد بن عبد الله (16).

اما فيما يتعلـق بالسفـارة التى كان مولاى مسلمة يريد ايفادها الـى مدريد فان موقف اسبانيا كان يستجيب للرغبة فى مراعاة الحياد الرزين كما رأينـا واشرنـا اليه. وهكـذا صـدر الامـر الـى حاكم سبتة بالتزام العمل بالتعليمات الآتية «ان اسبانيا قد برهنت لمـولاى مسلمـة على تقديرها له وستكون اولى الدول فى قبول السفير الذى قد يوفده بوصفه سلطانا للمغرب كلما ثبت لديها العلم بأنه يملك الـبلاد بكيفيـة سلمية. غير انها لن تستطيع استقبال اى سفير ما لم يتوفر هذا الشرط لانها ان فعلت ستخـون اعراف اللياقة المتعينة عليهـا، مع العلـم بان الاميرين مولاى هشام ومولاى مسلمة المتنازعين علـى عرش المغرب صديقان لاسبانيا التى ليس فى مستطاعها ان تؤثر احدهما وتضر الآخر» (17) .

ووردت اوائل ابريل اخبار على قالص تثبت مبايعة امير آخر فى فاس ومكناس هو مولاى سليمان (18) .

---

14) رسالة «خـوسى دى اوروتيا» حاكم سبتة الى الكوندى دى فلوريد بلانكا بتاريخ 3 مارس 1792 والتصريحات الملحقة بها فى «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4329

15) رسالة مولاى مسلمة الى حاكم سبتة مؤرخة بسابع عشر رجب1206 الموافق لحادى عشر مارس 1792 وهى مدرجة باعتبارها الوثيقة الاولى ضمن ملحق الوثائق عند خاتمة هذا البحث

16) توجد هذه الرسالة ضمن ملحق الوثائق تحت رقم 2

17) رسالة الكوندى دى ارانـدا الى حاكم سبتة المؤرخة بمدينة «ارانخويث» يوم 15 مارس 1792 («السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4329)

18) رسالتا «خوان مانويل غونثالـث سالمون» الى الكوندى دى اراندا رقم 41 ورقم 42 وتاريخ 3 ابريل 1792 والنسخ الملحقة بهما «السجـل الوطنـى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327 والرزمـة رقم 4328

وبعد ذلك بمدة قليلة استلم «سالمون» نسخة كتاب بعثه مولاى مسلمة الى كل من القناصل المعتمدين فى طنجة ليبلغه كـل منهم الى ملكه. وكانت النسخة التى استلمهـا «سالمون» تتضمن نص الرسالة التى وجهها مـولاى مسلمة الى «ضونيا ماريا» ملكة البرتغال. ولم يرد فى هذا الكتاب الا الاعلام بوفاة مولاى اليزيد وبوراثة مولاى مسلمـة للعرش (19). واستلم «سالمون» ايضا نسخـة كتاب بعثه مولاى مسلمة الى مجلس القناصل المعتمدين بطنجة حيث يامرهم فيـه بالمثـول لديـه (20) وجـواب القناصـل معتذرين عن عدم الحضور وارسالهم لهدية يلتمسون منه قبولها راضيا (21). وارسل القناصل زيادة على هذا الكتاب المحرر بالعربية الى مولاى مسلمة كتابا آخر بالاسبانية سلموه الـى «خـوان كيابى» ليشـرح مضمونه للامير. وجاء فى هذا الكتاب الاخير نفس ما ورد فى الكتاب الاول مع اضافـة القـول بان «خوان كيابى» سيشير شفويا الى الاسبـاب التى تحول بيـن القناصل والمثول امام مولاى مسلمة والاعراب له عن رغبتهم فى القطر كله به واستعدادهم آنذاك للمثول لديه بقصد تهنئتـه وانهم يلتمسون منه ان يعذرهم اذا ما تخلفوا فى انتظار حدوث ذلك الاعتراف (22) . وقـام أمين سر قنصل البرتغال ببعث كل هذه النسخ معبرا عن رأيه فـى ان جانب مولاى مسلمة يزداد ضعفا بينما يقوى جانب مـولاى سليمـان (23).

وعلم فيما بعد ان مولاى مسلمة قد الح على القناصل فى ضرورة المثول لديه وارسال المال اليه (24) .

وفى هذه الايام وصل الى طنجة عاملها الجديـد السيد احمد بن محمد الذى عينه مولاى مسلمة خلفا للسيد الطاهر فنيش (25) .

19) ترد هذه النسخة مثبتة فى ملحق الوثائق برقم 3

20) نسخة هذه الرسالة مثبتة فى ملحق الوثائق برقم 4

21) نسخة جواب القناصل مثبتة فى ملحق الوثائق برقم 5

22) توجـد نسخـة هذه الرسالة ملحقة برسالة «خوان مانويل غونثالث سالمون» الى الى الكوندى دى ارائدا رقم 44 وتاريخ 6 ابريل سنة 1792 «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327

23) نسخة رسالة «خـوان مانويـل غـوميـث» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» بتاريخ 28 مارس 1792 ملحقـة برسالـة سالمون الى «الكوندى دى ارائدا» رقم 44 وتاريخ 6 ابريل 1792 «السجل الوطنى التاريخى للدولة» الرزمة رقم 4327 والرزمة رقم 4328

24) نسخة رسالة «خوان مانويل غوميث» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» بتاريخ 15 ابريل 1972 ملحقة برسالة «سالمون» الى الكوندى دى ارائدا رقم 40 وتاريخ 24 ابريل «السجل الوطنـى التاريخـى للدولة» الرزمـة رقم 4327 والرزمة رقم 4328 والنسخ الملحقة برسالة «خوان مانويل غوميث» (السجل الوطنى التاريخى للدولة الرزمة رقم 4327)

25) نسخة رسالـة «خوان مانويل غوميث» الـى «خـوان مانويل غونثالث سالمون» المؤرخة بخامس عشر ابريل والمذكورة فى المرجع السابق

غير انه لم يمض الا وقت قصير حتى علم ان الرباط وسلا قد بايعتا مولاى سليمان مما اضطر مولاى مسلمة الى الالتجاء من جديد بضريح مولاى عبد السلام بن مشيش والتحاق احمد بن محمد عامل طنجة الجديد به فى ذلك الضريح بعد مغادرته المدينة .

وقيل فى طنجة لما غادرها عاملها المعين من جانب مولاى مسلمة ان مولاى سليمان قد كتب يأمر بضرورة استمرار الحالة على ما هى عليه فى المدينة الى ان يحل بها (26) .

وظهر ان سكان طنجة لم يكونوا عازمين على مبايعة مولاى سليمان مخافة من ان يتمكن مولاى هشام الذى يطالب بالعرش ايضا من بسط سيطرته على البلاد كلها (27) .

واضطر مولاى مسلمة بعد قليل الى مغادرة ضريح مولاى عبد السلام ابن مشيش حيث حرم عليه اللجوء وعاد احمد بن محمد الى طنجة فكان رجوعه سببا فى قيام بعض الفتنة بها (28) .

ولم تعد طنجة تعترف ابتداء من هذه اللحظة بسلطة مولاى مسلمة واصبحت تميل الى الاعتراف بمولاى سليمان الذى استطاع اقرار سلطته بالبلاد كلها .

---

26) نسخة رسالة «خوان مانويل غوميث» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» بتاريخ 24 ابريل 1792 والملحقة برسالة سالمون الى الكوندى دى اراندا رقم 60 المؤرخة بفاتح مايو (السجل الوطنى التاريخى للدولة) الرزمة رقم 4327

27) نسخة رسالة «خوان مانويل غوميث» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» بتاريخ 25 ابريل 1792 الملحقة برسالة سالمون الى الكوندى دى اراندا رقم 60 المؤرخة بفاتح مايو (السجل الوطنى التاريخى للدولة ـ الرزمة رقم 4327)

28) نسخة رسالة «خوان مانويل غوميث» الى «خوان مانويل غونثالث سالمون» بتاريخ 26 ابريل 1792 الملحقة برسالة «سالمون» الى الكوندى دى اراندا رقم 61 وتاريخ 4 مايو (السجل الوطنى التاريخى للدولة) ـ الرزمة رقم 4327 والرزمة رقم 4328 ـ ورسالة اخرى لصاحبها غوميث الى «سالمون» ملحقة برسالة سالمون الى «الكوندى دى اراندا» رقم 65 وتاريخ 11 مايو (السجل الوطنى التاريخى للدولة) ـ الرزمة رقم 4327)

الرسائل العربية

رسالة رقم 1

من مولاى مسلمة الى حاكم سبتة

17 رجب 1206 هـ. = 11 مارس 1792 م.

رزمة رقم 4329 (فى قسم «الدولة» من السجل الوطنى التاريخى بمدريد)

بسم الله ولا حول ولا قوة الا بالله

[طابع مولاى مسلمة بامضائه والتاريخ بخطه ايضا]

/٢ الى حاكم سبتة سلام على من اتبع الهدى اما بعد /٣ فاعلموا اننا وجهنا باشدورنا (29) الى سبتة ومنها /٤ يتوجه الى الرى (30) ولد كارلوص (31) لاننا امرناه يتوجه /٥ على جبل طارق فاذا بنا تحققنا بأن الانجليز (32) يكرهونكم /٦ ولا يحبون لكم الخير معنا (33) فاقتضى نظرنا ان لا يتوجه على جبل /٧ طارق وانما يتوجه من عندكم وها نحن انعمنا عليكم /٨ بالفريشك (34) توسقونه من غير صاكة (35) تلزمكم عليه من /٩ يوم كتبنا (36) هذا الى ان يرد الجواب من عند الرى (30) كارلوص (31) /١٠ وهذا الكتب (37) وجهناه لكم مع وصيفنا القايد /١١ العباس فانه عندنا رجل عاقل بمروته وله مكانة /١٢ عندنا وبذلك وجهناه لكم بهذا الامر انتهى فى 17 رجب /١٣ عام 1206

* * *

رسالة رقم 2

من الطاهر بن عبد الحق فنيش الى «لويس دى اوربينا»

17 رجب 1206 هـ. = 11 مارس 1792 م.

رزمة رقم 4329

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

/٢ من عبد ربه تعلى وخديم سيدنا نصره الله الطاهر بن عبد الحق فنيش أمنه الله /٣ الى كبير ابناء جنسه الذين بسبتة الكمنضنطى جلنار (38)

29) «باشدور» = « embajador »
30) «رى» = « rey »
31) Carlos
32) el inglés
33) «معنا» لفظة مكتوبة فوق «الخير فاقتضى»
34) «فريشك» = « refrescos »
35) «صاكة» = « saca »
36) هكذا بالاصل والصواب هو «كتابنا»
37) هكذا بالاصل والصواب هو «الكتاب»
38) comandante general

لويس د اربينا (39) سلام /٤ على من اتبع الهدى اما بعد فاعلموا ان سيدنا نصره الله امرنى ان نكون /٥ واسطة بين سيدنا وبينكم وكل ما تريدونه من عند سيدنا يقضى لكم بالزيادة /٦ لان سيدنا معكم على الصلح والمهادنة كما كنتم مع ابيه رحمه الله وزيادة /٧ عن ذلك وقد تعرف سيدنا نصره الله بمحبة الراى كارلوا (40) ومحبة وزيره الكندى /٨ د فلريدة بلانكة (41) ومحبة جنس الصبنيول (42) فى ابيه رحمه الله فلذلك أمرنى ايده /٩ الله ان نكتب اليكم من البر والبحر انه ايده الله معكم على ما كنتم عليه مع /١٠ ابيه قدس الله روحه وانتم ان اردتم ان تبعثوا مراكبكم للوسق لاى مرسة (43) /١١ اردتم من مراسى سيدنا الثلاث تطوان وطنجة والعرائش فقد سرح لكم سيدنا /١٢ الوسق فيهم وكل من اتى من مراكبكم للمراسى المذكورين فهم فى امان الله وامان /١٣ سيدنا نصره الله بحيث الا يخشوا من شىء كذلك أعرفكم ان سيدنا نصره الله /١٤ فوض لى فى جميع اموركم وامرنى ان كل ما تريدونه عند سيدنا نصره الله تعرفوننى /١٥ به يقضيه لكم كذلك ان كان لكم كلام على البر اعملوا علام الامارة ياتون /١٦ اليكم المسلمون اهل العسة وادفعوا لهم ما يكون عندكم من البراوات فى /١٧ امان الله كذلك ان اتاكم كتاب من عندنا وعملنا الامارة وخرجتم لتقبضونه /١٨ فأنتم فى امان الله وامان سيدنا نصره الله وان أردتم ان تكونوا عند الحد /١٩ الذى كنتم عليه مع أبيه رحمه الله فى قرب المدينة اعلمونا نوجه لكم /٢٠ من اصحابنا من يقف مع الشيخ محمد تنجاع حتى يردون الحدود كما /٢١ كانت فى حيات (44) سيدنا رحمه الله من غير زيادة ولا نقصان لان سيدنا /٢٢ ادام الله نصره امرنى بأن كل ما فى خواطركم يقضيه لكم وقد فرحنا /٢٣ والحمد لله لهذا الصلح الذى جعله الله على يد هذا السلطان المبارك /٢٤ السعيد كما جعل سبحانه وتعلى على يده الشريفة كل امر سديد ورشيد /٢٥ والسلام فى 17 من شهر رجب عام 1206 .

[طابع الطاهر بن عبد الحق فنيش]

/٢٦ خديم المقام العالى بالله /٢٧ الطاهر بن عبد الحق فنيش

لطف الله به آمين

39) Luis de Urbina

40) el rey Carlos

41) el conde de Floridablanca

42) el español

43) هكذا بالاصل والصواب هو «مرسى»

44) هكذا بالاصل والصواب هو «حياة»

/١ (45) ومن تمامه ان النصرى متاعكم الذين /٢ خرجوا فى الفلوكة امر سيدنا نصره /٣ الله ان يبقون بتطوان وان يستوصوا /٤ بهم خيرا ويحسنون معهم الى ان يامر /٥ سيدنا بتوجيههم اليكم وها نحن /٦ كتبنا لسيدنا نصره الله على شأنهم /٧ والسلام فى تاريخه
/٨ الطاهر /٩ فنيش

***

رسالة رقم 3

من مولاى مسلمة الى «ضونيا ماريا» ملكة البرتغال

29 رجب 1206 هـ. = 23 مارس 1792 م.

رزمة رقم 4328

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله

/٢ من عبد الله تعلى امير المومنين مسلمة بن محمد الله ومولاه وليه /٣ الى رينة البرطقيز ماريه (46) سلام على من اتبع الهدى اما بعد /٤ فاعلموا ان اخانا مولاى اليزيد قد صار الى عفو الله ورحمته /٥ ونحن اورثنا الله ملكه فها نحن اعلمناكم وعزيناكم فيه انتهى /٦ وفى تاسع وعشرين رجب عام 1206

***

رسالة رقم 4

من مولاى مسلمة الى مجلس القناصل المعتمدين بطنجة

29 رجب 1206 هـ. = 23 مارس 1792 م.

رزمة رقم 4328

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

/٢ كافة القونصوات (47) الذين بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى اما /٣ بعد فنامركم تقدمون علينا لحضرتنا العلية بالله صحبة وصيفنا القايد محمد /٤ بن العربى العولة والتاجر اجوان (48) عزما والسلام فى 29 رجب عام 1206

45) ابتداء من هنا نلاحظ ان النص مكتوب فى اسفل الجهة اليمنى من الهامش

46) la reina de Portugal Maria.

47) los cónsules

48) Juan وهو Juan Chiappe

رسالة رقم 5

من مجلس القناصل المعتمدين بطنجة الى مولاى مسلمة

6 شعبان 1206 هـ. = 30 مارس 1792 م

رزمة رقم 4328

الحمد لله هذه نسخة كتاب توجه لحضرة سيدنا العالية بالله نصه بعد افتتاحه /٢ بعد تقبيل حاشية البساط الكريم للامام امير المومنين وناصر الدين مولانا /٣ مسلمة ابن امير المومنين مولانا محمد السلام التام والرحمة والبركة على على /٤ مقام مولانا المنصور بالله الاعلام لسيدنا ومولانا ابقى الله لنا وجوده ان كتاب /٥ سيدنا الشريف وافانا صحبة وصيف سيدنا القايد محمد بن العربى العولة وخديم /٦ اعتاب سيدنا التاجر اجوان (49) فاستفدنا منه خطاب سيدنا على شأن ان نتوجهوا /٧ لحضرة سيدنا العالية بالله فليعلم سيدنا ومولانا ابقى الله وجوده اننا طالبين /٨ من سيدنا ان يعذرنا ويسامحنا ولا يواخذنا لان السفر فى هذا الوقت قد صعب /٩ علينا ولو وجدنا لانفسنا الملاقات (50) مع سيدنا والنظر الى وجهه الكريم /١٠ لهان علينا كل شىء وها نحن وجهنا لسيدنا هدية فنطلب من سيادة سيدنا /١١ السعيدة ان يقبل ما وجد حتى يكون ذلك من سيدنا على وجه حسن /١٢ بحيث ان تتبين لسيدنا خدمتنا ولا يبقى شىء فى خاطر سيدنا علينا من عدم /١٣ قدومنا لحضرة سيدنا وها هى مرسومة ومبينة فى زمام يصل سيدنا داخل هذا الكتاب /١٤ صحبة خديميه المذكورين وكما يعلم سيدنا ايضا ان البراءات الذين بعث لنا /١٥ بقصد ان يوجه كل واحد منا براءة لكرتيله (51) فقد وصلونا وفى الحين توجهوا /١٦ بهم لما امرنى به من سيدنا ونحن الاخدام لسيدنا بارك الله لنا فى عمره والسلام /١٧ فى 6 من شهر الله شعبان المبارك عام 1206

/١٨ عن اذن كافة القوانصة (52) القاطنين /١٩ بثغر طنجة حاطه الله بمنه

---

49) Juan وهو Juan Chiappe

50) هكذا بالاصل والصواب هو «الملاقاة»

51) هكذا بالاصل والصواب هو «لكرتى له»، «كرتى» = « corte »

52) los cónsules

دول الطـوائـف
منـذ قيامهـا حتـى الفتـح المرابطـى

وهذه حلقة اخـرى من الحلقات التاريخية للاندلس، يجود بها أستاذنا عنـان، بعد ما جـاد بغيرها من دراسات قيمة، كانت هى الاولى فيما كتب بالعربيـة حـول الاندلس، من حيث الجمع والتفصيل والاستفادة من احدث المراجع الاوربية، واجد ما يعثر عليه من الوثائق التاريخية .

تناول الاستاذ عنان فى كتابه هـذ، دراسـة هذه الدول، دراسة كل منها على استقلال، وهو نوع من التناول كنا فـى حاجة اليه، عند ما نرجع الى قاموس هذه الدول الطائفية، ما عدا دولة بنى حمود، التى اكتفى فيها بما كتبه عنها فيما سبق، كتابة لا نجد لها حتى الآن فى العربية مثيلا، ولم يقف أستاذنـا عنـد ملـوك الطوائـف من المسلمين، وانما أضاف اليهم من عاصـرهـم وجـاورهم من النصارى، واتى ببعض الاوصاف لاماراتهم، وربما أشار الى تاريخ عواصمهم وسقوطها بيدهم، ثم يعقب على ذلك بدراسة فى خواص هـذا العصر من سياسية واجتماعية وحضرية، مضيفا الى ذلك بعض الوثائق والخرائط الضرورية للمدن والمواقع الهامة

فجاءت دراسة مفيدة للغاية، كمـا تعودناهـا دائما من الاستاذ عنان، حفظه الله ومتعنا بنشاطـه الدائب، فى حقل الثقافة الاندلسية والمغربية .

واذا كانت لنا من ملاحظة نبديها على هذا الكتاب الممتع، فانها ستكون فيما يلـى :

وقوع بعض التصحيـف الطفيـف فيمـا اورد من نصوص، خصوصا الشعرية منها، كما فى الصفحات 25، 33، 39، 60، 69، 179، 182، 182، 209، 258، 272، 347، 350، وهـى أخطـاء تتصل بالمراجعة الطباعية ولا شك، ولا توجد بهذه الكثرة النسبية الا فى النصوص، والشعرية منها على الخصوص.

دراسة البرغواطيين تعرض لها الاستاذ فى شىء من الاهمال، واقتصر فيها علـى ابن خلدون والناصرى والروص، ولم يحاول ان يطلعنا فيها على معلومـات أخـرى ذات قيمـة اعظم من تلك، كما نعثر عليه فى مثل كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار، والمسالك والممالك للبكـرى، كما حصل له بعض الخطأ فى تحديد بسيط تامسنا، الذى جعل حده الشمالى متصلا بازمور مع انه متصل بنهر ابى رقراق .

الاقتصار فى تفسير معنى كلمة (مراكش) على ما ذكره ياقوت، وتبعه غيره مـن مثـل ابن خلدون والسلاوى، وانه مؤلف من مر (العربية) وكش، اى مر سريعا، بالبربريـة، وهـو تفسيـر فيـه بساطة ولكنه ما زال معقدا يتطلب التفسير المعقـول، شأنـه شأن كثيـر من اسماء مدنتـا التى تنوول تفسيرها ببساطة، تصل الى السذاجة فى بعض الاحيان .

تابـع الاستاذ غيره من المؤرخين الذين وقفوا وقفات طويلة عند مأساة المعتمد ابن عباد ـ كما يسمونها ـ ولم يمل الانصات الى الشعر الذى لابس هذه (المأساة) سـواء ما قيـل منه فى حياة ابن عباد وما قيل منه بعد وفاته على الاثر او بعد قرون خلت، ويذكر انه وقف موقف أولئك الشعراء الذين شعروا بالحزن العميق والاسى الشديد، فبكوا واستبكوا، وقالوا من الشعر الذى لو كان متأتيا لاستاذنا لجاد به كذلك، ولكننا نحمد الله .

والواقع انى كنت انتظـر مـن الاستـاذ ان يتناول هذه (المأساة) على غير ما تناولها غيره من الكتاب العاطفيين او المتحامليـن او المقلدين) حتى من المغاربة انفسهم فـى القديم والحديث، غير انه فاجأنى بموقفه هذا، وهو المؤرخ الذى يتناول الاحـداث بروح لا تتأثر الا بالحقائق والحقائق وحدها، او لا تتأثر ولكنها تذكر الاشياء رابطة الجأش، غير عابئة بما يسر او يسخط غيرها، ما دامت راضية عما تعتقد انه صواب وحق.

لـم لم يقـف أستاذنا من المعتمد موقفـه من يوسف، وكان عليه ان يصور المعتمد فى قسوتـه ووحشيته، فى معاملة ابن عمار، بل كان عليه ان يصور اباه وجده ذلك التصوير وافظع منه تجاه أولئك الرجال الذين ذهبوا ضحيـة الغـدر والاغتيال، لم يتأثـر الا للمعتمد، ولـم يصف بالقسوة الا يوسف العظيم، بل جعل الرجل، فى بعض الاحيان، لا يقوم بما قام به وهو على شفـى القبـر، الا بدافع السيطرة والطمع فى الاندلس، واذا كان ذلك كذلك، وقد بهر الرجل من الاندلس وخيراتها، فلم لم يعفل ما فعله الفاطميون فيقيم له العاصمة فـى الاندلس، كما أقامها هؤلاء فى مصر ؟ ولم يعد الى بلاده ليقتصر فيها على لحوم الابل وألبانها، عليـه الرحمة وعنه الرضوان ؟

ربما يقال في الاجابة عن هذا كلام قد تذعن اليه او لا تذعن، ولكن الحقيقة التي لا يمكن ان تذعن لغيرها، هو ان يوسف قد استنفذ ما عنده لارضاء المعتمد، واستنفذ ما عنده في الصبر على مكارهه وملاعبه، واخيرا وجد نفسه مضطرا الى اتخاذ الحزم تجاه هؤلاء المتلاعبين المتوجسين، ففعل ما أملاه عليه الواجب، وكان في تلبيته له رؤوفا رحيما بذلك الرجل، الذي لو حكم عليه عصر المدنية، والانسانية، وهو عصرنا... لما أعفى رقبته من حبل المشنقة، او رأسه من رصاص المعدمين ...

فجر الاندلس

حسين مؤنس

أعتقد ــ حسب ما قرأت لصديقي الدكتور ــ ان خير كتاب ألفه هو هذا الكتاب، بل اعتقد ان خير ما ألف بالعربية في هذا الموضوع حتى الآن هو كتاب فجر الاندلس : «دراسة ــ كما قال ــ في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الاموية»، ولكنها دراسة من نوع ممتاز في عرضها واستيعابها وربط احداثها التاريخية برباط يقوم على التعمق في فهم مجرياتها وبواعثها .

لقد مهد الدكتور مؤنس لهذا الموضوع بتمهيد لازم لدراسته، تناول فيه باختصار تصوير اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي، ثم لم يهجم على دراسة اسبانيا ــ او الاندلس ــ وقد فتحها الاسلام، وانما عاد الى سير الفتوح الاسلامية في الشمال الافريقي، قبل الاندلس، فتكلم عن فتح المغرب، وما لابس هذا الفتح من تأسيس مدن، وتنظيم ولايات، وتعاقب ولاة، كان آخرهم ذكرا، الوالي موسى بن نصير، الذي حدث الفتح الاسلامي على أيامه، ومن ثم انتهى الى الموضوع المقصود بالذات «تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الاموية» بادخال الغاية ــ كما يقولون ــ لان قيام هذه الدولة كان مما تناوله مؤنس بالدرس، فختم به كتابه القيم .

قرأت الكتاب فازددت اعجابا بمؤلفه وانتاجه العظيم وحرصت كل الحرص على ان اجد لنفسي فيه موقفا ألاحظ منه بعض الملاحظات، التي نسميها بالنقد ونفهمها «كشف المآخذ» فلم اجد لنفسي محلا من الاعراب ــ كما يقال ــ ولكني بالرغم من هذا وذاك فلا بد... من ان اقول شيئا ... نعم لابد من ان اقوله، ولو كان ذلك «الشيء» على الهوامش وليس من صلب الموضوع ولا من شكله، وهكذا اقول ما يلي :

ان رأي الاستاذ في شخصية موسى بن نصير، ربما كانت فيه بعض القساوة فلقد صوره لنا على عكس ما عهدنا المؤرخين، من قدامى ومحدثين، يصورونه داخل تلك الهالة من العدل والاصلاح، ولعل هؤلاء القدامى والمحدثين هم المسؤولون عما نكرناه في تصوير الدكتور مؤنس لهذه الشخصية تصويرا باهتا في بعض جوانبها، قاتما في بعضها الآخر، كما يبدو لنا، وحسب ما لنا من معلومات، لا تصل في كثرتها واتساعها الى

معلومات المؤلف فاننا لا نطمئن الى هذا التصوير، بالرغم من اطمئناننا لعلم الاستاذ ودقته والاستنباط فى التحليل ...

يعتمد فى بعض الفصول على ترجمة جايا ناجوس لنفح الطيب، ولا ندرى لماذا يعتمد على هذه الترجمة الاجنبية ولا يواجه النص العربى الفصيح المبين ؟

ويناقش ما قيل عن المسلمين انهم قتلوا ابن نصير للبسه تاجا من ذهب ... فيقول ليس فى الدين ما يحرم لبس التاج من ذهب... والواقع ان الدين يحرم لبس هذا التاج وغيره من المحلى للذكر، كما هو معروف فى خليل وغيره، وله اصول من السنة نجدها فى كتبها مثل سنن ابى داود والنسائى وابن ماجه ومسند ابن حنبل والطالسى وموطأ مالك وغيرها، على ان سبب القتل لم يكن لارتكاب الحرام بلبس التاج، وانما كان لعوامل أخرى أهمها ما لاحظوه على الرجل من استسلامه لزوجته المسيحية الاميرة الموتورة، وان استسلامه هذا ينطوى على اخطار محيقة ...

فى صفحة 227 يقول عن ابن الخطار انه «وقع اسيرا فى يد اعدائه فكبلوه بالحديد» وبعد اربعة اسطر يقول : «ولم يحدث فيها من جليل الامور الا محاولة ابى الخطار استعادة الولاية» كيف حدث ذلك وعهدنا به مكبلا بالحديد ؟ الاجابة عن هذا تأتى فى صفحة 363 .

وعلى كل حال فانها قفزة غير معتادة من المؤلف فى عرضه الذى يشبه شريط السينما... ويذكر فى صفحة 652 ان الشافعى كانت لمذهبه اصول وضعها فى الحجاز تخالف تلك التى وضعها فى مصر، والمعروف ان الشافعى له مذهبان قديم عراقى وآخر جديد مصرى .

فاذا ما تركنا هذه الملاحظات العرضية وعدنا الى الكتاب لننظر فيه نظرة الرضى والاعجاب فاننا نجده قد تناول عدة نقط هامة، قليل من تناولها من المعاصرين، الذين لم يهمل المؤلف استفادته منهم ...

ومن ابرز النقط التى امتاز به مؤلفه القيم تلك التى تشير الى ناحية الاختلاف بين وضع الموالى واهل الذمة فى المشرق ووضعهم فى الاندلس واثر البيئة فى التشريع الاسلامى بهذه البلاد، وكون جانب عظيم من الفضل فى اسلام اهل الاندلس يرجع الى هؤلاء البربر لا العرب الفاتحين .

واخيرا بل اول ما يشكر عليه المؤلف فى دراسته هذه تلك الروح الاسلامية العلمية التى يشعها فى بحثه الجديد الذى ولا شك سيكون له صدى بين هؤلاء الدارسين من غير المسلمين لهذه البلاد، ذلك انه لم يندفع

بهذه الروح اندفاع متحمس، وانما اندفع فيها والمنطق يؤيده والتفكير السليم لا يعارضه، فجاءت دراسة هذا اول حلقة متينة من حلقات التاريخ الاندلسى المسلم الذى نرجو له ان تتم حلقاته على هذا السياق والنظام وبهذه المتانة التى وجدناها فى هذا الكتاب، ولما نعرف من همة المؤلف ونشاطه الفذ، فلا شك انه قد وضع امامه تصميما كاملا لسلسلة هذا التاريخ، وان كتابه هذا ما هو الا حلقة أولى تتلوها من المؤلف نفسه حلقات أخرى إلا تكن قد افرغت بالفعل فانها تباشر لهذه الغاية النبيلة .

سوس العالمة

كتاب طريف في بابه، أتحفنا به مؤلفه صديقنا الاستاذ السيد محمد المختار السوسي، بعد ما كنا قد قرأنا عنه كمرجع من مراجع «دليل مؤرخ المغرب»، وسمعنا عنه كثيرا من المدح والثناء ...

وحق ما يوصف به ذلك الكتاب، من كونه سد فراغا عظيما، من جملة الفراغات الكثيرة التي ما زالت بقيتها تتطلب من البحاث مجهودات شتى، وتكتلات متساندة، حتى يستطيعوا التغلب على ملئها .

فهو كتاب حافل بالشخصيات السوسية، التي قامت على خدمة الثقافة الاسلامية بصفة عامة، وعلوم الآلة منها بصفة خاصة منذ سبعة قرون.

وقد مهد المؤلف لكتابه هذا بمقدمة، أبان فيها عن غرضه في تاليف الكتاب، وانه ابن فكرة نبيلة، بعيدة كل البعد عما عسى ان يفهمه القاصرون في التفكير من الاتجاه الى العنصرية والاشادة برجالها، «مع ان العمل ليس من العنصرية في شيء، فهل اذا توفر الطبيب للتخصص في بحث، وهل اذا قام رب اسرة بكل ما تحتاج اليه أسرته بالانفاق عليها وحدها، وبالدفاع عن حقوقها، وتحديد املاكها الخاصة، يلمز ايضا بالعنصرية ؟ »

ويحمد للمؤلف الفاضل، بالاضافة الى عمله هذا البكر، روحه المنصفة وقصده في تصوير الاشياء والاشخاص، تصويرا مجردا من كل تحيز او مبالغة، فاذا ذكر لشاعر، مثلا، شعرا لم يدع انه عنوان الروعة والاجادة، وانما يقول هذا شعر أثبتناه على انه قيل من صاحبه فلان، وكفى، ولنترك لغيرنا الحكم او عليه .

وهو شيء لم نألفه من كتابنا، خصوصا اذا كانوا فيما يكتبون، يعانون ابراز شيء جديد لم يسبقوا اليه، كما هو الحال في مؤلفنا هذا.

والواقع أن الكاتب، لم يتكلف هذا المظهر، ولم يخدعنا بهذه النزاهة العلمية، وانما اراح نفسه في ذلك، فظهر في كتابه على عادته وكما يعرفه الناس، إعتدال في الفكر، واتزان في الحكم، وفحص في النظر، وسبر لاغوار الحقائق، فيبرزها كما هي او كما يعتقد انها هي، في صراحة وبساطة وشجاعة كذلك .ه.

كنا ننتظر من الكاتب الفاضل ان يرجع بسوسه الى اغوار التاريخ، ولو في نطاق الاسلام، ولكنه لم يفعل، واقتصر منه على بضعة قرون، متصلة بنا، ولعله حتى الآن لما يطمئن الى معلومات تصعد في سلم الزمان الى اعلى من ذلك، مع ان سوس لها قصتها الفذة في الحضارة المغربية

هــذه دعــوى ادعيناها منذ عشر سنوات، وكلما مضــت الايام ازددنا بقضيتنا ايمانا، وعلى الايام المقبلة، وعلى أستاذنا المختار، تحقيق ما سكت عنه التــاريخ حتــى الآن، ونطقــت به العوالم والمعالم واومأت اليه المقدمات ملحة في نتائجها .

على ان المؤلف اشار اشارة رقيقة الى شيء من هذا، في أوائل التاريخ الاسلامي، وعلى سبيل الاستنتاج والاستيناس، واكتفى بهذا، ولم يتدرج فيه زمنيا، فيصل بين الدرج الا على سبيل الغرض...

لابد ان نستنطق سوس عن ماضيها البعيد، والبعيد جدا، المنساب في اغوار التاريخ، ولا محالة ان سوس ستحدثنا بقصتها الرائعة، قصة الحضارة المغربية، كما قلنا، في عهودها الاولى، قبل الاسلام بكثير، وفي الاسلام على عهوده المبكرة بالمغرب، وفي ريعان شبابــه بهــذه البلاد، فنرى اول مدرسة تؤسس خصيصا لطلبة العلم تكون بسوس، واول ما يؤلف في العلوم بغير العربية، من لغاتنــا الاولــى ولهجاتنا، يكون ذلك بالسوسية، وفي ادق ما عرفته الثقافــة الاسلامية، وهي قدرة لم يقل لها كوني فكانت، وانما مهدت لها الاجيــال وسددت سواعدهــا الازمــان، وكذلك نجد المعتمد يضم بلاطه موسيقيين من سوس، وهــو لون آخر لابد ان يحسب حسابه في تقدير هذه الحضارة المباركة ...

نعــم انها «ســوس العالمة» ولا يريدها المؤلف الا عالمة بالعربية وفي الاسلام، ولا يريــد بنفسه الا ان يظهر بشواهده الواضحة وبيناته القوية، ولكننا نريده ان ينطلــق وراءه الى الماضــي عاديا، تحدوه الرغبة التي تأتي بالحقائــق، ولا نقصد انها تخلقها، فالحرارة في الاكتشاف لابد ان تضع يد صاحبها على ما ينشده، كاملا او ناقصا .

التشوف الى رجال التصوف

يعد كتاب التشوف لابن الزيات المتوفى سنة 627، من اهم المراجع المغربية المتصلة بتراجم رجالات المغرب، منذ القرن الخامس حتى اوائل السابع، كما ياتي.

والكتاب وان كان في عنوانه يحدد موضوعه بتراجم المتصوفة، الا انه في المقدمة يعلن عن المقصود بهم «من افاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب اهل الفضل» كما انه يذكر من هؤلاء «من كان بحضرة مراكش من الصالحين ومن قدمها من اكابر الفضلاء ... ومن كان من اعمالها وما اتصل بها من اهل.. العدوة.. ومن قدم مراكش وما اتصل بها وان كان من غيرها، اذا كان مماته بها، ومن هو من اهل.. العدوة وان كان مماته بغيرها» ثم ينص كذلك على انه لم يتعرض فيه لاحد من الاحياء على عهده، وانه شرع في تصنيف هذا الكتاب سنة 617 واخيرا يذكر انه فرغ منه في نفس السنة...

هذه الخطوط كلها مهمة، اذ تجعلنا نفهم المقصود من التاليف، وبذلك لا نضل في الحكم استنادا عليه، واستنتاجا منه، يعني ان الكتاب لا يعطينا صورة كاملة، او قريبة من الكمال، عن رجال الفكر بالمغرب، الى ذلك العهد، فهو تقريبا نواة لكتاب الاعلام، المركز حول مراكش واغمات، مع اختلاف بسيط في الوجهة والزمان ...

ومهما يكن فقد حفظ لنا المؤلف كثيرا من تراجم الرجال، ومنهم كثير اختص بذكره. الا انه مع الاسف لم يذكر لرجال المغرب آثارا ادبية الا في النادر، كابن عطاء المعروف بابن العريف الصنهاجي الطنجي ثم الالمري ولعل المؤلف لم يعثر لغيره على هذه الآثار، ولعل ابن العريف حفظ له ما حفظ لمكوثه بالمرية، وتناول الاندلسيين له بالترجمة، مثل ابن بشكوال ... كما يوخذ على المؤلف انه لم يذكر من البارزين الذين توفرت فيهم شروط الذكر، مثل القاضي عياض.

لماذا ؟ هل للسياسة دخل في ذلك ؟ لا ندري...

من الفوائد التي تستفاد من الكتاب، واتت عرضا فيه، مسالة اثير حولها النقاش اخيرا، وتلك مسالة تسمية المرابطين، فالمؤلف في بساطة، يذكر ان هذه التسمية حدثت من واجاج (تلميذ ابي عمران الفاسي، والذي كتب اليه يوصيه بيحيى بن ابراهيم الجدالي، فانتدب هذا من تلاميذه الذين سماهم بالمرابطين عبد الله بن ياسين) يقول المؤلف ما نصه : «رحل الى

القيروان فاخذ عن ابي عمران الفاسي، ثم عاد الى السوس، فبنى دارا سماها بدار المرابطين، لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه .

هكذا نشات التسمية، ثم تسلسلت فى مدلولها واعيان رجالها، وهى تسمية وضعت لتشمل عبد الله بن ياسين الطالب، ولم يضعها عبد الله بن ياسين، الزعيم الخطير، ولا من اتى بعده، الا على سبيل الاستعارة من من واجاج...

واخيرا، نشكر للاستاذ فور، عمله الشاق، واخلاصه الفذ، اللذين تناول بهما هذا الكتاب فاخرجه ممتازا من بين مطبوعات معهد الابحاث العليا المغربية ونعنى بذلك على الخصوص تحقيق النص وخلوصه من الاخطاء الطباعية الا ما ند منها وفى قلة لا تتجاوز عدد الانامل، فلعل الناشرين، وتحن منهم يقتدون به، ويخلصون العربية من وصمة طباعتها، التى كانت تنفرد بها...

عيد جامعة القرويين

بمناسبة ذكراها المائة بعد الالف

شهد المغرب فى النصف الاول من شهر اكتوبر مظاهرة ثقافية كانت الاولى من نوعها، تلك هى المهرجانات التى أقيمت احتفاء بأقدس تراث فى المغرب فى مدينة فاس، هذا التراث العظيم الذى يتمثل فى جامعة القرويين التى سلخت احد عشر قرنا من حياتها المجيدة التليدة ...

لقد دعت وزارة التربية الوطنية سائر رؤساء الجامعات من مختلف القارات الخمس... وكان المغرب ارض الميعاد لكبار الشخصيات ورجال الفكر من شتى جهات العالم ...

وحل يوم الاثنين عاشر اكتوبر حيث شهدت فاس طلعة العاهل الكريم الذى شمل العيد برعايته السامية... لقد ترجل فى باب المدينة وقصد «المسجد الجامعة» فى رفقة الضيوف الكرام ومحفوفا بكبار رجال الدولة واعضاء السلك الدبلوماسى قبل ان يلتحق بقاعة الخزانة الكبرى التى ضمت النخبة الطيبة من كل جهات الدنيا بشعاراتهم الجامعية .

لقد تسلم هنا صاحب الجلالة بدوره (ملف المهرجان) ثم كان خطاب السيد وزير التربية الوطنية ثم كان خطاب السيد رئيس الجامعة... وكان مسك الختام النطق الملكى الكريم ... الذى استقبل مرارا بالتكبير والتصفيق وقد كان من المقرر فى البرنامج المحدد ان تخصص جلسة ما بعد الظهر لتقديم التهانى للجامعة بعيد ميلادها .

وفعلا تم الاجتماع بقاعة الحى الجامعى الجديد... وحضرها ممثلون عن :

الصين الشعبية، والمملكة الاردنية الهشمية، والجمهورية العربية المتحدة، والجمهورية العراقية، والجمهورية اللبنانية، والجمهورية الفرنسية، ومملكة هولاندا، والجمهورية الايطالية، وجمهورية السنيغال، والمملكة الليبية

المتحدة، والسودان، والجمهورية التونسية، والمملكة الايرانية والاتحاد السوفياتى، والجمهورية الجزائرية، والمملكة العربية السعودية، ويوغوسلافيا وهيئة اليونيسكو، والاتحاد الدولى للجامعات، وشاطىء العاج ونجيريا ...

وفى الدول من بعثت بعده شخصيات : رؤساء فى جامعات او ممن لهم مكان مرموق فى الاوساط العلمية على ان فى الدول من اوفدت وزير التربية الوطنية بنفسه ليقوم بتقديم التهانى... وفى الجامعات من اوفدت رسالة التهنئة قبل الموعد المحدد مع وفد جامعى ...

لقد غصت القاعة بالمدعوين... وكانت مزدانة بمختلف الرايات ذات اليمين وذات اليسار وانتصبت على منصتها اجهزة الاذاعة والتسجيل... وقد حضر جانبا مهما من هذه الجلسة الاولى الاستاذ عبد الكريم ابن جلون وزير التربية الوطنية .

هذا وقد طفق المهنئون يقدمون عواطفهم على الترتيب الابجدى .

1 ـ لقد تقدم الدكتور سليمان حزين مدير جامعة اسيوط رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة ...

2 ـ ثم وكيل الجامع الازهر الشيخ محمد نور الحسن.

3 ـ ثم الشيخ محمد المبارك رئيس كلية ام درمان بالسودان.

4 ـ ثم سعادة وزير التربية الوطنية بشاطىء العاج السيد بونى جواكين عن جامعة أبيجان .

5) ثم الشيخ ابراهيم القطان عن المملكة الاردنية الهاشمية .

6) ثم سعادة الدكتور حسين كاظمى نافايى سفير المملكة الايرانية عن جامعة ايران .

7) ثم السيد انجلوز عن جامعة باريز والسوبون وستراسبورغ .

8) ثم السيد ماريو مارتينو مورينو باسم جامعة بولونيا بايطاليا.

9) ثم المسيو بابان عن جامعة بوردو

10) ثم المسيو تشو ايليان عميد كلية التاريخ بجامعة بكين، وقد ترجم تهنئته من الصينية الى العربية الاستاذ اويوشى الاستاذ بالجامعة .

11) ثم الشيخ الكبير محمد رضا الشبيبى الرئيس الاول للمجمع العلمى العراقى .

12) ثم عن المجمع اللغوى بالجمهورية العربية المتحدة الاستاذ عزيز اباظة .

13) وعن جمعية العلماء الجزائريين هنا الشيخ خير الدين.

14) وعن جامعة داكار هنا المسيو ناردان عميد كلية الآداب.

15) وعن الاتحاد الدولي للجامعات السيد كيبس الكاتب العام للاتحاد

16) وعن جامعة الزيتونة الشيخ العلامة السيد محمد الفضل ابن عاشور .

17) وعن طشكنت بالاتحاد السوفياتي تحدث الشيخ اسماعيل مخدوم بن داملا نائب رئيس المركز الديني لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغاسان

18) وعن هيئة اليونيسكو تحدث المسيو شوفاليي .

19) وعن معهد كولخ في السنيغال تحدث الشيخ السيد الحاج ابراهيم نياس .

20) وعن جامعة لبنان هنا سعادة الدكتور سليم حيدر سفير الجمهورية اللبنانية.

21) وعن جامعة ليدن بهولاندا تحدث البروفيسور دروويس.

22) وعن معهد السيد محمد علي السنوسي بالمملكة الليبية المتحدة هنا الشيخ منصور المحجوب المستشار بالمحكمة العليا الاتحادية .

23) وعن جامعة موسكو هنا البروفيسور كوفالوف مدير معهد اللغات الشرقية بالجامعة

24) وعن نيجيريا تحدث السيد عبد الوهاب.

25) وعن وزارة التربية الوطنية بالسنيغال هنا الاستاذ الحاج مالك سي .

26) وعن جامعة سراييفو هنا الدكتور الاستاذ مدحت بيكيشت.

وحانت السابعة والنصف دون ان تنتهي باقي التهاني .

ومن قاعة الحي الجامعي قصد الضيوف ثانوية المولى ادريس حيث كان قدماء التلاميذ هيأوا حفلة شاي على شرفهم وقد تبودلت فيها كلمات ودية... ثم قصدوا مدرج الثانوية لمشاهدة شريط عن «سلطان الطلبة....»

لقد عاد الضيوف الى الاجتماع صباح اليوم الموالي... وافتتحت الجلسة بالتهنئة الشعرية لسعادة الاستاذ خير الدين الزركلي سفير المملكة السعودية عن وزارة التعليم بالمملكة السعودية، وكان مسك ختام التهاني كلمة الشيخ محمد رضا المظفر رئيس كلية الفقه في النجف الاشرف بالعراق.

هذا ومما يلاحظ ان بعض التهاني كتب على ورق الغزال وبأحرف لاتينية وباسلوب تقليدي قديم، يستعيد الازمان الغابرة... وذلك كما كان في تهنئة جامعة اكسفورد ببريطانيا وجامعة بوردو بفرنسا وجامعة روما وجامعة سراييفو بيوغوسلافيا.. وجامعة الصين الشعبية وجامعة موسكو..

نعم بعد فترة راحة... رجع الضيوف الى مقاعدهم للاستماع الى ملخص البحوث والكلمات التي وصلت الى لجنة الاحتفال...

لقد افتتحت الجلسة من جديد فاستمعنا الى كلمة سعادة الاستاذ السيد محمد بهجت الاثري مدير الاوقاف بالجمهورية العراقية بعنوان : «تحية المغرب والقرويين» ثم الى كلمة الدكتور سليم حيدر تحت عنوان «خشبة النجاة»... ثم استمعنا الى بحث الدكتور محمد البهي مدير الادارة الثقافية للجامع الازهر عن جامع القرويين واسهامه في حفظ التراث الاسلامي، وكانت كلمة سماحة الشيخ محمد الامين الشنقيطي وزير التربية التربية والتعليم بالمملكة الاردنية الهاشمية وقد القاها بالنيابة عنه الشيخ ابراهيم القطان، وكانت كلمة الاستاذ سعيد العريان الذي عرض الدور المعاهد الدينية في دعم التراث الاسلامي والعربي ثم كانت كلمة الاستاذ الجليل عبد الجواد القريطس مدير جامعة ليبيا العصرية عن اثر القرويين في نهضة ليبيا، ثم كلمة قيمة للشيخ محمد رضا الشبيبي اول رئيس للمجمع العلمي العراقي عن الطبيعة في المغرب، ثم كلمة الدكتور جمال الدين الشيال عن العلاقات الثقافية بين الاسكندرية والمغرب، ثم كلمة الشيخ السيد محمد الفضل بن عاشور الذي شرح منهج البحث الذي اعده بهذا الصدد .

لقد كان عدد الكلمات والقصائد يفوق الحصة المحددة للمهرجان ... ولذلك فقد ارجئت الجلسة الى ما بعد الظهر... ولم يفضل من الوقت للبحوث والقصائد ـ بما فيها الكلمات المغربية ـ الا ما يكفي لقصيدة من شعر الاستاذ محمد الحلوي احد علماء القرويين، والا لكلمة بقلم الاستاذة زهور الزرقاء اول متخرجة من القرويين... وقد ألقت الكلمة بالنيابة عنها الاستاذة مالكة الفاسي.

لقد دقت الواحدة بعد الظهر.. فقصد الضيوف مادبة جامعة القرويين بدار المقري على نغمات الطرب الاندلسي: وما حانت الثالثة والنصف حتى كانوا بأجمعهم في القاعة ... انها جلسة الختام ...

لقد استهل الرئيس الاستاذ محمد الفاسي الجلسة بالاعتذار الى كافة الذين كتبوا او بحثوا او شعروا ... مذكرا بأن «السجل» المنتظر سيكون

ميدانا يلتقى فيه سائر هذا الانتاج الرفيع ثم اعطى الكلمة للكتاب العام...

وهنا سمعنا ... عناوين لطائفة من الكلمات القيمة التى كان من المنتظر ان نستمع اليها :

1) دور القرويين فى جعل فاس بين العواصم الاسلامية الكبرى لسعادة الاستاذ محمد الفاسى .

2) علماء لامعون من سوس اخذوا من القرويين، لسعادة الاستاذ محمد المختار السوسى .

3) عبد الحق ابن معيشة احد عمداء جامعة القرويين اوائل القرن السادس الهجرى، للاستاذ عبد الهادى التازى .

4) تاريخ التعليم الاسلامى بالمغرب، للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله.

5) القرويين بين الامس واليوم، للاستاذ الحاج احمد بن شقرون.

6 ـ جامعة القرويين، للاستاذ عبد الهادى الشرايبى .

7) العلاقات بين القرويين وابن يوسف، للاستاذ الرحالى الفاروق.

8) حظ القرويين فى الدفاع عن السيادة الوطنية، للاستاذ محمد ابراهيم الكتانى .

9) تعليق حول بناء جامعة القرويين، للاستاذ عبد الهادى التازى.

10) المناهج الدراسية بالمعاهد الاصلية، للاستاذ الحسن السائح

11) المركز الاجتماعى لعلماء جامعة القرويين، للاستاذ محمد السراج

12) جامعة القرويين، للاستاذ عبد الكريم ابن الحسنى.

13) البيوتات العلمية بفاس، للاستاذ عبد السلام بن سودة

14) الى الامام ايتها القرويين (شعر)، للاستاذ عبد اللطيف خالص.

15) احمد بن عبد العزيز الهلالى، للدكتور تقى الدين الهلالى.

16) القرويين منشأ العز دوما (شعر)، للاستاذ عبد المجيد الفاسى.

17) الدور السياسى لجامعة القرويين، للاستاذ عبد الكريم الفيلالى

18) جامعة القرويين، للدكتور مصطفى جواد.

19) طالب من القرويين يعتلى كرسى الفاتيكان، للسيد محمد المحفوظ الخياطى .

20) ذكرى (شعر)، للطالب محمد احمد سعيد التازى.

21) تراث الادارسة الخالد، للاستاذ عبد الله محمد العمرانى.

22) ذكرى جامعة (شعر)، للسيد محمد بن عبد القادر العرايشي .

23) مؤسسة خالدة لامرأة خالدة، للسيد عبد الحي القادري

24) رسالة القرويين، للسيد عثمان بن خضراء

25) جامعة القرويين، للسيد محرز احمد الحريزي

26) حول القرويين، للكاتب زين العابدين الكتاني.

27) بين جامعة القرويين وجامعة السنوسي، للشيخ السيد منصور المحجوب .

28) العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجري، للدكتور احمد مختار العبادي.

29) هذه القرويين (شعر)، للاستاذ محمد رضا شرف الدين .

30) الرحالة المغاربة واثرهم في المعرفة الجغرافية، للدكتور حسان عوض .

31) الاحتفال الميمون (شعر)، للاستاذ امين الدسوقي.

32) علوم وعلماء ، للاستاذ يوسف مروة

33) جامعة فاس، للدكتور الحاج عبد الكريم جيرمانوس .

34) اثر القرويين في حماية اللغة العربية، للاستاذ انور الجندي.

هذا مع العلم انه هيىء خصيصا للذكرى كتاب موجزا في 42 صفحة عن:

1) التاريخ المعماري والفكري لجامعة القرويين، تاليف الاستاذ عبد الهادي التازي .

2) وكتاب ثان عن الخزانة العلمية بالمغرب، للاستاذ المؤرخ محمد العابد الفاسي .

3) وكتاب ثالث يتضمن لائحة لنوادر المخطوطات العربية بالمغرب : اعده الاستاذ محافظ الخزانة العامة، واثر هذا الاستعراض... طفق الكاتب العام في تلاوة البرقيات والرسائل المعتذرة والمهنئة كذلك :

لقد اعتذرت عن الحضور كل من جامعة اكسفورد، وطوكيو، وبرلين، ولاهور، وبروكسيل، والرياض، والخرطوم، وبغداد، ومعهد الدراسات العربية العليا،، وجامعة برنستون، واثينا، ومدريد، وروما، ولشبونة، وكابل بافغانستان، وكلية المقاصد الاسلامية ببيروت، ووزير التعليم الاردني والشيخ البشير الابراهيمي، ورئيس جمعية العلماء بيوغوسلافيا، والدكتور

الحاج عبد الكريم جيرمانوس من جامعة بودابيست بهنغاريا، وجامعة لومونوسوفا بموسكو، وجامعة استراليا .

ولقد كان فيما قالته رسالة اكسفورد : «نحن معكم بروحنا فى فاس الشهيرة بتراثها ومعالمها.. وان لجامعتنا الشرف ان يكون تاريخ انشائها يقارب تاريخ انشاء جامعتكم على انكم اتصلتم باساتذة من الشرق واسبانيا واصبحتم على درجة قيمة تشبه قيمة المخطوطات النفيسة العتيقة ... لقد كان لكم رجال فى الفلسفة والحقوق والرياضيات، وتحمل علماؤكم مسؤوليات ثقيلة فى الدولة فكان منهم السفراء والوزراء والقادة... لقد كان لجامعتكم الفضل فى جمع اطراف المغرب من موريطانيا الى الشرق، ولجامعتكم الفضل فى تحرير المرأة المغربية، ولهذا فاننا فى هذا الجو الرائق نضيف عواطفنا لعواطفكم ونرجو لكم مزيدا من الازدهار والنجاح، ورجاؤنا ان تستمر الاكاديميات فى بحثها عن القواعد الاساسية لخلق انسانية متحدة مشتركة مستقرة تقوم على قواعد من الامن والحب بين سائر العناصر ... »

وحرر باكسفورد 15 شتنبر 1960

وكان فيما قالته جامعة بنجاب لاهور بالباكستان :

«وان عميد جامعة لاهور بالباكستان الغربى لم يخف سروره من دعوة وزارة التربية الوطنية بمناسبة عيد جامعة القرويين التى اشعت بالعلم والمعرفة على المغرب منذ احد عشر قرنا... ولا شك عندنا فى ان تخليد ذكرى جامعة انما هو تخليد لذكرى العلوم واصحابها اذ الجامعات لمتخرجيها كالام لابنائها، وفى تجديد ذكر الام تجديد لذكر اولادها، وجامعة القرويين التى هى من اقدم جامعات العالم الاسلامى جديرة بأن تخلد ذكراها وزارة التربية الوطنية، وقد استحقت الوزارة التبريك والتهنئة من جميع اقطار العالم الاسلامى لقيامها بواجب لابد منه، وانى مع كونى اعتذر عن الحضور لامور تهم جامعة بنجاب ادعو الله ان يبارك فى تلك الجامعة ومساعيها ويجعلها مشعة على جميع انحاء العالم ومبددة لظلام الجهل والعمى» .

التوقيع : يوكرامست، عميد جامعة بنجاب لاهور :

وكان فيما هنأ به السيد نصر الحاج على مدير جامعة الخرطوم :

«لقد كان يودى ان البى هذه الدعوة الكريمة واحضر للمشاركة فى الاحتفال بمرور احد عشر قرنا على اعرق مؤسسة بالوطن المغربى تقوية للاواصر التى تربط بين اقاليم هذا الوطن وابتهاجا بمقدرة هذا الصرح على

مناهضة الزمن وتوفيقه فى ربط الماضى الغنى بتراثه بالحاضر المتوثب الى السؤدد والرفعة ... ان فاتنى ان اكون حاضر بشخصى فلا اقل من ان اترجاكم ان تحملوا عنا ـ اسرة جامعة الخرطوم ـ اطيب تمنياتنا للقائمين بالمهرجان سدد الله خطاكم جعل من جامعة القرويين سراجا وهاجا يعم نوره اقصى الوطن العربى ... »

اما معهد الدراسات العربية العليا فان مديره الاستاذ الكبير السيد محمد شفيق غربال لم يقتصر على الاعتذار والتهنئة التقليدية ولكنه ابى الا ان ينظم فى المعهد المذكور خلال الايام التى تحتفل فيها القرويين بذكراها ينظم دراسات عامة مفتوحة للجمهور تطلع اهل القاهرة على القرويين ماضيها وحاضرها ...

وكان مما قالته تهنئة جامعة برينسيون الامريكية التى حملها الدكتور فليب حتى :

«الى معالى وزير التربية الوطنية فى المغرب وعلماء جامعة القرويين الافاضل تحياتنا... ليكن معلوما ان حامله الدكتور فيليب حتى الاستاذ الاكرامى للآداب السامية فى جامعة برينستون قد انتدبه رئيس جامعة برينستون وامناؤها واساتذتها ان يحمل اليكم تهانينا القلبية بالتقدم الباهر الذى احرزه معهدكم العلمى العريق واحر تمنياتنا بأن يزداد تاثيره فى دنيا العلم فى السنين القادمة ...

وحرر فى التاسع عشر من سبتمبر سنة الف وتسع مائة وستين...»

وبعد هذا ختم الرئيس الجلسة شاكرا بحرارة عواطف الضيوف ، وعواطف المعتذرين كذلك مؤملا لمؤسساتهم العلمية كل التقدم وكل الازدهار، وقد كان الضيوف على موعد مع السهرة الشيقة التى خصصها لهم رئيس مصلحة الآثار بمتحف البطحاء وقد نعم فيها المدعوون بنغمات الطرب الاندلسى، كما شاهدوا معرضا فنيا لتجليد الكتب .

وصباح يوم الاربعاء الموالى قصد المدعوون مدينة الرباط... لقد تناولوا طعام الغداء بدعوة من السيد وزير التربية الوطنية بدار التازى ثم زاروا المؤسسات العلمية الحديثة، ثم كان استقبال العاهل الكريم لهم بأحد اجنحة القصر الملكى العامر، وقد كان جلالته يحادثهم ويستفسر ... ظلوا فى جنبات القصر يتفيأون فى ظلاله، وينعمون برنات الموسيقى ردحا من الزمان... ومنه توجهوا الى حفلة الاستقبال التى اقامها على شرفهم السيد رئيس جامعة الرباط بكلية العلوم، وهنا استمعوا الى

مناهضة الزمن وتوفيقه فى ربط الماضى الغنى بتراثه بالحاضر المتوثب الى السؤدد والرفعة ... ان فاتنى ان اكون حاضر بشخصى فلا اقل من ان اترجاكم ان تحملوا عنا - اسرة جامعة الخرطوم - اطيب تمنياتنا للقائمين بالمهرجان سدد الله خطاكم جعل من جامعة القرويين سراجا وهاجا يعم نوره اقصى الوطن العربى ... »

اما معهد الدراسات العربية العليا فان مديره الاستاذ الكبير السيد محمد شفيق غربال لم يقتصر على الاعتذار والتهنئة التقليدية ولكنه ابى الا ان ينظم فى المعهد المذكور خلال الايام التى تحتفل فيها القرويين بذكراها ينتظم دراسات عامة مفتوحة للجمهور تطلع اهل القاهرة على القرويين ماضيها وحاضرها ...

وكان مما قالته تهنئة جامعة برينسيون الامريكية التى حملها الدكتور فليب حتى :

«الى معالى وزير التربية الوطنية فى المغرب وعلماء جامعة القرويين الافاضل تحياتنا... ليكن معلوما ان حامله الدكتور فيليب حتى الاستاذ الاكرامى للآداب السامية فى جامعة برينستون قد انتدبه رئيس جامعة برينستون وامناؤها واساتذتها ان يحمل اليكم تهانينا القلبية بالتقدم الباهر الذى احرزه معهدكم العلمى العريق واحر تمنياتنا بان يزداد تأثيره فى دنيا العلم فى السنين القادمة ...

وحرر فى التاسع عشر من سبتمبر سنة الف وتسع مائة وستين...»

وبعد هذا ختم الرئيس الجلسة شاكرا بحرارة عواطف الضيوف، وعواطف المعتذرين كذلك مؤملا لمؤسساتهم العلمية كل التقدم وكل الازدهار، وقد كان الضيوف على موعد مع السهرة الشيقة التى خصصها لهم رئيس مصلحة الآثار بمتحف البطحاء وقد نعم فيها المدعوون بنغمات الطرب الاندلسى، كما شاهدوا معرضا فنيا لتجليد الكتب .

وصباح يوم الاربعاء الموالى قصد المدعوون مدينة الرباط... لقد تناولوا طعام الغداء بدعوة من السيد وزير التربية الوطنية بدار التازى ثم زاروا المؤسسات العلمية الحديثة، ثم كان استقبال العاهل الكريم لهم بأحد اجنحة القصر الملكى العامر، وقد كان جلالته يحادثهم ويستفسر ... ظلوا فى جنبات القصر يتفيأون فى ظلاله، وينعمون برنات الموسيقى ردحا من الزمان... ومنه توجهوا الى حفلة الاستقبال التى اقامها على شرفهم السيد رئيس جامعة الرباط بكلية العلوم، وهنا استمعوا الى

قصيدة من خمسة وتسعين بيتا فى تمجيد القرويين بعث بها ـ من مستشفاه بالمانيا ـ الاستاذ علال الفاسي...

هدايـا لخـزانـة الجامعـة

ولا يفوتنا ان نذكر هنا ان خزانة الجامعة افتر ثغرها بهدايا وتحف تلقتها من مختلـف الوفــود : من الجمهورية العربية المتحدة، ومن كلية الفقه بالنجف الاشرف بالعراق، ومن الشيخ بهجت الاثرى مدير الاوقاف بالعراق، ومن الصين الشعبية، ومن جامعات الاتحاد السوفياتى ومن جامعة برينستون الامـريكيـة .

كـلـمـات اخـــرى

ولكــن هــل انتهى سبيل الكلمــات والتهانــى ؟

لقد وجدنا فــى الربــاط بحثا آخر للعلامة محمد الشاذلى النيفر عن «مساهمة القرويين فى اللقاح العلمى بين المغرب وتونس» كما وصلت كلمة ثالثة لسعادة رئيس الجامعة اللبنانية فؤاد افرام البستانى يحيى فيها جامعة القرويين ورابعة مــن جامعــة على كرة بالهند، وخامسة من البروفيسور فور من كلية الآداب بالرباط، وسادسة من الاستاذ المنونى مــن مكناس .

اعضــاء آخــرون

وتخليدا للذكرى نذكر هنا بقية اسماء الاعضاء الذين اسهموا من غير ان يذكر اسمهم سابقا : الاستـــاذ عبــد العــزيز حسين مدير المعارف بامارة الكويت، والاستاذ كمال التارزى من وزارة التعليم بالجمهوريــة التونسية، والاستاذ محمد ابن تاويت الطنجى من جامعة انقرة، والسيد زاهدوف من اكاديمية طشقند، والحاج احمد التيجان والاستاذ محمد حبيب من السنيغال والسيد كاحموف من الوفد الروسى، وما تزال اطراف العالم الى الآن تردد صــدى هــذه المهرجــانات لقد اتصلنــا مــن الجمهوريــة الاندونيسية وغير الاندونيسية بكلمات التهانى والمتمنيات ...

السـجـل المحـفـوظ

وبعد، فهذه ثلاث وثمانون كلمة... فيها البحث، وفيهــا الشعر وفيها الوجدان ...، املنا ان تطلع كلها قريبا فى سجل يحفظ ذكرى هذه القرويين التى تشرف على عهد باسم زاهر باذن الله.

عبد الهادى التــازى

الكــاتــب العــام للمهرجان

فهرست